فنّ الخطابة في الأندلس

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع: ..... التاريخ: ١٢/١٢/١٩٩٩

إعداد

نوال عبد الرّحمن محمد الشوابكة

إشراف

الأستاذ الدكتور صلاح جرّار

قُدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلّبات درجة الماجستير
في اللغة العربيّة وآدابها

كليّة الدراسات العليا
الجامعة الأردنيّة
تشرين الثاني ١٩٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نُوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٣ / ١١ / ١٩٩٩م

أعضاء لجنة المناقشة

١- الأستاذ الدكتور صلاح جرّار/ رئيساً

٢- الدكتور جاسر أبو صفيّة / عضواً

٣- الدكتور حمدي منصور/ عضواً

٤- الدكتور فايز عبد النبي القيسي/ عضواً

التوقيع

.....

.....

.....

.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى تلك التعاريج التي خطّتها متاعب الحياة فوق الجبين، فنهلت العزم والتصميم منها ليكونا نبض حياتي ...

وذلك القلب الذي لم تغمض أجفانه، ولم يصمت لسانه، فارتويت منه حبّ العلم والتضحية، وعجزت عن شكره ...

والدي ووالدتي

إلى فارس وخالد، وإلى لؤي الذي عانى الكثير وتحمل معي ما واجهت من عناء، ومحمد وهيام وميسون وخلود ورنا وجيهان، الذين ذلّلوا أمامي الصعوبات، وكلّما استحكمت حلقات الدنيا وضاقت شدّوا من أزري، وبعثوا الأمل في قلبي ...

إخوتي وأخواتي

إلى أعزّ الصديقات: فايزة الربايعة ورغد الموازرة ...

إلى مَنْ أرقب شروق الشمس في بروج عينيه ...

ابن أختي، المعتز ...

إلى مَنْ غرس في داخلي الإرادة والتحدي والصبر، وشجّعني على مواصلة درب العلم.

النادي الأردنيّ

للرياضة الخاصة - مادبا

إليهم جميعاً أهدي هذا العمل المتواضع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

أسجل شكري لأستاذي الفاضل، الأستاذ الدكتور صلاح جرّار، الذي جاهد جهاد العلماء وبذل لي من وقته وجهده، بذل من يقدر على العطاء، ورعى من يبحثون عن بداية نديّة، تشدّهم إلى أعزّ ما يُعزّ من جذور أمة، وتاريخ وتراث يمهرونه ما في العروق قطرة فقطرة، وغرس في نفوسنا واجب الوفاء للحضارة العربيّة الإسلاميّة، لنقدم كلّ ما نختزن، وكلّ ما نضج من عصارة الفطن.

وأتقدم للأساتذة الأفاضل: الدكتور جاسر أبو صفيّة، والدكتور حمدي منصور، والدكتور فايز القيسي - الذين تفضّلوا بقبول مناقشتي- بالشكر الجزيل، لما منحوني من العون والمساعدة، وعلى ما لقيته من حسن معاملة رسخت في القلب، فكان لي شرف الاستعانة بهم في إعداد هذا البحث.

وأسجل شكري للأستاذ الدكتور عبد السلام الهرّاس، الذي آزرني وأرسل لي -من المغرب- نصحه وإرشاده، فبث روح الإرادة والتصميم في نفسي وشحذ من هِمّتي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
الملخص باللغة العربية	ح - ط
المقدمة	١ - ٢
التمهيد : ملامح الحياة العامة في الأندلس	٣ - ٢٠
أ- البيئة السياسية في الأندلس	٣ - ٩
ب- البيئة الاجتماعية	١٠ - ١٤
ج- الحياة العقلية	١٤ - ٢٠
الفصل الأول : نشأة الخطابة الأندلسية وتطورها	٢١ - ٣٧
أ- العوامل المؤثرة في الخطابة الأندلسية	٢٣ - ٣١
ب- المراحل التاريخية لتطور الخطابة الأندلسية	٣٢ - ٣٧
الفصل الثاني : أشهر خطباء الأندلس	٣٧-٥٤
- الخطيب القاضي منذر بن سعيد البلوطي	٣٧-٤٤
- القاضي عياض	٤٥-٤٩
- لسان الدين بن الخطيب	٤٩-٥٤
الفصل الثالث : أنواع الخطابة	٥٥-١٠٨
أ- خطب الجهاد	٥٦-٧٦
- خطبة طارق بن زياد	٥٦-٦٦
- خطبة موسى بن نصير	٦٦-٦٨
- خطبة عبد الرحمن الداخل	٦٨
- خطبة عبدالله عم أبي عبد الرحمن بن الحكم	٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة
- خطبة الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم في معركة "وادي سليط"	٦٩-٧٢
- خطبة أبي عبدالله بن أبي الخصال	٧٢-٧٣
- خطبة لسان الدين بن الخطيب	٧٤-٧٦
ب - خطب الدعوة إلى السلم	٧٧-٧٩
- خطبة الأمير عبد الرحمن بن الحكم	٧٧-٧٩
جـ - الخطب السياسية	٨٠-٩٣
اولا - خطب البيعة	٨٠
ثانيا - خطب الوفود	٨١-٩٣
د- الخطب الدينية	٩٤-١٠٤
- خطبة منذر بن سعيد البلوطي في ذم البنيان	٩٤-٩٦
- خطبة البلوطي في الاستسقاء	٩٦-٩٨
- خطبة أبي عبدالله بن الجنان	٩٩
- خطبة القاضي عياض	١٠٠-١٠٢
- خطبة أحمد بن الحسين بن علي الزيات	١٠٣-١٠٤
هـ- الخطب الاجتماعية	١٠٥-١٠٨
- خطبة أبي بحر صفوان بن إدريس	١٠٥-١٠٧
- خطبة ابي عبدالله بن الفخار	١٠٨
الفصل الرابع : الخصائص العامة للخطابة في الأندلس	١٠٩-١٣١
أ- البناء الفني :	١٠٩-١١٥
- المقدمة	١٠٩-١١١
- الموضوع	١١١-١١٣
- الخاتمة	١١٣-١١٥
ب- السمات الفنية	١١٦-١٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة
- اللغة والأسلوب	١١٦-١١٨
- الأثر الديني	١١٨-١٢١
- المزج بين النثر والشعر	١٢١-١٢٣
- الفنون البديعية	١٢٤-١٢٩
- الإيجاز والإطناب	١٢٩-١٣١
- المصادر والمراجع	١٣٢-١٤٨
- الملخص باللغة الإنجليزية	١٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

فنّ الخطابة في الأندلس

إعداد

نوال عبد الرّحمن محمد الشوابكة

المشرف

الأستاذ الدكتور : صلاح جرّار

تناول هذا البحث الخطابة في الأندلس إبان الحكم الإسلامي، وحاولت دراسة نصوصها دراسة تحليلية، وتحديد سماتها الفنية في ضوء ما يعززها.

وجاءت الدراسة في تمهيد وأربعة فصول :

عرض التمهيد لملامح الحياة العامة في الأندلس: البيئة السياسية والبيئة الاجتماعية، والحياة العقلية.

وعالج الفصل الأول: نشأة الخطابة، والعوامل المؤثرة في ضعفها وإزدهارها ومراحل تطورها، منذ تولي بني أمية للأندلس وحتى أفول نجم المسلمين في غرناطة.

أما الفصل الثاني: فقد تناولت نماذج لأشهر الخطباء وإلقاء الضوء على بعض المحطات في حياتهم، ودورها في إزدهار الخطابة في الأندلس.

وعرض الفصل الثالث: للنصوص الخطابية وإظهار مدى تمثل تلك النصوص للمواقف وآراء أصحابها.

واستعرض الفصل الرابع: دراسة السمات الفنية للخطابة الأندلسية في ضوء ما وصل إلينا من نصوص خطابية.

وتوصلت الدراسة إلى جملة نتائج، أهمها :

- أنّ خطب الجهاد والحرب تعرضت لنقص بعض عباراتها أو زيادتها، ربما لتشويه صورة الفتح والفاتحين، مما تؤكده المصادر واختلاف الروايات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أنّ قلة النصوص الخطابية، لا تعني قصور الخطابة في الأندلس أو غيابها أو عدم وجودها.
- أنّ اهتمام المؤرخين بالوقائع والأحداث السياسية، أدى إلى عدم إثباتهم للنصوص أو عدم ذكرها أصلاً، مما حال دون إعطاء صورة جليّة للخطابة في الأندلس.
- تنوعت موضوعات الخطابة الأندلسية، واتسعت باتساع الحضارة في الأندلس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

تتبوأ الخطابة مكانة في الأدب العربيّ بشكل عام، فهي فنّ قديم ارتبط بحياة المجتمع العربي. وقد مرّ هذا الفنّ في الأندلس بمراحل شتّى، فضعف وازدهر وواكب تطور المجتمع الأندلسيّ منذ الفتح حتّى سقوط غرناطة آخر معاقلها، فعكس بعض ملامح الحياة السياسية والاجتماعية والحياة العقلية، على ما كانت تعتريه من حالات الصمت والانزواء في كلّ عصر أو مرحلة يمرّ بها.

ومما دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع، أنّني لم أجد في كل ما مرّ معي من مصادر ومراجع أيّة دراسة مستقلة تحدد ملامح هذا الفن في الأندلس ، وتكشف السّتار عن مكانته بين ألوان النثر الفنّي الأخرى، أو أيّة دراسة أدبيّة فنيّة شاملة، وجلّ ما نجده دراسات عامه تناولت نُبذاً من تلك الخطب وعلّقت عليها أحياناً، أو تضمنت إشارات تؤيد وجود الخطابة في الأندلس، كما سنرى عند الدكتور حكمة الأوسي في كتابه (فصول في الأدب الأندلسيّ) وإبراهيم أبو الخشب في كتابه (تاريخ الأدب العربيّ في الأندلس)، أو تنبيء عن ضعفها أحياناً أخرى، كما سنرى عند علي بن محمد في كتابه (النثر الأدبيّ في الأندلس في القرن الخامس).

فأحببت أن أتعمّق في دراسة فنّ الخطابة الأندلسيّة ، واتبعت في ذلك منهجاً علمياً دقيقاً ، مع إدراكي أنّ ما قمت به هو مخاطرة شديدة.

ولعلّ من الصعوبات التي واجهت الدراسة ندرة نصوص الخطابة التي تمثل تطور هذا الفن في مختلف القرون في الأندلس، واختلاف روايات الخطب في كتب المصادر من جهة أخرى، أو نقصها بشكل كبير عن بعضها.

ولقد بذلت جهدي في سبيل تجاوز تلك الصعوبات، فرجعت إلى المصادر العربيّة في التاريخ والأدب والتّراجم واللغة ، وإلى طائفة من المراجع الحديثة. وبذلت الوسع في المطالعة والدّرس والاستنتاج ، للوصول إلى تحقيق الهدف المنشود.

وقد جاءت الرسالة في تمهيد وأربعة فصول. تناولت في التمهيد ملامح الحياة العامة في الأندلس بإيجاز، فتكلّمت عن الفتح وأسبابه، وأوضاع الحكم العربيّ ومظاهر البيئة الاجتماعيّة والحياة العقليّة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتناول الفصل الأول مراحل نشوء الخطابة وتطورها في الأندلس ، منذ مرحلة الحكم الأموي وما اعتراها من ظروف، وعوامل أدّت إلى وقوعها في أوقات متأرجحة ما بين الازدهار والضعف.

وفي الفصل الثاني انتقلت إلى محطات في حياة بعض أعلام هذا الفنّ في الأندلس، ومساهمتهم في الخطابة والنثر الفنيّ بشكل عام، فقدّمت لمحة موجزة عن حياتهم بالقدر الذي يفي بتوضيح دورهم في هذا الميدان.

وبعد ذلك، انتقلت في الفصل الثالث إلى نماذج من الخطابة الأندلسيّة، وقد صنّفتها في خمس مجموعات تفرّعت حسب أغراضها ومضامينها، وهي خطب الجهاد، والخطابة في موقف الدّعوة إلى السّلم. والخطابة السياسيّة، وتضمّ: خطب البيعة، وخطابة الوفود. ثم الخطابة الدينيّة، والخطابة الاجتماعيّة.

ثم عرضت في الفصل الرابع إلى دراسة السمات الفنية للخطابة في الأندلس منذ الفتح حتّى نهاية الدّولة الإسلامية في الأندلس ، حيث رصدّت في هذا الفصل أهم الخصائص الفنية التي تجلّت في الخطب الأندلسية التي تأثرت -بشكل كبير- بظروف الحياة العامة في الأندلس، فعرضتُ للبناء الفنّي للخطب الأندلسيّة، ثمّ السّمات الفنيّة وأسلوب الطّبع والعفويّة الصّادقة، وأسلوب الاعتدال في الطّبع والتكلّف ، إلى الأسلوب المسجوع المقصود بذاته، ومدى تأثر الأسلوب بشكل عام بالاقتباسات من القرآن الكريم والأحاديث النبويّة الشّريفة، والمزج بين النثر والشّعر. ثم درست الإيجاز والإطناب مشيرة إلى أسبابهما ودواعيهما.

ولقد التزمت في أثناء البحث النّظرة المتجردة ، فلم أتعصب لرأي من الآراء إلاّ بقدر ما رأيت أنّه أقرب إلى الدّقة. ولا أدّعي كمال هذا البحث وإحاطته بجزئيات الموضوع وتفاصيله الدّقيقة، وأن كلّ ما توصل إليه خال من الأخطاء بريء من العلل، بل إن نتائجه قابلة للنقاش والدّرس في ضوء ما يجد من معلومات أو ظهور آثار أدبيّة مما تحفل به المكتبات الإسبانيّة.

وختاماً، فإنّ لي في توجيهات الأساتذة وانتقادات الباحثين ما يُصحّح المسار، ويهدي إلى الصواب ، وأسأل الله أن يلهمني الإخلاص في القول والعمل، وهو حسبي ونِعْمَ الوكيل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التمهيد

ملامح الحياة العامة في الأندلس

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملامح الحياة العامة في الأندلس

أ- البيئة السياسيّة في الأندلس:

بدأ العهد الإسلاميّ بفتحها على يدي موسى بن نصير[١] الوالي الأمويّ على شمال إفريقيا من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، ومولاه طارق بن زياد[٢] ، عندما تهيأت الظروف لفتح الأندلس.

وقد أسهب المؤرخون قدماء ومحدثون في دراستها والبحث عنها، فأوضاع الحكم في موقف حرج، نتيجة تسلط الحكام على الشعب الإسبانيّ ، وكثرة الضرائب والجبايات، والصراع بين طبقات المجتمع، والاضطهاد الدّينيّ ، ثم سوء الأوضاع بين يليان حاكم سبتة وملك إسبانيا غيطشة الذي اعتدى على ابنة يليان، فقرر أن ينتقم منه بمساعدة العرب ، كلّ هذه وغيرها كانت من العوامل التي ساعدت العرب على نجاحهم في فتح الأندلس[٣] .

وتناوب على حكم الأندلس بعد موت موسى بن نصير وطارق بن زياد ، عدد من الولاة تفاوتت مدة حكمهم[٤] .

وفي الوقت الذي أفل فيه نجم بني أميّة في المشرق عام ١٣٢ هـ ، وتعقّب العباسيون الأمويين وأخذوا ينكّلون بهم، لمع نجمهم في الأندلس، "وكان

---

(١) موسى بن نصير ، من التابعين ، ولد سنة ١٩ هـ ، ينتسب إلى بكر بن وائل ، وهو من أعظم الزعماء الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب. ترجمته في : ابن خلكان، وفيات الأعيان :٣١٨/٥ ، مؤلف مجهول، أخبار مجموعة : ص ٣، النّاصري، الاستقصا : ٩٥/١ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ٥٨/٢ .

(٢) طارق بن زياد بن عبد الله الليثي، وفي بعض الروايات طارق بن عمرو من البربر الزناتيين أو النفزاويين، مولى لموسى بن نصير (٥٠-١٠٢ هـ). أخباره في : ابن عذاري، البيان المغرب: ٥/٢ ، المقري، نفح الطيب: ٢١٧/١-٢٣٨.

(٣) عبد الواحد المراكشي، المعجب : ص ١٠ ، ابن عذاري، البيان المغرب: ٧،٢/٢ . تاريخ ابن خلدون ، المسمى العبر: ١١٧/٤ ، المقري ، نفح الطيب: ٢٥١/١-٢٥٢

(٤) تفاصيل ذلك في: الحميري، صفة جزيرة الأندلس : ص ٣٦ ، ابن عذاري ، البيان المغرب: ٣٥/٢ -٣٦ ، ٥١، المقري، نفح الطيب : ٣٢٧/١ -٣٢٨ ، ٣٦/٣ ، ٤٨-٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ممـــن حالفه القدر، فأفلت من قبضتهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشـــام ابـــن عبد الملك"[١].

فاتجه إلى إفريقية فالأندلس ، "ووافق ما كان مـــن الإحـــن بيـــن اليمنيـــة والمضرية فأصفقت اليمنية على أمره لكون الأمر كان ليوسف بن عبد الرحمـــن الفهري وصاحبه الصميل"[٢]، " فاستغل عبد الرحمن هذه الظروف ودخل الأندلـس بمساعدة حلفاء بني أمية ١٣٨ هـــ، ونجح في التغلب على آخر ولاتها يوسف بـــن عبد الرحمن الفهري[٣]، وإحياء الدولة الأموية التي انهارت في المشرق.

فأصبح أميرها " ولقّب بالداخل، وبعد ثمان سنوات من بيعته أي في ســـنة ١٤٦ هـــ، رفع العلاء بن مغيث [٤] راية العصيان، وانضمّ إليه خلـــق كثـــير"[٥] على أنّ " النصر كان لعبد الرحمن وجيشه إذ أسقط جندهم وأخمل ذكرهم" [٦] .

غير أنّ الخلاف شبّ بين العرب أنصار عبد الرحمن الداخل والبربر الذين أعلنوا عصيانهم على الإمارة الأموية، ثم امتدّ الخلاف إلى العرب أنفسهم، حيـــن أدّى الشعور القبليّ الذي سيطر على نفوس العرب أن ينسوا أحياناً الأمور العظيمة التي جاءوا لتحقيقها في الأندلس ، وهي نشر الإسلام؛ لكنّ الدّاخل استطاع إخمـــاد الفتن الداخليّة والخصومات القبليّة ، فاستقرت الأمور بالأندلس وســـاد الـــهدوء، وكانت وفاته سنه ١٧٢هـــ.

ولقد نهج أحفاد الداخل طريقه بحزم وقوة ، وعملوا على استنقاذ الإمـــارة الأموية من الضياع، فقد انتقل الحكم إلى ابنه هشام؛ (١٧٢ هـــ -١٨٠ هـــ)، الذي ساس أهل الأندلس أحسن سياسة، وعرف بالعدل والتواضع إذ، "لم يأخذه في الله لوم، ولا تعلّق به ظلم ... وكـــان كريمـــاً، عـــادلاً، متواضعـــاً، عـــاقلاً"[٧].

---

(١) الحميدي ، جذوة المقتبس: ٣٨/١، ابن عذاري ، البيان المغرب: ٣٥/٢-٣٦، ابن خلدون ، العبر: ١٢٠/٤-١٢١ .

(٢) المقّريّ، نفح الطيب : ٣٢٨/١.

(٣) يوسف الفهري ، ولي أمر الأندلس، وهو ابن ٧٥ سنة عام ١٣٠ هـــ ، وهو آخر ولاتها ، توفي عام ١٤٢ هـــ. ترجمتـــه في: ابن الأبار، الحلّة السيراء: ٥٥/١ ، ابن عذاري، البيان المغرب : ٣٥/٢، المقّريّ، نفح الطّيب: ٦١/٢.

(٤) العلاء بن مغيث اليحصبي وقيل الحضرمي : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة : ص ١٠٧ والجذامي عند ابن عذاري ، البيـــان المغرب: ٥٠/٢.

(٥) عمر الدقاق ، ملامح الشعر الأندلسي : ص ١٥-١٦.

(٦) الحميري، صفة جزيرة الأندلس : ص ٣٦.

(٧) ابن عذاري ، البيان المغرب: ٦٥/٢ - ٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأعلى من شأن الفقهاء لتقواه وتدينه. ثم خلفه ابنه الحكم بن هشام (١٨٠هـ-٢٠٦هـ) الذي كان حازماً، ولكنه كان متهاوناً في أمور الدين ، فاستشرت الفتن، وانعدم الأمن، وعمل على "إقصاء الفقهاء عن التدخل في شؤون الدّولة ، وقصرهم على إقامة الشعائر الدينية، لهذا قام عليه الفقهاء والصلحاء" [١].

ثم خلفه ابنه عبد الرحمن الأوسط بن الحكم (٢٠٦ هـ -٢٣٨ هـ) ، وبعد أن توفي تعاقب على حكم البلاد بعده ثلاثة من الأمراء الأمويين، هم محمد ابن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ هـ - ٢٧٣ هـ) ، والمنذر بن محمد (٢٧٣ هـ -٢٧٥ هـ) ، وعبد الله بن محمد (٢٧٥ هـ-٣٠٠ هـ) . وقد عانت البلاد كثيراً إبّان توليهم الحكم ، وتكالبت على الدّولة أخطار داخلية وخارجية. [٢]

وأشرفت الدولة الأموية على الزوال إبان هذه المرحلة التاريخية، لولا عبد الرحمن الناصر[٣]، الذي ارتبطت هذه الفترة التاريخية بشخصه، ووصلت الدولة العربية في عهده إلى مستوى رفيع في البناء والقوة ،«حتى ألف الله به الأمة وكفاه بأحسن الكفاية وبسط بطاعته في الأقطار الأمن والطمأنينة، ومد له باليمن والغبطة والنماء والسعادة في انفساح الدولة فحطت إلى مصره الأمم، وأثنت عليه الألسن، وتبارى أهل المشرق في تفيؤ ظله الممدود والاعتصام بحبله المشدود، .. وتنوفس فيه من آفاق الأرض إلى مستقره ومستودعه،.. فتجمع منه في قاعدة مملكته ما لم يكن قبله وكملت على ذلك آلات الأدب في زمانه.."[٤] وبقي الأمر على هذا الحال حتى توفي سنة ٣٥٠ هـ، وولي الحكم بعده ابنه الحكم المستنصر (ت ٣٦٦هـ) ، ويعدّ عهده امتداداً لعهد والده ، بما فيه من قوة وازدهار واستقرار. [٥]

---

[١] انظر: المقري، نفح الطيب: ٣٤٢/١ نقلا عن ابن حزم ، ومن المحدثين الذين تحدثوا عن ذلك حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والدينيّ ، والثقافيّ والاجتماعيّ:٢٠٥/٢.

[٢] ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ص ١٦، ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٣/٢. ومن المحدثين الذي فصلوا الحديث حول ذلك: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ص ٢٤٣.

[٣] الخليفة الناصر، هو: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الربضي بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ولادته ٢٧٧ هـ، بويع له بعد جده سنة ٣٠٠ هـ، أول من تلقب بالخلافة سنة ٣١٦هـ ، توفي سنة ٣٥٠ هـ. ترجمته في : ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤١٨/٥-٤٢٠، ابن سعيد ، المغرب : ١٧٦/١ -١٨١، ابن عذاري ، البيان المغرب : ١٥٦/٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ص ٢٨ -٢٩، المقري، نفح الطيب: ٣٥٣/١ .

(٤) ابن حيان، المقتبس : ٢٣/٥، وانظر : المقري ، نفح الطيب : ٣٣٦/١ نقلاً عن ابن حيان مع اختلاف اللفظ

[٥] انظر: ترجمته في : ابن الفرضيّ ، تاريخ علماء الأندلس : ٣١/١ ، الضبي، بغية الملتمس : ٤٠/١ - ٤٢ ، ابن عذاري ، البيان المغرب : ٣٥٤/٢ -٣٥٨، الذهبي، سير أعلام النبلاء : ٢٣١/١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم أخذ نجم الأمويين بالأفول بعد وفاة الحكم المستنصر ، واستبداد الحاجب المنصور بن أبي عامر [١] بالحكم ؛ إذ استغل صغر سنّ ولي العهد هشام المؤيّد ، وثقة زوجة المستنصر صبح ، ولم يبق للخليفة إلا السلطة الاسمية فقط ، وقد تمكّن ابن أبي عامر من الحفاظ على هيبة الدّولة ، فقاد الكثير من الغزوات ضد الفرنجة في الشمال، ولم يهزم في واحدة منها. وكان عهد ولده المظفر[٢] استمراراً لعهده الزاهر.

جاء بعده أخوه عبد الرحمن الذي تلقب بالمأمون ، وسار على نهج أبيه ولكنه كان مستهترا ؛ حيث بدت مظاهر الانحلال تظهر، وابتدأ ما يعرف في التاريخ الأندلسي بعهد الفتنة (٣٩٩ هـ -٤٢٢ هـ) . حيث شهدت هذه المرحلة صراعات مريرة بين المسلمين، وتناوب الحكم فيها عدد من الحكام من العرب والبربر ، فما أن يتولى الحكم خليفة ويعلن الناس بيعتهم له حتى يثور عليه خليفة آخر فيسجنه أو يقتله ، وهكذا [٣].

وزاد الأمر سوءاً بين الأمراء الأمويين أنفسهم ، وبينهم والبربر من جهة أخرى مما أدى إلى الاستعانة بالأمراء من الفرنجة الذين يتربصون للانقضاض على المسلمين والقضاء عليهم فكانت المساعدة، ولكن بثمن غال جداً وهو تسليم بعض المدن والقلاع لهم؛ فعمت الفوضى السياسية، وزاد توجه الأمراء إلى اللهو والترف والإغراق في الملذات . وظل الأمر كذلك إلى أن حلت سنة ٤٢٢ هـ ، فسقطت الدولة الأموية ومال الأمراء إلى الانفصال والاستقلال بحواضر الأندلس، فبدأ ما يُسمى بعصر ملوك الطوائف أو عصر الفرق كما يطلق عليه ابن الكردبوس[٤].

---

(١) المنصور بن أبي عامر، هو : محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، أصله من الجزيرة الخضراء ، دامت حجابته ٢٦ عاماً ، توفي سنة ٣٩٢ هـ. ترجمته في : ابن بسام ، الذخيرة: ق٤/م١ ، ص ٧٤، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ٥٩ -٧٧، المقريّ ، نفح الطيب : ١/٣٧٣ -٣٧٦. وأخباره في : ابن سعيد، المغرب: ١/١٩٤-١٩٦ ، ابن عذاري، البيان المغرب : ٢/٢٧٥-٢٧٦، ٣٠١ ، المقري، نفح الطّيب : ١/٣٩٦.

(٢) عبد الملك المظفر ، خلف أباه المنصور في الحجابة ، حكم الأندلس في عهد هشام المؤيد بالله (٣٩٢ -٣٩٩ هـ). ترجمته في: ابن بسّام ، الذخيرة : ق٤ /م١ ، ص ٥٨-٦٦، المراكشي، المعجب : ص ٤٠، ابن سعيد ، المغرب: ٢/٣٠٠ ، ابن عذاري، البيان المغرب : ٣/٣١-٣٨، المقريّ، نفح الطّيب: ١/٤٢٣ .

(٣) تفاصيل ذلك في : ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ص٩٠،٩٦ ، تاريخ ابن خلدون: ٤/١٤٧-١٤٨.

(٤) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس : ص ٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وزادت المشاحنات بين هذه الممالك بسبب طمع كلّ منها في توسيع أملاكها وسلطانها، واشتعلت الفتن بينها، ومنها: مملكة إشبيلية [١]، ومملكة قُرْطُبة[٢]، ومملكة بَطْليوس [٣]، ومملكة غَرْنَاطَة [٤] وغيرها . فأخذ الوجود الإسلاميّ يضعف ويفقد قوته، في حين بدأت النّصرانية تنمو، وكانت نتيجة ذلك أن سقطت بعض المدن بيد دول إسبانيا النصرانية، ومنها على سبيل المثال، مدينة بَرْبَشْتَر [٥].

ونتيجة للصراع القائم بين هذه الممالك وغيرها من ممالك الأندلس، وسقوط المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى، وزيادة تحكم الإسبان بها ، طلب الأندلسيون الاستعانة بالمرابطين، حيث تصدى يوسف بن تاشفين لهذا الانهيار الذي أصاب الأندلس ، وتمكن من الانتصار على الفرنجة في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ[٦]. ثم عاد إلى المغرب ، ولكن الأندلس تعرّضت لخطر الفرنجة مرة أخرى ، " فرجع ابن تاشفين إلى الأندلس واستولى عليها، وعلى يديه انقرض ملوك الطوائف".[٧]

ثم جهز جيشاً عظيماً من المرابطين والأندلسيين بقيادة محمد بن الحاج [٨]، وبدأ ابن تاشفين باستعادة المدن الأندلسية [٩]،وبذلك عادت الأندلس كلها لتكون موحدة تحت

---

(١) استطاع بنو عبّاد مد نفوذهم والسيطرة عليها لفترة من الزمن ، ومن أشهر ملوكها المعتمد بن عباد.

(٢) من أشهر ملوكها أبو الحزم بن جهور، وولده من بعده ، عرف بالدهاء والسياسة ، توفي سنة ٤٣٥ هـ. ترجمته في: ابن خاقان ، مطمح الأنفس: ص١٨٠-١٨١، ابن سعيد، المغرب: ٥٦/١.

(٣) كان من ملوكها العلماء والمظفر بن الأفطس، محمد، وعرف باهتماماته العلمية ، توفي ٤٦٠ هـ. ترجمته في : ابن بسام، الذخيرة: ق ٢/م٢، ص ٦٤٠، ابن سعيد، المغرب: ٣٦٤/١، المقريّ، نفح الطّيب : ٣٨٠/٣.

(٤) مملكة أقامها بنو زيرى الصنهاجيين. الحميري، الروض المعطار: ص ٤٥ .

(٥) تقع شمال سرقطة ، وقد تعرضت لمحنة شديدة عندما استولى عليها الصليبيون سنة ٤٥٦ هـ، وفي سنة ٤٥٧ هـ استطاع أحمد بن هود أمير سرقسطة أن يستردها : ابن بسّام، الذخيرة: ق٣/م١ ، ص ١٧٩ وما بعدها، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٣٧٠/١ ، الحميري ، الروض المعطار: ص ٩٠ -٩١.

(٦) انظر: أخبارها ونتائجها في : ابن بسام ، الذخيرة ق٢/م١، ص ٢٤١ -٢٤٣، ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس: ص ٩٣ -٩٥ ، الحميري، الروض المعطار: ص ٢٩١، يوسف اشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين : ٨٥ -٩٤. إقليم بطليوس في غرب الأندلس، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١٤٦/٣، الحميري، الروض المعطار: ٢٨٧ - ٢٩١.

(٧) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس : ص ١٠٦ ، تاريخ ابن خلدون : ٣٨٤/٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام: ٢٥٠/٣ .

(٨) هو أبو عبد الله محمد بن سموين بن محمد بن ترجوت ، المعروف بابن الحاج ، وهو ابن عم يوسف بن تاشفين ، وله دورٌ في المعارك التي دارت بين المرابطين والفرنجة، استشهد في معركة البورت سنة ٥٠٨ هـ . ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب: ص ١٦٠-١٦١، تاريخ ابن خلدون : ٣٨٣/٦.

(٩) أخبار ذلك في: ابن عذاري ، البيان المغرب : ٤١/٤ - ٤٢ ، الحميري ، الروض المعطار: ص٢٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حكم المرابطين. وفي سنة ٥٠٠ هـ توفي يوسف بن تاشفين في مراكش [١] . وظل المرابطون يقومون بدور البناء، وإشاعة الأمن والاستقرار حتى ثار عليهم الموحدون ، فضعفت قوتهم.

ويرتبط ظهور الدولة الموحدية بمحمد بن تومرت[٢] ، ففي سنة ٥٠١ هـ خرج ابن تومرت يطلب العلم في الأندلس والمشرق، فحج ولقي أئمة العلم والفكر، وكان فصيحاً قوي الحجة "أظهر غيرة شديدة على الإسلام وأعلن حرباً حقيقية على كل مظهر من مظاهر الانحراف، فقد أراق الخمور، وحطم آلات الغناء والطرب ، وأغلظ القول للمجان، وكان ينجيه من الاصطدام بهؤلاء جميعاً مظاهر الصلاح والتقوى التي كانت باديه عليه"[٣].

وبعد وفاة ابن تومرت ، تولى الحكم عبد المؤمن بن علي[٤] ، الذي ارتفعت مكانته في النفوس بعد أن حقق نصره على المرابطين . وتوسع سلطان الموحدين ووصلوا الذروة بعد أن انتصر أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور[٥] في موقعة الأرك[٦] الشهيرة ٥٩١ هـ ، إلا أن ملوك إسبانيا المسيحية أخذوا يعدون العدة ليثأروا لأنفسهم من هزيمتهم في الأرك، فكانت وقعة العقاب[٧] ٦٠٩ هـ ، ضربة قوية أخذت بعدها الدولة الموحدية بالانهيار السريع وأخذ العدو يحتل القلاع والحصون، ولم يبق بأيدي المسلمين في نهاية عهد الموحدين من الأندلس سوى مملكة غرناطة، وانسحب الموحدون من الأندلس.

---

(١) ترجمته في: ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ١١٢/٧ وما بعدها ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ٢٥٢/٣ . الحلل الموشية : ص ٨١ - ٨٣.

(٢) ابن تومرت ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت البربري المصمودي الهرغي، الخارج بالمغرب، المدعي أنه علوي حسني، وأنه الإمام المعصوم المهدي رحل من السوس الأقصى شاباً إلى المشرق، فحج وتفقه وحصل أطرافاً من العلم، وله فصاحة في العربية والبربرية. ترجمته في : ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٤٥/٥ -٥٥، ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥٦٠/٦، ١١٩/٧، ٣١٦ ، المراكشي ، المعجب : ١٧٨ - ١٨٧ ، تاريخ ابن خلدون: ٤٦٤/٦ - ٤٧٢، الناصري، الاستقصا: ٨٣/٢.

(٣) المراكشي، المعجب: ص١٧٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان : ٤٦/٥-٤٧ ، بروفنسال ، مجموع رسائل موحدية : ص ١٦٥ - ١٦٦ . الرسالة الثالثة والعشرون.

(٤) عبد المؤمن بن علي، يكنى أبا محمد زناتي الأصل، وكان والده فخاراً يعمل النوافخ ، توفي ٥٥٨ هـ . ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢٣٧/٣ -٢٤١، المكناسي ، جذوة الاقتباس : ٤٤٦/٢-٤٤٧، ابن الأثير، الكامل في التاريخ : ٥٦٠/٦ -٥٧١ .

(٥) أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، دام حكمه من سنة ٥٨٠ هـ -٥٩٥ هـ ، ترجمته في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/٧ وما بعدها، المراكشي، المعجب: ص ٢٦١، المقري ، نفح الطيب : ٢٣٨/٢

(٦) الأرك: حصن منيع بمقربة من قلعة رباح. الحميري، الروض المعطار : ص٢٧.

(٧) العقاب: تقع بين جيان وقلعة رباح، انهزم فيها الجيش الموحدي، فكانت على المسلمين الهزيمة الكبرى، أمام ملوك إسبانيا المسيحية في سنة ٦٠٩هـ. الحميري ، الروض المعطار: ص ٨٧ . ابن الخطيب ، أعمال الأعلام: ص ٢٧٠ -٣٣١.

٥٢١١١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبقي الأمر إلى أن ظهر بنو الأحمر، وهم "من "أرجونة" حصن من حصون قرطبة، ويعرفون ببني نصر، وينتسبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج"[١] ، حيث أخذت غرناطة تضم أشلاء الأندلس بعد استيلاء الإسبان على معظم المدن الأندلسية. وأخذت غرناطة تدافع عن وجودها على يد مؤسسها الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر[٢] وذلك سنة ٦٣٥هـ، ليبدأ تاريخ مملكة غرناطة، إلا أن الأمر أخذ يسوء "لكثرة الفتن والانقلابات والخلافات الداخلية والقتل"[٣]، واخذ المد المسيحي، يجتاح أرض الأندلس، مثلما اجتاحت الاطماع سلاطين بني الأحمر، فكانت السياسة متقلبة ما بين هدنة وصلح أو حرب وسلم، ولعل ذلك مد في عمر الدولة، إذ ساعد تولي عدد من السلاطين في ذلك، فقد ازدهرت البلاد ونعمت بالاستقرار في عهد أبي الحجاج يوسف الأول الذي يعد من "جلة الملوك فضلاً وعقلاً واعتدالاً".[٤]

وربما تعد أخطر المراحل التي مرت بها غرناطة، تلك المرحلة التي شهدت العداوات بين السلطان أبي الحسن (٨٦٧هـ)، وأخيه أبي عبد الله الزغل (٨٨٧هـ)، وابنه أبي عبد الله الصغير (٨٨٨هـ) وقد نتج عنها وقوع أبي عبد الله الصغير في أسر ملك قشتالة، ولم يطلق سراحه إلا بشروط تقتضي تسليم غرناطة لهم.

وهكذا انطوت بسقوط غرناطة آخر صفحة من التاريخ الاسلامي في الأندلس، وغربت شمس العرب، وانهار ملكهم فيها بعد أن دام ثمانية قرون (٩٢هـ- ٨٩٧هـ).

---

(١) المقّريّ، نفح الطّيب: ١/٤٤٧.

(٢) جاء في ترجمته أنه، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي الأنصاري، من سلالة بني الأحمر، وعرف بالشيخ، ولقب بأبي دبوس، توفي سنة ٦٧١هـ. ودام الملك في ذريته، ترجمته في: تاريخ ابن خلدون: ٤/٣٦٦-٣٦٩، ابن الخطيب، الإحاطة: ٢/٩٢، كناسة الدّكان: ص١٨-١٩، المقّريّ، نفح الطّيب: ١/٤٤٧.

(٣) انظر : المقّريّ، أزهار الرياض: ٢/١١-٢٠، نفح الطّيب: ٧/١٦٢-١٧٠.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ص٣٠٥، وأخباره في: كناسة الدّكان: ص٢٤-٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- البيئة الاجتماعية:

بعد أن دخل العرب الأندلس، كان لابدّ من أن تنعكس الأحداث السياسيّة على المجتمع، فمن الطبيعي أن لا ينعم المجتمع الأندلسيّ في أول الأمر بالأمن والاستقرار، إلّا أنّه بدأ شيئاً فشيئاً يتقبل هذا الانتقال الجديد، "إذ أقبل بعض سكان البلاد من الإسبان على الإسلام، وتعلّموا اللغة العربية، وأقبل المسلمون على التزاوج من أهل البلاد"(١).

كان المجتمع الأندلسي في بدايته امتداداً لدولة الإسلام في المشرق، إذ أخذ الفاتحون يعملون على إرساء قواعد الدولة الإسلاميّة، فقد كثر بناء المساجد في كلّ أرض يفتحونها، وظهرت صورة المجتمع تضمّ عناصر شتّى، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون، والوافدون من عرب وبربر وموال من بلاد متعددة.

غير أنّ المصادر لا تعطي صورة واضحة عن معالم المجتمع الأندلسيّ في عهد الولاة الفاتحين، وما لبث أن تكاثر عدد العرب الوافدين الى الأندلس بعد تمكن عبد الرحمن الداخل من القبض على زمام الأمور في الأندلس، وطبع المجتمع بالطابع الأندلسي المميز، بالرغم من "تعدد العناصر بين السكان من العرب والبربر والموالي والمولدين وغيرهم، إلّا أنّ الروابط كانت تقويها في أغلب الأحيان البيئة المشتركة والسياسة الموحدة"(٢).

ثم حظي المجتمع الأندلسي في عهد عبد الرحمن الأوسط ببعض التقدم والازدهار، إذ "بنى بالأندلس جوامع كثيرة، ورتّب رسوم المملكة"(٣). واكتسب المجتمع الأندلسيّ ألواناً من الحضارة بقدوم زرياب(٤)، الموسيقي المشهور إلى الأندلس، فأدخل عادات جديدة وتقاليد راقية في الموسيقى والغناء، والأناقة في اللباس، وحب الترف والتأنق والأخذ بمتع الحياة(٥).

---

(١) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي: ص٢-٥.

(٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ص ٤٩٨-٥٠٢

(٣) المقّريّ، نفح الطّيب: ٣٤٧/١.

(٤) زرياب، هو: أبو الحسن، علي بن نافع، مولى الخليفة المهدي، وتلميذ إبراهيم الموصليّ، توفي ٢٨٣هـ. ترجمته في: المقّري، نفح الطّيب: ٣٤٤/١و ١٢٢/٣، بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسيّ: ص٥٢ وما بعدها.

(٥) انظر: تفاصيل ذلك : المقّريّ، نفح الطّيب: ١٢٦/٣-١٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا الناصر فقد أهتم بالعمران، ولا سيّما في بناء القصور، وبناؤه لمدينة الزهراء[١] دليل أكيد على ذلك، وسار على نهجه في البناء المنصور العامري الذي بنى مدينة الزاهرة[٢]؛ إلّا أنّه في آخر عهده كثرت الفتن والاضطرابات، وأخذ في قتل من يخشاه من بني أمية،.وفرّق باقيهم في البلاد[٣].

وبعد أن سقطت الخلافة الأموية في الأندلس، وتمزقت البلاد إلى دويلات صغيرة مستقلة انشغل ملوكها بشرب الخمر، واقتناء القيان، والإغراق في اللهو والملذات، والتباهي في انتحال الألقاب السلطانية[٤]، وانتقلت مظاهر الترف والبذخ من القصور إلى مجالس الأغنياء وعامة الشعب فكانت الدار تكلف أصحابها مبالغ مرتفعة جداً، وتزدان بالأثاث الفاخر، وطريقة بنائها، ما لم ير مثله في قصور الأمويين أيام عزهم.[٥] فتاق المجتمع إلى الخلاص بقدوم المرابطين، إلا أنّ الأندلس عادت الى مثل حالتها في عهد ملوك الطوائف؛ فاتجه قسم كبير من المجتمع إلى الزهد كرد فعل لتيار الحياة اللاهية[٦].

ثم قامت الدولة الموحدية على الإدارة ونظام الطبقات الشعبية، التي رتبها ابن تومرت، واهتمت بالسلطة التشريعية، وكان القضاة يعينون من قبل الخليفة نفسه[٧]. فتمتع الناس بالأمن والاستقرار، وكان من أبرز المظاهر الاجتماعية، تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتشدد الحكّام في القضاء على مظاهر الفساد فحاربوا الخمر، وحطّموا آلات الغناء[٨]. ولكن ذلك لم يستمر، فانقلبت الأمور في أواخر عصرهم، إذ مال كثير من الأمراء والخلفاء الى تيار الحياة اللاهية، فعاشت الأندلس مثلما عاشت في أواخر العصور التي توالت عليها بين اتجاهين: الانحراف واللهو والمجون، و كان هذا

---

(١) انظر حول ذلك في: ابن حاقان، مطمح الأنفس: ص٢٥٧-٢٥٨، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس "المسمى المرقبة العليا": ص٦٩، المقّريّ، نفح الطّيب: ١/٥٧٠.

(٢) انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٧٥، المقّريّ، نفح الطّيب: ١/٥٧٨-٥٨١.

(٣) انظر: ابن عذاري، المصدر نفسه: ٢/٢٨١-٢٨٢، المقّريّ، المصدر نفسه: ١/٥٩١.

(٤) انظر: ابن بسام، الذخيرة: ق٣/م١، ٣٢٠، المقري، نفح الطيب: ١/٢١٣، ٣/٤٠٨.

(٥) انظر: ابن بسام، الذخيرة: ق٣/م١، ص١٧-١٨.

(٦) المراكشي، المعجب: ص٢٠، وفي المقّريّ، نفح الطيب: ٣/٤٩١. وردت مجموعة من الأبيات الشعرية الداعية للزهد.

(٧) المراكشي، المعجب: ص١٨٧-١٨٨، بروفنسال، مجموع رسائل موحدية: ص٥٤، الرسالة، الثانية عشرة.

(٨) ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة: ص٢٢٨-٢٢٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/٤٦-٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شأن الحكام والأمراء والأثرياء في الأغلب، والذي أدّى الى اتجاه مناقض له، هو التصوف والتقوى والصلاح.

والمجتمع الغرناطيّ، ككلّ المجتمعات في جميع العصور فيه الجوانب المظلمة جنباً إلى جنب بجوار الجوانب المضيئة، ومن ذلك تأثر بعض فئات المجتمع بعادات مخالفة للدين مثل تعاطي الحشيش والخمر[١]. ولكنه بقي مجتمعاً إسلامياً ، ونعم أهله بالحرية والتمدن الحضاريّ، فالطبيعة الغرناطية بأنهارها وخصوبة تربتها منحت العرب المسلمين خيراً، فأنتجوا علماً وأدباً وثقافة كبرى، وحياة مترفة ونهضة عمرانيّة يرجع الفضل فيها إلى أمرائها الذين تركوا معالم حضاريّة شاهدة على حضارة المسلمين في الأندلس، ومنهم أبو الحجاج يوسف الأول[٢] وابنه محمد الخامس[٣]، إذ يعود الفضل لهما في بناء قصر الحمراء[٤] بغرناطة[٥]، إلّا أنّ المجتمع بشكل عام عانى من الحسرة والتشرد والنزوح، وأخذت رقعة المسلمين على أرض الأندلس تنحسر شيئاً فشيئاً.

وبهذا نرى أنّ الأندلس عانت من كثرة الحروب والفتن، من جهة وعاشت حياة الاستقرار والهدوء والحضارة التي ساهمت في بنائها البيئة الأندلسيّة نفسها من جهة أخرى. ولا غرو في ذلك فالأندلس بلاد غنيّة بمواردها الطبيعية، فيها السهول والأنهار، فهي بيئة صالحة للزراعة، ونشطت فيها الصناعة التي تعتمد على المنتوجات الزراعية والمستخرجات المعدنية[٦].

---

(١) ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق، أحمد مختار العبادي، ص ٢٠-٢١ .

(٢) يوسف الأول (٧٣٣هـ- ٧٥٥هـ)، تولى الملك وهو ابن ست وعشرين، فاضطلع بالأعباء. ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ص٣٠٤، وكناسة الدّكان: ص٢٤.

(٣) الغني بالله محمد بن يوسف الأول، ولي الملك بعد أبيه وكان عفيف النفس. ترجمته في: ابن الخطيب، الإحاطة: ٢/١٥، تاريخ ابن خلدون: ٧/٣٧٤.

(٤) وصفه في: ابن الخطيب، الإحاطة: ١/١٢٢، وفي حاشية كناسة الدكان: ٥٩-٦٠ بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس: ص٢٥.

(٥) غرناطة: من أقدم مدن إلبيرة من أعمال الأندلس: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٤/١٩٥، وذكر الحموي أنّه يقال إنّ الصحيح أغرناطة بالألف في أوله أسقطها العامة. الحميريّ، الرّوض المعطار: ص٤٥.

(٦) انظر الحميريّ، الرّوض المعطار: ص٣٢، المقّري، نفح الطّيب: ١/٢٠٠-٢٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما كان للتجارة شأن عظيم لكثرة ثغور الأندلس، فكانت إشبيلية[١] "تصدر القطن والزيت"[٢] وانتشر بمُرْسية[٣] "ما يصنع فيها من أصناف الحلل والديباج" [٤]، مما زاد في إشاعة الترف والغنى والنمو الحضاريّ واتّساع الحركة العمرانيّة التي شهدتها سائر أنحاء البلاد.

أمّا عن وضع المرأة في المجتمع الأندلسي فإنّها في العهود الأولى للوجود الإسلاميّ في الأندلس، "كانت تعيش خلف حجاب أشدّ من حجاب المرأة المشرقية"[٥] ولم يقف ذلك أمام الاهتمام بها وتعليمها، وقد حافظ المجتمع على شرفها وصيانة حرمتها، فما من امرأة حلّت بها كارثة إلّا وأسرع لتخليصها، "فالمنصور بن أبي عامر لم يتأخر عن إغاثة احداهن حين أسرها العدو" [٦].

وفي عصر ملوك الطوائف والمرابطين، برزت المرأة في مختلف ميادين الحياة العامة، وكانت تقوم بتربية وتأديب أبناء الأمراء والأغنياء، فابن حزم "تلقى تعليمه وثقافته على يد نساء قصر أبيه"[٧] ، ومن النساء المشهورات في هذا العصر مريم بنت أبي يعقوب"[٨].

أما المرأة الموحدية، فقد كانت أقل ظهوراً واختلاطاً في المجتمع إذا قورنت بالمرأة المرابطية، فقد أنكر اختلاط النساء، ومنع سفورهن خارج بيوتهن[٩]، وأخذت تعاليم ابن تومرت تشدد على ذلك، ولم يكن ذلك يمنعها من التعلم والتعليم ولا سيما بعد أن

---

(١) ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي: ص ٢٠-٢١،

(٢) الحميريّ، الرّوض المعطار: ص ٥٩.

(٣) مرسية : مدينة بالأندلس، وهي قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، المصدر السابق: ص ٥٣٩-٥٤٠ .

(٤) ابن سعيد ، المغرب: ٢٤٥/٢

(٥) ابن حيان، المقتبس ، نشر شالميتا وآخرين: ٩/٥-١٠ ، أحمد أمين ، ظهر الاسلام: ٣٠/٣ .

(٦) المقّري ، نفح الطيب : ٤٠٣/١-٤٠٤ ، ٥٤٦-٥٤٧ .

(٧) ابن حزم، طوق الحمامة، مقدمة، صلاح الدين القاسمي: ص٢٢.

(٨) شاعرة كانت تعلّم الأدب للنساء. ترجمتها في: الحميديّ، جذوة المقتبس: ٦٥٠/٢، المقّري، نفح الطّيب: ٢٩١/٤

(٩) انظر : النويري، نهاية الأرب: ٢٧٩/٢٤ ، حيث يورد الحادثة التي تروى عن المهدي محمد بن تومرت وأخت علي بن يوسف المرابطي . ونرى أنّه لا يوجد في الحادثة ما يعارض الدين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فرضه عبد المؤمن على عامة الناس وجعله إلزامياً ومجانياً، بحيث يشمل النساء والرجال[١].

ونالت المرأة في عصر بني الأحمر قسطاً وافراً من الحرية الاجتماعية[٢]، فقد ذكر ابن الخطيب "أن النساء خرجن لاستقبال السلطان يوسف الأول حاسرات الوجوه، واخترقن صفوف الرجال فكان الإعجاب ببريق الرماح والعيون وحمرة البنود والخدود"[٣]، ولمعت أسماء بعضهن في مختلف حقول العلم، ومنهن أم الحسن بنت أبي جعفر الطنجالي (ت٧٥٠هـ) [٤]، التي اشتهرت في الطب والأدب.

أما الجواري، فقد استطعن فرض أنفسهن على المجتمع، منذ أخذ أمراء بني أمية يستكثرون منهن حتى ذخرت بهن القصور ، وكانت الجواري تقوم بالتدريس[٥] بل كان لهن دور مهم في سير المجتمع الأندلسي، وإشعال الثورات بسبب تدخلهنّ في السياسة والحكم[٦]. ففي عصر بني الأحمر حاولت إحدى الجواري وهي زوجة لأبي الحجاج يوسف الأول أن تستغل محبته لها وتطلب منه ولاية العهد لابنها اسماعيل بدلاً من أخيه محمد من الجارية الأخرى، لكنها فشلت في ذلك[٧].

ج- الحياة العقلية:

مما لا شك فيه أن ازدهار الحياة العقلية يرتبط ارتباطا وثيقا بالظروف المحيطة: السياسية والاجتماعية والحضارية، في أي مكان.

---

(١) انظر: بروفنسال، إ. ليفي، مجموع رسائل موحدية، ص١٤٢، الرسالة الثالثة والعشرون.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة: ١٣٩/٢.

(٣) مشاهدات لسان الدين في المغرب والأندلس: ص٥٠.

(٤) المقري، نفح الطيب: ٣١٨/٤.

(٥) انظر: المصدر نفسه: ١٧١/٤.

(٦) انظر: المقري، أزهار الرياض: ٢٠٢/١، ومن المحدثين الذين ذكروا دور الجواري في سير المجتمع الأندلسي، وائل أبو صالح، الجواري في الأندلس: ص ٧٢ .

(٧) المقري، أزهار الرياض: ٢٠٢/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو هذا واضحاً في إطار حديثنا عن ملامح الحياة العقلية في بلاد الأندلس، ففي السنوات الأولى للفتح العربي حيث اتجه الاهتمام نحو تثبيت دعائم الدولة الإسلاميّة في الأندلس، وما يتبعه من حروب وقتال بين المسلمين والفرنجة، أو بين المسلمين أنفسهم، فإن الحياة الثقافية تأخذ خطواتها الأولى، ولا سيما بعد هجرة العرب المسلمين واستقرارهم، "وقد عرفت الأندلس هجرات متتالية من المشارقة، فدخلها أبناء الصحابة والتابعين"[١].

فتكونت بذلك البذور الأولى للثقافة العربية في الأندلس، ولعل ما تزخر به المكتبات الإسبانيّة من الآثار الأدبيّة، يحمل لنا ما نستطيع أن نستدل به على الحياة الفكريّة في تلك العصور.

لكنّ أنماط الثقافة التي تجلت في عصر الولاة، كانت تتمحور حول علوم الدين واللغة، فقد كان هذا دور العلماء الذين كانوا يرافقون الجند بهدف الدعوة الإسلامية ونشر مبادئها.

ومع تغير الظروف السياسيّة والاجتماعيّة، كانت الحركة الفكريّة تتغير وتتطور لتمتد الى معظم ضروب العلم والمعرفة، وقد ساهم عبد الرحمن الداخل بعد توليه الحكم، وإمساكه بزمام الأمر، بأن يهيىء الفرصة لرحلة عدد من العلماء الأندلسيين إلى المشرق، ثم عودتهم بعد التزود من العلوم والمعارف ، وكذلك هجرة علماء المشرق[٢] إلى الأندلس بحيث يساهم مثل هذا التأثر والتأثير في إغناء الحركة الفكريّة.

وكان لاهتمام الحكام والخلفاء بالعلم والعلماء، دور كبير في تطور الثقافة، فقد كان أمراء بني أمية من محبي العلم والمعرفة ، ففي عهد عبد الرحمن بن الحكم لقيت الحركة الفكرية عناية كبيرة ، إذ كان "عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة"[٣].

ونالت الحركة العلمية اهتماماً كبيراً في عهد ابنه محمد من بعده، إذ كان "مكرماً أعلام الناس، مقدماً لطبقاتهم من ذوي الفقه والعلم منهم، يرفع مجالسهم[٤]". وفي عهد الناصر نهضت الآداب والعلوم "وكان زمنه شباب الأدب "[٥] ؛ فعقد مجالس العلم والأدب

---

(١) انظر: الزبيدي، طبقات النّحويين واللّغويين: ٢٨١-٢٨٢، والمقّري ، نفح الطّيب : ٢/٢١-٢٢.

(٢) من المصنفات التي خصت أولئك العلماء بترجمات وافية وفي مواطن متفرقة : ابن بسام ، الذخيرة، المقّري، نفح الطّيب .

(٣) المقري، نفح الطيب: ١/٣٤٧.

(٤) ابن حيان ، المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق د. محمود علي مكي: ص ٢٤٥

(٥) عبد العزيز عتيق ، الأدب العربيّ في الأندلس : ص ٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستقبل الوفود[١]، إذ كان الراسخ في أذهان الحكام والملوك، إن الحاكم القوي هو الذي يكثر مادحوه وجلساؤه من الأدباء والعلماء، وقد كان من حسن حظ الحركة الثقافية، ولا سيما الخطابة أن ملوك البلاد لم يكونوا في الغالب يكتفون بتقريب أهلها وأدبائها، بل كان عدد منهم من أهل العلم، يناقش في مسائل العلم جلساءه من العلماء، وقد تجاوز بعضهم ذلك إلى الاسهام الفعلي في الخطابة، إذ كان لا بد لهؤلاء الخلفاء في بداية حكمهم من دعائم يوضحون فيها سياستهم في الحكم، وطمأنة الناس إلى دعوتهم وجدارتهم بالحكم، فكان كل خليفة بعد بيعته يتقدم لشعبه ويبين سياسته كما فعل عبد الرحمن بن الحكم.

أما الحكم المستنصر "فقد كان محباً للعلوم، مكرماً لأهلها جماعاً للكتب في أنواعها، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله"[٢]، وازدهرت العلوم والآداب في عهده، فقد كان مولعاً بالكتب جمع منها الكثير، وأرسل في طلبها إلى الأقطار واشتراها بأثمان مرتفعة "وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني، .. وأرسل اليه فيه بألف دينار من الذهب العين، فبعث اليه بنسخة من قبل أن يخرجه إلى العراق[٣] .

وعرفت الأندلس اهتماماً كبيراً بالكتاب والمكتبات، حيث اقتفت الأمة الأندلسية آثار أمرائها في العناية بإنشاء المكتبات.[٤]

كل هذا أدى إلى نهضة علمية وثقافية في الأندلس، تمخض عنها عدد من العلماء الأندلسيين في مختلف أصناف العلم والمعرفة، وبدأت معالم الشخصية الأندلسية تتضح . الا أنهم كانوا يقبلون على علوم الدين واللغة والتاريخ والطب وغيرها، ويرغبون عن الفلسفة والتنجيم، ولعل مرد ذلك إلى تأثير الدين ونفوذ رجاله في المجتمع الأندلسي ، فقد كان – كما هو معروف – معظم أهل البلاد على مذهب مالك . وعليه فإن معظم العلوم حظيت بالعناية والرعاية باستثناء الفلسفة والتنجيم ، فكل من يشتغل بهما " أطلقت عليه العامة اسم زنديق"[٥].

على أن الحركة الفكرية الأندلسية، استمرت لتخطو خطوات واسعة في عصر ملوك الطوائف رغم الضعف والتجزئة ، ولعل " تفكك الدولة وتمزقها إلى دويلات صغيرة

---

[١] ابن خاقان، مطمح الأنفس: ص ٢٤٠، ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٢٧١٧/٦، المقري، نفح الطيب: ٣٦٤/١، أزهار الرياض: ٢٧٢/٢.

[٢] انظر: الحميدي ، جذوة المقتبس : ص ٤٣/٢ ، تاريخ ابن خلدون: ١٤٦/٤، المقري نفح الطيب : ٣٨٥/١ .

[٣] المقري، نفح الطيب: ٣٨٦/١ .

[٤] المصدر نفسه : ٤٦٢/١

[٥] المصدر نفسه: ٢٢١/١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

زاد في تنافس أصحابها في اجتذاب العلماء ورعاية العلم " [١]. وكان معظم ملوك الطوائف من كبار العلماء والأدباء ، الذين يحرصون على أن يوفروا أسباب العظمة والشهرة لممالكهم بتشجيعهم ضروب العلم والعلماء . وقد كان للقاضي محمد بن عباد [٢] "في العلم والأدب باع، ولذوي المعارف عنده بها سوق وارتفاع"[٣].

وبهذا نرى أنّ النهضة الفكرية في عصر ملوك الطوائف امتداد للعصور السابقة، التي مهدت لمثل هذه النهضة فضلاً عن الحرية "وبروز عدد من العلماء الأفذاذ في ميادين المعرفة المتعددة"[٤] ، مما جعل عصر الطوائف من أزهى العصور الأدبية؛ فكانت بلاد الأندلس مركز الحضارة والثقافة، وإلى ذلك يشير صاحب المعجب، بقوله: "إنّ عامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون إليها معدودون منها، فهي مطلع شموس العلوم وأقمارها ومركز الفضائل وقطب مدارها"[٥].

وقد أشار بالنثيا إلى ذلك، بقوله: "فأقبل أهل الأندلس على وضع التآليف القيمة الواسعة في كلّ فنّ، فكتبوا في تاريخ الأندلس مثل ابن حيان[٦]، والحميدي[٧] وغيرهما"[٨]، "ولقد كانت مجالس ملوك الطوائف، مدارس لتوجيه الأدباء، وكانت الأحكام التي تصدر من الملوك ومن الأدباء أنفسهم، ذات أثر فعال في توجيه الذوق العام، ...، ومن هذه المجالس مجالس المعتمد ابن[٩] عباد"[١٠].

---

(١) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي : ص ١٣.

(٢) محمد بن عباد، هو: أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ، أول ملوك بني عباد بإشبيلية ، توفي سنة ٤٣٣ هـ. ترجمته في : الحميدي ، جذوة المقتبس : ١٣٤/١ ، ابن بسام ، الذخيرة : ق٢/م١ . ص ١٣ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ١٥٣/٢-١٥٥.

(٣) ابن بسام، الذخيرة: ق٢/م١. ص١٣.

(٤) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي: ص١٠-١٥. ومن الدراسات الحديثة التي رصدت أسماء عدد من العلماء والأدباء: فايز القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري: ص٢٤-٢٩.

(٥) عبد الواحد المراكشي، المعجب: ص١٦٣.

[٦] هو أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، من أهل قرطبة، ولد سنة ٣٧٧هـ، وتوفي سنة ٤٦٩هـ، وهو صاحب كتاب المقتبس في أخبار الأندلس. ترجمته في: ابن بسام، الذخيرة: ق١/م١. ص ٥٧٣-٤١٦، ابن بشكوال، الصلة: ١٥٣/١-١٥٤.

[٧] الحميدي، هو: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر بن فتوح، من أهل جزيرة ميورقة الأندلس، رحل إلى المشرق سنة ٤٤٨هـ فحج وسمع بمكة ودمشق وغيرها، واستوطن بغداد، وكان فقيها محدثا، توفي سنة ٤٨٨هـ. ترجمته في: تاريخ ابن خلدون: ٣٢٣/٣، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٥٢/٢، المقري نفح الطّيب: ١١٢/٢.

[٨] بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي: ص ٢٠٧.

[٩] أبو القاسم محمد بن عباد، المعتمد على الله، حاكم إشبيلية الزعيم الشاعر، تولّى الحكم سنة ٤٦١هـ واستمر إلى أنّ خلع سنة ٤٨٤هـ ونفي إلى أغمات حيث أودع السجن، توفي سنة ٤٨٨هـ. ترجمته في: ابن الأبار، الحلة السيراء: ٥٢/٢-٦٧، المراكشي، المعجب: ص ١٥٨، ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ص ١٥٧.

[١٠] مصطفى عوض الكريم، الأدب الأندلسي في عهد المرابطين: ص ١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما لا يرقى إليه شك هو أن كل مدة زمنية سابقة، "كانت مدة اعداد وتخمر لعناصر الثقافة المختلفة"[١]، بحيث تساهم في تقدم وازدهار الحركة العقلية في العصور اللاحقة، فقد ازدهرت الثقافة في عصر المرابطين، ويشير إلى ذلك عبد الواحد المراكشي: "وانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من أهل الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة، ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار"[٢].

فلم يكن عصر المرابطين إلّا استمراراً للرعاية والعناية بالعلم والعلماء، فظهر كثير من علماء الفقه والتصوف، واللغويين والنحويين، والمفسرين، والفلاسفة كابن طفيل[٣]، ومنهم من اشتهر بالسياسة والشعر كأبي بكر الطرطوشي [٤]، وغيرهم، مما أوردهم المقري في أجزاء متفرقة من النفح، وكما جاء في المغرب في حلى المغرب وغيرهما من المصادر الأندلسية.

وازدهرت الحركة الثقافية في عصر الموحدين، لأنهم ساروا على نهج زعيمهم الأول وتربوا على أخلاقه في حب العلم والعلماء، فجعل عبد المؤمن خليفة المهدي ابن تومرت التعليم إجباريا ومجانيا للرجال والنساء، وانتشرت المدارس وتعددت المراكز العلمية، وازدهرت علوم الدين واللغة. وذكرت المصادر[٥] اعدادا وافرة من العلماء والأدباء والمفكرين في مختلف العلوم، الذين يرجع إليهم الفضل في إحياء الحركة الفكرية واستمرارها في القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع، على الرغم من سقوط بعض المدن الأندلسية في يد النصارى والهزيمة التي لحقت بالمسلمين في معركة العقاب.

ومع اضطراب الأوضاع في النصف الأول من القرن السابع الهجري، فإن الحيلة العقلية في الأندلس كانت تواصل إثبات وجودها، وخاصة في مملكة غرناطة، إذ كان

---

(١) مصطفى العيس، فن الرسائل في الأدب الأندلسي في عصر الخلافة الأموية والطوائف: ص١٧.

(٢) المراكشي، المعجب: ص١٦٤.

(٣) ابن طفيل: أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسي، كان محققا لجميع أجزاء الحكمة قرأ على جماعة من أهلها، منهم أبو بكر ابن الصائغ المعروف بابن باجة وغيره. وله تصانيف كثيرة، منها "حي بن يقظان" وكان حريصا على الجمع بين علم الشريعة والحكمة، توفي سنة ٥٨٢هـ. ترجمته في: ابن الأبار، تحفة القادم: ص٩٦-٩٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١٣٤/٧، ابن سعيد، المغرب: ٨٥/٢.

(٤) أبو بكر الطرطوشي: محمد بن الوليد بن محمد بن خلف المعروف بابن أبي رندقة ولد سنة ٤٥١هـ، وأصله من طرطوشة، توفي ٥٢٠هـ. ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢٦٢/٤-٢٦٥، بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي: ص١٧٤.

(٥) من مثل: ابن الأبار، التكملة، ١٢١/١، ١٢٢ و ٨١٦/٢، ٨٣٥، ٨٤١، ٨٥٠، ٨٥٦، ٨٧٥، ابن الزبير، صلة الصلة: ص ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٠ ..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملوكها يرعون الأدب والعلم، ولا سيما في عصر السلطان أبي الحجاج يوسف إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥هـ).

وفي أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن نلاحظ استمرار الحركة الفكرية في تقدمها، ومن أشهر أدباء تلك الفترة الرئيس أبو الحسن علي بن الجياب[١]، ابن الخطيب[٢] وغيرهما من الأدباء الذين أسهموا في ازدهار الحركة الأدبية في القرن الثامن الهجري.

وبرز في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجري، الأمير أبو الوليد اسماعيل ابن الأحمر (ت٨٠٧هـ)، وكان بارعاً في فنون النثر والنظم، وقد أشار بنظمه في ترجمته لنفسه، حيث قال: "وفي أنواع الشعر أتصرف، ونظمه بي يتشرف..."[٣] ، ومنهم "القاضي أبو بكر محمد بن عاصم القيسي الغرناطي، الذي برع في مختلف الفنون، وعرف بابن الخطيب الثاني لجودة نثره ونظمه".[٤]

وكان لتشجيع أمراء وملوك الأندلس للعلم والعلماء، الأثر الكبير في تعدد مظاهر النشاط الفكري، ومنها الرحلة في طلب العلم حيث كان العالم يشد الرحال إلى المشرق، ثم يعود إلى الأندلس بعد أن حصل علماً عظيماً، ومنهم عبد الملك بن حبيب[٥] الذي صنف تفسير القرآن في ستين مجلداً ، ومنذر بن سعيد البلوطي الذي ترك لنا مصنفات عدة منها أحكام القرآن والناسخ والمنسوخ، كذلك فقد كثر الوافدون إلى الأندلس من المشرق، وقد أسهم هؤلاء في وضع البذور الأولى للحركة الفكرية في الأندلس، ويعد أبو علي القالي[٦] من العلماء الأوائل الذين رحلوا الى الأندلس، وأغنوا العلوم اللغوية فيما جلبوه من

---

(١) أبو الحسن علي بن الجياب، وزير السلطان يوسف أبي الحجاج وكاتبه، ولد بغرناطة سنة ٦٧٣هـ. وتوفي سنة ٧٤٩هـ. ترجمته في: ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة: ص١٨٣ وما بعدها، ريحانة الكتاب: ٣٧٩/٢.

(٢) سترد ترجمته في الفصل الثاني من الدراسة.

(٣) ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان: ص٣٧٧.

(٤) ولد بغرناطة ٧٦٠هـ، وتوفي ٨٣٩هـ، المقري، نفح الطيب: ٨/٣-٩.

(٥) عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي الإليري، القرطبي، أبو مروان عالم الأندلس وفقيهها في عصره، أصله من طليطلة من بني سليم أو من مواليهم، ولد في إلبيرة وتوفي بقرطبة، وكان عالماً بالتاريخ والأدب، له تصانيف كثيرة منها: "تفسير موطأ مالك، ومصابيح الهدى. ترجمته في: الضبي، بغية الملتمس: ٤٩٠/٢، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس: ٤٦٢/١، بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي: ص١٩٣.

(٦) أبو علي القالي، هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون البغدادي، صاحب الأمالي والنوادر، وفد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن، وكان أعلم الناس بنحو البصريين وأحفظ أهل زمانه، توفي ٣٥٦هـ، ترجمته في الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: ص٢٠٣ ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس: ١٣٨/١، ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٧٢٩/٢، المقري، نفح الطيب: ٧٠/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كتب وتصانيف لغوية، وقد أورد المقري كثيراً من أسماء الوافدين على الأندلس في كتابه النفح بجزأيه الثاني والثالث.

ومن المظاهر الفكرية أيضاً إقامة المجالس العلمية، للمناظرة والمناقشة والمذاكرة في الأدب والمسائل العلمية والفكرية ولا سيما في الفقه والمذاهب. (١)

وصفوة القول، هذه طائفة من الحقائق، تلقي الضوء على الحياة العقلية في الأندلس وما أصابها من نمو وازدهار، ورافقها من حرية ساهمت في اتساع ضروب الثقافة والمعرفة الأندلسية.

(١) ابن بسام، الذخيرة: ق٢ ، م١/٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

نشأة الخطابة الأندلسية وتطورها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نشأة الخطابة الأندلسية وتطورها

برزت حاجة المجتمعات الإنسانيّة، في كلّ بقعة من بقاع الأرض، لوسيلة يعبرون بها عن أفكارهم ومشاعرهم منذ القدم، فقد كانت طبيعة الحياة تقتضي أن يختلف الناس في الرأي، ويتصارعوا ويتنافسوا على مراكز القوة، ويتجادلوا ويحاولوا استمالة نفوس السّامعين لرأيهم، فاستلزم ذلك فنّاً لمخاطبة الجمهور.

لذلك كانت الخطابة سلاحاً قوياً أداته اللسان، وحاجة ملحة، وضرورة ترتكز عليها الأمم والشعوب على اختلاف عصورها، في بيان مبادئها ومذاهبها، وسياساتها في الحكم، وفضّ النزاعات، "إذ اتخذتها الإنسانيّة سلاحها في السّلم والحرب"[١].

ولذا، ما زالت إلى الآن سلاحاً صارماً له دوره الفاعل، ومرتكزاً قامت عليه سياسات، وثورات قطعت شأفة الأعداء، وشحذت القوى المعنويّة في النفوس، وما زالت طريق المجد الشخصيّ، والمنفعة العامة، كما أنّها "مظهر اجتماعي للمجتمع الراقي"[٢].

ويقيت الخطابة الفن القولي الذي يلقى أمام جمهور يسمع ويرى، وتترك فيه أثراً عظيماً، يحدث تغيرات جذرية في حياة الأمم والجماعات والأفراد، ومرآة تعكس صورة الحياة، فكانت بهذا "صنواً للشعر، كلاهما ينسج صورة المجتمع وبدونهما تندثر ملامحه"[٣].

وعلى ما تقدم فإنّ رقيّ الخطابة وقوتها، لا ينفصلان في حال من الأحوال عن قائلها إذ تعتمد اعتماداً كبيراً عليه، فهو الذي يهيج نفوس سامعيه أو يهدئها بفصاحته وبلاغته، وقدرته على أن يوائم بين الموضوع والشكل الخارجي؛ من مظهره وشخصيته، ووقفته وحركات يده، وطريقة إلقائه وصوته ونبراته، وقدرته على إقناع المستمعين عقلياً، وكسب ثقتهم ليحثّهم على التحرك نحو الهدف المنشود، وقد أشار الجاحظ إلى ضرورة: "أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللّحظ، متخيّراً اللفظ.."[٤].

---

[١] إبراهيم أبو الخشب، تاريخ الأدب العربي في الأندلس: ص ٧٦.

[٢] محمد أبو زهرة، الخطابة وأصولها، تاريخها: ص٢٢.

[٣] د. فايز ترحيني، الخطابة والنهج: ص ١٣.

[٤] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين: ٥٢/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلا غرابة أن يلقى الخطيب على مرّ العصور، التقديـــر والاحـــترام والمنزلـــة المهمة لدى الشعوب والحكّام.

ونستعرض في هذا الفصل البواعث والعوامل التي تبعث على الخطابة، وتـؤدي إلى رقيها وازدهارها، وهذه البواعث والعوامل قد تتغير تبعاً للزمان والمكـــان، وتبعـــاً لتغير الأحوال.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- العوامل المؤثرة في الخطابة الأندلسيّة

كانت الحاجة إلى الخطابة في الأندلس ملحة، لأنّها كانت سلاح الناس في السلم والحرب، وكان لها دور فاعل، فمنذ أيام الفتح وعهد الولاة، ساهمت مساهمة فاعلة في الفتوحات الإسلامية والجهاد، وبلغت درجة عالية من السّمو. ولعلّ خطبة طارق بن زياد- سيرد ذكرها في الفصل الثالث من هذه الدراسة – تعد نموذجاً واضحاً على بلاغة الخطابة، ودورها في بثّ الحماس في نفوس الجند، فكانت عاملاً في انتصار الجيش القليل على جيش القوط عظيم العدد والعدة.

فالجهاد في سبيل الله، وفتح البلاد، يحتاج إلى تغذية الروح المعنوية بحيث يندفع الجند نحو هدفهم، وهو نشر الإسلام في البلاد التي يفتحونها، ولا يحدث ذلك الا بقائد له في بلاغة الكلام وفصاحته، القدرة الخطابية التي تشحذ نفوس السّامعين وتثير مشاعرهم، وهذا ما عرف به العرب الفاتحون، فقد عرف عنهم سرعة البديهة، وساعدهم في ذلك سلامة الملكات، وحفظهم القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، لما كان لذلك من أثر في النفوس.

ومن الطبيعي أن تأتي الفتوحات الإسلامية في الأندلس بالانتصارات، وهذا يتطلب الإشادة بالنصر حثّاً على المزيد منها.

وإلى جانب الفتوحات ظهرت العصبية القبلية التي أحياها المضريون واليمنيون بمجرد قدومهم إلى الأندلس، وزاد هذا الصراع أنّ أبا الخطّار الحسام بن ضرار الكلبي[1] – وهو يمنيّ – تولّى بلاد الأندلس سنة ١٢٥هـ، فقام في وجهه الصّميل بن

---

[1] أبو الخطّار هو : الحسام بن ضرار بن سلامان بن حثيم، ولي إمارة الأندلس في سنة ١٢٥هـ، من قبل حنظلة بن صفوان بن نوفل الكلبي والي إفريقية لهشام بن عبد الملك ثم الوليد بن عبد الملك، ويقال إنّ أهل الأندلس الشاميين والبلديين كتبوا إلى حنظلة بن صفوان يسألونه أن يبعث إليهم عند اختلافهم والياً، فبعث أبا الخطار، واجتمع على أبي الخطار أهل الشام وعرب البلد، ودانت له الأندلس وتعصب لليمانية، واعتزل قيساً، فكان ذلك سبب توثب الصّميل بن حاتم عليه مع مضر، بعد أن ولي سنتين، وقيل ثلاث سنين.
ترجمته في: الحميدي، جذوة المقتبس: ٣١٣/١-٣١٥، ابن الابار، الحلة السّيراء: ٦١/١-٦٦، ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٣/٢-٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حاتم[١] – وهو مضريّ – وخلعه وأسره، وولّى عليهم واحداً منهم هو ثوابة بن سلامة[٢] الجذامي سنة ١٢٧هـ، لكنّه توفي بعد سنتين.

وأراد أهل اليمن إعادة أبي الخطار، فرفضت ذلك مضر بزعامة الصميل، وافترقت الكلمة، وأصبحت الأندلس بغير أمير مدة أربعة أشهر، إلى أن استقر الأمر على أن يتولّى أمر الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري – وكان مضرياً – سنة ١٢٩هـ، ثم يلي الأمر بعد سنة اليمنية، فلما انقضت السنة وأراد اليمنيّة أن يولوا رجلاً منهم جاء عبد الرحمن بن معاوية، والمعروف بالداخل، فتغلب عليه وأسس في الأندلس دولة الأمويين الثانية، بعد أن انهارت دولتهم الأولى بالمشرق على أيدي العباسيين[٣].

ومن الصراعات التي سادت في الأندلس في وقت مبكر، ما كان بين البلديين والشاميين، والبلديون هم عرب الأندلس القدماء الذين وفدوا مع موسى بن نصير وحاربوا معه، ثم استقروا في الأندلس، واعتبروا أنفسهم أهل البلاد، لذا كرهوا أن يأتي الشاميون إلى الأندلس [٤].

وقد أدّى هذا إلى الحاجة لخطباء يدعون إلى السّلم ونبذ العصبية، وبهذا لم تقتصر العهود الأولى على الحروب بين المسلمين والنصارى في اوروبا[٥]، بل حدثت الفتنة بين المسلمين أنفسهم، وفي المقابل فإنّ ملوك الإسبان الذين فقدوا ملكهم اغتنموا هذه الفرصة، فكانوا يحاولون التفريق بين المسلمين وتشتيت شملهم ووحدتهم، مما استلزم ذلك وجود الخطابة الداعية إلى السّلم، ووحدة الصف.

---

[١] الصّميل بن حاتم بن عمر بن شمر بن ذي الجوشن الكلابي، من أشراف عرب الكوفة، كان شجاعاً جواداً أميا لا يقرأ ولا يكتب، وهو الذي قام بأمر المضرية في الأندلس توفي ١٤٢هـ. ترجمته في: ابن الابار، الحلة السيراء: ٦٧/١-٦٨، ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٤/٢، ابن الخطيب، الإحاطة: ٣٤٥/٣-٣٤٩.

[٢] ثوابة بن سلامة الجذامي، كان من جند فلسطين، طلب إليه عرب الأندلس أن يتولّى أمرهم عندما انحرف أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي ومال إلى اليمن. وقد تولّى ثوابة من رجب ١٢٧، ترجمته في: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢، ابن الخطيب، أعمال الاعلام: ص ٧، المقريّ، نفح الطّيب: ٢٤/٣-٢٥.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٨/٢-٥٠، تاريخ ابن خلدون، المسمى "العبر": ٢٦٢/٤-٢٦٩، المقريّ، نفح الطّيب: ٢٨٢/١.

[٤] انظر: ابن الابار، الحلة السيراء: ٦١/١-٦٣، المقريّ، نفح الطّيب: ٢٢/٣.

[٥] انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين:١٢٧-١٣٠-١٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا غرابة في أنّ نجد أمر الخطابة، يعلو في الأندلس في أيام عبد الرحمن الناصر منذ إعلان الخلافة، "وأمره الناس بمخاطبته بأمير المؤمنين"[١]، وقد اتفق على أنّ عصره كان من ألمع عصور الدولة الأموية بالأندلس، فمنذ أنّ تولّى أمر زعامتها سنة ثلاثمائة للهجرة، وهو يحاول الإمساك بزمام الأمور في ظل الأحوال العصيبة والثورات الداخلية التي كادت -مع التهديدات الخارجية المحيطة - تودي بالدولة العربيّة الإسلاميّة.

فزاد تنافس الخلفاء والحكّام على رجال العلم والفقهاء وأتاحوا حريّة التنقل للأدباء والخطباء مما أوجد نوعاً من التنافس بينهم على مضاعفة امكانيات التعبير للوصول إلى أعلى درجات النضج الأدبيّ، ثم بدأت الدولة تتسع ومع تطور مرافقها ونمو حاجاتها ورقيها الاجتماعي وتنظيمها، تطورت الخطابة وزاد التنافس بين الاندلسيين وعلماء المشرق، ولعلّ خطبة منذر بن سعيد البلوطي - سترد في الفصل الثالث - في استقبال رسل الروم التي وفدت إلى بلاط عبد الرحمن الناصر دليل على ذلك.

فقد كان اللسان والجنان سلطان الوفادة، وهو من العوامل التي غذّت روح الخطابة في الأندلس، حيث كثرت الوفادة على الخلفاء والأمراء لإعلان النصرة والتأييد، وتقديم فروض الطاعة والوفاء والولاء لهم.[٢]

ورافقت ذلك الحرية التي يتمتع بها الخطباء، وهي حرية العربيّ وفطرته التي نمت معه، وكانت تدفعه إلى القول دون خوف من حاكم أو كلّ ذي سلطان. وكان لها الأثر الكبير في إعطاء علماء الدين نفوذاً وسلطاناً لدى الحكام والخلفاء ،"حيث أخذت الأمة تطمح إلى حياة أرقى فكانت تسخط على الأنظمة التي تخالف الدين، وتأمل أن

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٥٧-١٥٨.

[٢] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٥/١٧٤، المقّريّ، نفح الطّيب: ١/٣٦٤-٣٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحقق المثل العليا، فالعامل الدينيّ جامع للفئات المتباينة، وموحد للأمة وعـــامل علـــى تعبئتها للدفاع عن عقيدتها وقيمها"[١].

لهذا كثرت الحاجة إلى الخطابة في شؤون الدين، فزاد الخطباء من الوعظ الدينيّ في صلاة الجمعة والعيدين، إذ إنّ خطباء المساجد جاروا الحوادث، وعالجوا مشـــكلات المجتمع المتعددة والمتجددة" [٢]. ولعلّ خطبة القاضي منذر بن سعيد في ذمّ البنيان أمام الخليفة عبد الرحمن الناصر شاهد على دور خطباء المســـاجد فـــي إصـــلاح الأفـــراد والمجتمع، فالقاعدة الدينيّة كانت قوة قائدة للإبداع الحضاريّ، والدافع لرقي الخطابة.

ويلاحظ الباحث، من خلال الاطلاع على وجهات النظر المتعددة -سالفة الذكر- للنقاد والدارسين، وجود كثير من العوامل والمقوّمات التي أدّت إلى نـــهوض الخطابـــة وازدهارها في بلاد الأندلس.

وفي المقابل فإنّ هناك آراء أخرى[٣] ترى أنّ الخطابة لم يكن لها شأنّ في الأدب الأندلسيّ، وحجتهم في ذلك أنّ الأمراء الأمويين انصرفوا فـــي عصرهـــم الأول فـــي الأندلس إلى القضاء على الفتن والقلاقل، التي هـــي مـــن رواســـب عـــهد الفوضـــى والاضطراب في أثناء مرحلة الولاة، ولذلك لم يكن لهم في أول الأمر آثار في ميـــادين الثقافة تذكر، باستثناء النشاط الشعريّ التقليديّ الذي كانوا هم أنفسهم فـــي طليعـــة مـــن يتعاطاه في أوقات الفراغ، للتعبير عن حنينهم الدائم إلى أوطانهم وأهليهم في المشـــرق. وعليه فإنّ أصحاب هذا الرأي يرون أنّ اعتماد الولاة والخلفاء على السيف دون الكلمـــة أضعف الخطابة.

ويرجع بعض الدّارسين[٤]، قلّة ما وصل إلينا من الخطب في الأندلس إلى اعتماد الخطباء على الارتجال، وطول خطبهم، مما تعذر معه تدوين الكثير منـــها، ومـــا دوّن ربما ضاع مع ما ضاع من تراث العرب الفكريّ الذي أباده الإسبان عندمـــا تـــمّ لـــهم الاستيلاء على الأندلس.

---

[١] علي بن محمد، النثر الأدبيّ الأندلسيّ في القرن الخامس مضامينه وأشكاله: ص ١٠٩.

[٢] أحمد الحوفي، فنّ الخطابة: ص١١٣.

[٣] علي بن محمد، النثر الأدبيّ في الأندلس في القرن الخامس: ص١٩١.

[٤] د.حكمة علي الاوسي، فصول في الأدب الأندلسيّ في القرنين الثاني والثالث للهجرة : ص٥٦، إبراهيم علي أبو الخشب، تاريخ الأدب العربيّ في الأندلس ص٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى حكمة الاوسي، "أنّ الأدب كان بخير في الأندلس منذ دخلها العـــرب، إلاّ أنّ أخباره هناك لم تصلنا مفصلة، لأنّها لم يتح لها رواة يروونها أو نقله يستنســـخونها فيحفظونها في كتاب، ... وأنّ قيام الحرب بصورة مستمرة في الجزيرة، بين المســلمين والإسبان من جهة وبين العرب والبربر بعد ذلك، ثم بين العرب أنفسهم بعضـــهم مـــع بعض، كان من أسباب انصراف المعنيين بالأدب عن جمع أخباره وأخبار الأدباء"[١].

اما مصطفى السيوفي، فيرى أنّ قلّة المادة التي وصلت إلينا ليست دليلاً علـــى ضعف الخطابة، "وقلّة المروي عن أديب أو أدباء في فنّ معيّن لا يظن معه القصور أو النقص، وإلاّ فأين المروي عن جهابذة القول من المشرقيين كسحبان وقسّ بن ســـاعدة، اللذين ضرب بهما المثل فصاحة وبياناً ؟[٢]"

وصفوة القول، إنّ الخطابة الأندلسيّة كانت راقية ومزدهرة، وذات مكانـــة فـــي العصور الأولى إلى عصر ملوك الطوائف ولا يعني هذا عدم وجودها فـــي العصـــور المتأخرة، بل لقد كانت تقدم على الشعر، ويقدم الخطيب على الشاعر، ولشرفها تلقّـــب علماؤهم بالخطيب والفقيه، ونستنتج ذلك من كثير من المصادر[٣] التي ترجمت لهم، من هذه المصادر رسالة "التوابع والزوابع" لابن شهيد[٤]، فحينما يحلّق زهير بن نمير بـــابن شهيد إلى أرض الجن، يقول له: "حللت أرض الجن أبا عامر فبمن تريد أن تبدأ؟ قلت:

---

[١] حكمة علي الأوسي، فصول في الأدب الأندلسي، ص ٥٦.

[٢] مصطفى محمد السيوفي، ملامح التجديد في النثر الأندلسيّ خلال القرن الخامس الهجري: ص ٢٣٤.

[٣] نذكر منها : ابن بسّام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق١/م١، ابن الابار، الحلة السيراء: ج٢، المقريّ، نفح الطّيب:٧ج، وفي صفحات متفرقة.

[٤] ابن شهيد، هو: أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن مروان بن ذي الوزارتين الأعلى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بـــن عيسى بن شهيد الأشجعي الأندلسيّ، توفي سنة ٤٢٦هـــ. ترجمته في: الضّبّي، بغية الملتمس: رقـــم ٤٣٧، ابـــن بسّـــام، الذخـــيرة: ق١/م١. ص ١٦١، ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٢١٨/٢، الصفدي، الوافي بالوفيات: ٧٠/٧، ابـــن ســـعيد، المغـــرب: ٧٨/١، المقّري، نفح الطّيب: ٦٢/١-٦٢٣، و٢٤٢/٣-٢٦٢، وله ذكر كثير في نفح الطّيب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخطباء أولى بالتقديم، لكنّي إلى الشّعراء أشوق"[١] وهذا شاهد على أنّ الخطباء في رأي ابن شهيد مقدمون على الشعراء، وإن كانت كلمة الخطباء في هذ السياق تعني الكتّاب، بدليل أنّه عندما يذهب للالتقاء بهم يلقى تابعي عبد الحميد[٢]، وابن المقفع[٣]، والجاحظ[٤]، وبديع الزمان[٥].

ونلاحظ في استخدام ابن شهيد كلمة الخطباء، إيحاء لنا بأهميتهم فمثل هذا الاستخدام يشير إلى اعترافه بعلو مكانة الخطباء، وأنّ الخطابة تؤهل صاحبها لمناصب رفيعة في الأندلس، كالذي نلاحظه من مكانة منذر بن سعيد البلوطي وغيره، أو ربّما أراد أن يعلمنا أنّ الأدباء في تلك العصور، قد برعوا في مختلف الفنون الأدبية، فنعتهم بالخطباء لشرف الخطابة ومكانتها.

أمّا ابن بسّام[٦]، فيؤكد أنّ أهل الأندلس كانوا متقدمين في الخطابة والشّعر والكتابة منذ قدومهم إليها، إذ قال في كتابه الذخيرة: "... أنّ أهل هذه الجزيرة منذ كانوا رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة ..."[٧].

فهذا دليل على ازدهار مختلف الفنون الأدبيّة، ولا سيّما الخطابة واقترانها بالمناصب الرفيعة، وإعلاء شأن قائلها، وعليه فلا يمكننا أن نغفل مثل هذه الإشارات الدّالة بوضوح على الخطابة، ودور الخطباء في الحركة الثقافيّة في الأندلس.

---

[١] ابن شهيد، التوابع والزوابع: ص٩١، ابن بسّام، الذخيرة: ق١/م١. ص ٢٤١-١٤٨.

[٢] عبد الحميد بن يحيى الكاتب، أحد كتّاب الترسل المشهورين بالبلاغة في أواخر العصر الأمويّ قتل سنة ١٣٢هـ، ترجمته في: ابن خلكان وفيات الاعيان: ٣/٢٢٨-٢٣٢.

[٣] ابن المقفع، هو: عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور بالبلاغة، صاحب الرسائل البديعة، وهو من أهل فارس كان مجوسياً، فأسلم على يد عيسى بن علي عم السّفاح والمنصور، توفي مقتولاً في عام ١٤٢هـ. ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٢/ ١٥١-١٥٥.

[٤] الجاحظ، هو: أبو عثمان عمرو الجاحظ ولد في البصرة نحو عام ١٥٩هـ، من أشهر كتاب العربية وأوسعهم باعاً في فنونها وعلومها، توفي عام ٢٥٥هـ، ترجمته في: ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٥/٥٤-٥٩، ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٣/٤٧٠-٤٨٥.

[٥] بديع الزمان الهمذاني، هو: أحمد بن الحسين يحى أبو الفضل (٣٥٨-٣٩٨هـ)، صاحب الرسائل الرائعة والمقامات الفائقة، أحد الفضلاء الفصحاء، وله ديوان شعر، وهو رائد المقامة العربية، ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١/١٢٧، ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦/ ٤٦١-٥١٥.

[٦] ابن بسّام، هو: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، من أهل شنترين، نشأ في بيت حسب، ورحل إلى أشبونة سنة ٤٧٧هـ، ووفد على قرطبة سنة ٤٩٤هـ، أديب من الكتاب الوزراء، اشتهر بكتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، توفي سنة ٥٤٢هـ، ترجمته في: ابن سعيد، المغرب: ١/ ٤١٧، ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: ٤/١٦٦٧، بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسيّ: ص ٢٨٨.

[٧] ابن بسّام، الذخيرة:ق١/م١. ص ١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى من يطالع تاريخ المسلمين في الأندلس، أنّ العرب ظلّت سيوفهم مشرعة وبقيت حروبهم مشتعلة، وانضمّ إلى ذلك من ملكات قوية وفصاحة، وموهبة مصقولة، فنشطت الخطابة واهتزت لها المنابر، فعلى مرّ العصور كانت الحروب والثورات والنزاعات، هي التي تشعل فتيل الخطابة، فالظروف التي أحاطت بالفاتحين من حروب مع الإسبان، وبين البربر والعرب، أو خصومات بين العرب أنفسهم، أو خضوع الأندلس لحكم غير العرب في عصر من العصور، كما حدث في عصر ملوك الطوائف[١]، وحتى في أشدّ حالات ضعف الدولة – عصر بني الأحمر – لم يكن ذلك ليصرفهم عن القول وارتجاله، بشكل قاطع، وإن أثر ذلك في الخطابة، بحيث تعاني الكثير ما بين حالات الاضمحلال والازدهار، فلقد كان ارتجال القول ملازماً للعربيّ – منذ القدم – في كلّ ظروف حياته: في رحلاته وتنقله من مكان لآخر، وفي حروبه وسلمه، وفي مختلف المناسبات الاجتماعية، إذ طبع على الفصاحة والبلاغة والبيان، "فالارتجال ما كان تدفقاً وانهمالاً"[٢]، وزاد من صقل فطرته بلاغة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

ومما تجدر الإشارة إليه، أنّ ما قيل عن أسباب قلّة ما وصل إلينا من الخطب الأندلسيّة لا يعني بالضرورة أنّ الخطب في الأندلس كانت قليلة، فقد وصلت إلينا من خلال المصادر المختلفة أسماء كثير من الخطباء، وإشارات إلى وجود كثير من الخطب، والمصنفات التي وضعت فيها،

فقد ورد أنّ للقاضي عياض مجموعاً جامعاً لخطبه لم يصل إلينا، وإلى هذا المجموع الجامع يشير أبو عبد الله ولد القاضي عياض قائلاً: "خطبه – وفقكم الله – كثيرة مدونة يشتمل عليها مجلد قرئت عليه، وسمعها أكثر أصحابه"[٣].

وهناك إشارات أخرى، تدل على نبوغ عدد كبير من الخطباء في الأندلس، إذ نجد أنّ ابن الحذاء[٤]، كان قد وضع كتاب (الخطب وسير الخطباء) في سفرين، لكنّه لم يصلنا، كذلك جمع الحافظ الكلاعي[٥]، وهو من أعلام القرن السابع، خطبة في الجمع والأعياد وغير ذلك، وهي نحو ثمانين خطبة في مجموعة واحدة، لكنّها لم تصلنا أيضاً،

---

[١] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ص٦٧، القلقشنديّ، صبح الأعشى: ٥/٢٤٨-٢٥٦.

[٢] ابن الاثير، ضياء الدين، كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب:ص٤٣.

[٣] أبو عبد الله محمد بن عياض، التعريف بالقاضي عياض: ص ٨٧.

[٤] ابن الحذاء، هو: محمد بن يحيى بن أحمد التميمي، من أهل قرطبة يكنى أبا عبد الله، وهو من أشهر رجال الأندلس فقهاً وعلماً ونباهة، توفي ٤١٦هـ. ترجمته في: ابن بشكوال، الصلة: ٢/ ٤٨١-٤٨٢.

[٥] الحافظ الكلاعيّ، هو: سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي، توفي سنة ٦٣٤هـ. ترجمته في: ابن عبد الملك المراكشيّ، الذيل والتكملة: ٤/٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حيث وصل إلينا فقط عنوان الكتاب (جني الرطب في سني الخطب)، ولو بقيت هذه المصنفات لكانت خطوة لتوكيد الشخصية الأندلسية، وإمدادنا بكثير من النصوص التي بإمكانها إثبات الوجود للخطابة الأندلسية.

وتطالعنا مصادر التراث الأندلسيّ بأسماء مشاهير الخطباء، نذكر منهم على سبيل المثال: أحمد بن محمد الهمْداني[١] (ت قبل ٤٣٠هـ)، وقد قال عنه ابن عذاري، أنّه كان"مع رجوليته أديباً بليغاً يقوم بين أيدي الخلفاء في المحافل، فيحسن القول ويطيب الثناء وله أخبار معروفة"[٢] ففي هذه الإشارة دلالة على ارتجال الهمْداني في خطبه، ودلالة أخرى على فقدان الكثير من الآثار الأدبية له، ولغيره من أدباء عصره، فأخبارهم التي لم تصلنا لا بدّ أنّها تحوي الكثير من النتاج الأدبيّ.

وعن أبي محمد عبد الله الصفدي المعروف بابن علقمة[٣] (ت٥٠٩هـ)، يقول صلحب الذيل والتكملة، كان: "خطيباً بليغاً، أنشأ خطباً حساناً في أنواع مختلفة"[٤]. وهناك أيضاً ابن أبي رندقة الطرطوشي (ت٥٢٠هـ).[٥]

ومنهم أيضاً أبو عبد الله بن أبي الخصال الغافقي[٦] (ت٥٤٠هـ)، "الذي تشرّفت الخطابة والكتابة باعتزائها إليه"[٧]، "وكان متقدماً في اللغة والأدب والكتابة والخطابة والشعر[٨]"، "وأنشأ خطباً عارض بها ابن نباتة"[٩]. ومن الخطباء أيضاً، أحمد

---

[١] أحمد بن محمد الهمْداني، هو: أحمد بن محمد بن أضحى بن عبد اللطيف بن غريب بن يزيد الشعر بن عبد شمس بن غريب، من نزلاء قرية حمدان، وكان من أهل البلاغة، والبيان والأدب والشعر البارع. ترجمته في: المغرب: ١٣٧/٢، ابن الخطيب، الإحاطة: ١٥٠/١-١٥٣.

[٢] ابن الأبار، الحلّة السيراء: ٣٧٩/٢/ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٧/٢.

[٣] ابن علقمة، هو: محمد بن خلف بن إسماعيل الصدفي، من أهل بلنسية، وصاحب تاريخها المسمى "البيان الواضح في الملم الفادح". ترجمته في: ابن الأبار، التكملة: ٤١٢/١، ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٨/٤، ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: بقية سفر ٢٢٧/٥.

[٤] ابن عبد الملك المراكشيّ، الذيل والتكملة: بقية سفر ٢٢٧/٥.

[٥] سبقت ترجمته في : ص ١٨ من الدراسة.

[٦] ابن أبي الخصال، هو: محمد بن مسعود، أبو عبد الله بن أبي الخصال، ولد ٤٦٥هـ، حدّث وروى عن أبي بكر بن عطية، وأبي الحسن بن أحمد وغيرهما، أصله من فرغليط، وسكن قرطبة وغرناطة، ترجمته في: ابن حاقان، قلائد العقيان: ٥١٨/٢-٥٢٠، الضبّي، بغية الملتمس: ١٧٠/١-١٧١، السيوطي، بغية الوعاة: ٥٤/١، المكناسيّ، جذوة الاقتباس: ٢٥٧/١-٢٥٨، ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٥٣/١٩-٥٤.

[٧] ابن بشكوال، الصلة: ٥٨٨/٢، ابن الخطيب، الإحاطة: ٣٨٩/٢.

[٨] الضبي، بغية الملتمس: ١٧٠/١.

[٩] ابن الابار، التكملة: ٢٠٠/١، وابن نباتة، وهو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الحذاقيّ الفارقيّ صاحب الخطب المشهورة، كان إماماً في علوم الأدب، ورزق السعادة في خطبه التي وقع الاجماع على أنّه ما عمل مثلها، ولد في ميافارقين سنة٣٣٥هـ ودفن فيها سنة ٣٧٤هـ. ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١٥٦/٣-١٥٧، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٨٣/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزيّات[١] (ت٧٢٨هـ) الذي "كان بارعاً في الخطابة"[٢]، ولسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ)، وغيرهم.

ومما نلاحظه أيضاً، أنّ الأندلس في ثمانية قرون من الحكم العربيّ الإسلاميّ عرفت الأدباء والشعراء والخطباء الذين برعوا في الكتابة والشعر والفنون الأدبيّة الأخرى، ومن هنا دوّن الرواة لكلّ منهم ما يدل على النبوغ والتميز، فأرّخوا لبعض الخطباء، ودوّنوا من الخطب ماله علاقة بالحوادث والمواقف المهمة؛ وبالتالي أدّى هذا إلى ضياع الكثير من خطب الخطباء وأخبارهم.

ولعلّ ذلك يشير أيضاً إلى أنّ معظم خطب أهل المشرق لم تصل إلينا كاملة، وإن وصلت، فإنّ الشّك يدور حول صحة بعضها ونسبتها لقائلها، ثم لو وصلت جميع خطب العرب إلينا، فأين خطب أعظم خطباء العرب كسحبان وقس بن ساعدة؟!

وربّما كان السبب في قلّة النصوص النثرية بعامة مقارنة مع الشعر، أنّ الشعر أيسر وأسهل حفظاً من النثر، وهذا سبب قلّة ما وصل إلينا من الخطب في الأندلس، أو ربّما أنّ الاهتمام بدأ يتجه نحو الاشتغال بالعلوم والفنون المختلفة في العصور المتأخرة أكثر. ومن المؤكد أنّ جزءاً كبيراً من تراث العرب في الأندلس كان قد دُمّر على أيدي الإسبان، فضاعت معظم الكتب التي وضعت، وأرّخت للأدب والأدباء،وأحرق الكثير من معالم الحضارة الإسلامية في الأندلس في تلك الحروب، مما أدى إلى فقد الكثير من النصوص الخطابية، وإبقاء قائليها في دائرة المجهول.

---

[١] ابن الزّيّات، هو: أحمد بن الحسن بن علي الكلاعيّ، ولد سنة ٦٤٩هـ، من أهل بلش مالقة، يكنى أبا جعفر، واضح البيان، فارس المنابر غير مدافع، أخذ العلم عن القاضي أبي علي الحسين الفهري، وعند أبي الحسن فضل بن فضيلة وغيرهما، ومن تصانيفه "المقام المخزون في الكلام الموزون" ترجمته في: ابن الخطيب، الإحاطة: ٢٨٧/١-٢٩٦، ريحانة الكتاب: ٣٦١/٢، السيوطي، بغية الوعاة: ٣٠٢/١.

[٢] ابن الخطيب، الإحاطة: ٢٨٨/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- المراحل التاريخية لتطور الخطابة الأندلسية

تهيأت كل الأحوال لقيام نشاط فكري ونهضة أدبية في الأندلس، مع ما اتسمت به هذه الأحوال، ولا سيما في المراحل الأولى للوجود الإسلامي في الأندلس، إذ كانت فترة عرفت بالاضطراب والانشغال بأمور الفتح، وتثبيت الحكم الإسلامي في الأندلس.

إلا أن تلك الظروف من حروب واضطرابات وتنافسات، وبعد عن الوطن، أدت إلى ظهور قوة دافعة نحو حركة أدبية، كانت وسيلة للتعبير عما في النفس وباعثا قويا للدعوة إلى ترك التنازع والتناحر، ثم الإشارة إلى الانتصارات والإعلاء من شأن محققيها طلبا للمزيد منها، ولا غرو في ذلك "فالقدر الأكبر من التراث الأدبي نشأ وترعرع في أحضان السياسة والخلفاء والحكام"[1]، الذين كان منهم الأدباء والشعراء، فأغنوا الحركة الأدبية بآرائهم ومساهمتهم الفعلية بما قدموا من نصوص أدبية.

ومن هنا، نحاول أن نتمثل أبرز مظاهر الحركة الأدبية، ولا سيما الخطابة في الأندلس منذ العصور الأولى وحتى مراحلها الأخيرة، ومسيرة انتقالها وتطورها من طور إلى آخر.

ففي مرحلة الحكم الأموي، نجد أن الخطابة كانت ضرورة ملحة اقتضتها الاحداث التي واكبت عملية الفتح وما تلا ذلك من ضرورات لتثبيت دعائم الحكم الإسلامي في الأندلس، فإذا استعرضنا ما وصل إلينا – من خلال المصادر- من نصوص الخطب منذ عهد الولاة وحتى آخر عهد الخلافة الأموية في الأندلس فإنها مع قلتها التي لا تساعد في إظهار صورة للخطابة بشكل واضح، إلا أنها دليل للبرهان على وجود الخطابة في الأندلس.

لذا فإننا في دراستنا للخطابة في العهد الأموي في الأندلس والعصور اللاحقة نعول على ما وصل إلينا في كتب المؤرخين، دون أن ننسى أن اهتمامهم لم يكن موجها للنصوص ذاتها باعتبارها مجرد إثباتات تاريخية، تسند ما يوردون من أخبار ووقائع تاريخية ويبرهنون بها على صدقهم فيما ينقلون لنا من أحداث. وسنرى لاحقا عند استعراض أنواع الخطابة في الأندلس، مدى التطور الذي طرأ على أسلوب الخطابة في تلك العصور؛ إذ نخلص إلى أن ما وصل إلينا من الخطب في عهد الولاة وعهد الإمارة، كان ذا صلة بالأحداث السياسية من حروب وعصبية قبلية ساهمت في زيادة

---

[1] علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري: ص١١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحاجة إلى الخطابة، لتصبح وسيلة الخلفاء والحكّام لإبلاغ سياستهم للرعيـــة، ولبيـان استجابة الخطباء للحوادث والمستجدات، وإثارتهم لنفوس السامعين تجاه تلك الظروف.

وفي ذلك دلالة على بدء تطور الخطابة شيئاً فشيئاً، فمن البساطة والعفوية إلـــى مرحلة جديدة، تمثلت بالنماذج المتأخرة في عهد الإمارة حيث بدأ فنّ الخطابة الأندلسية يتأثر بأسلوب الجاحظ، باتباع المغايرة في الأسلوب والسجع الذي بدا طبعـــاً لا تكلفـــاً، وتقديم المعنى الواحد بعدة جمل وتراكيب تقود إلى الإطناب غير الممل، بل لقد كان مثل هذا الاسلوب يؤكد المعنى الذي يذهب إليه الخطيب.

ولاغرو أن تتأثر هذه الفترة بأسلوب الجاحظ، -سيأتي تفصيل ذلك في الفصـــل الرابع- فقد عرف الأندلسيون الجاحظ، واطلعوا على مصنفاته الأدبية في أواخر تلـــك الفترة، مثل رسالة التربيع والتدوير، والبيان والتبيين، وذلك عـــن طريـــق الرحـــلات العلمية[١]، أو مواسم الحج، والالتقاء بالوافدين المشارقة[٢]، الذين نقلوا معهم كثيراً مـــن أدب الجاحظ. "وقد امتدت تلمذة أحدهم على الجاحظ عشرين سنة، وهو أبو خلف ســـلام ابن يزيد"[٣].

وبدأت الخلافة الأمويّة مع بدء القرن الرابع الهجري تظهر نفسها بمظهر القـوة، وتطبع حياتها بهذا الطابع، ويأتي دور الخطابة هنا لتعكس هذه التطورات في مختلـــف جوانب الحياة، إذ أخذت تتعدد المجالات التي عالجتها الخطابة، بتعدد نواحـــي الدولـــة الإسلامية في الأندلس، وتولي عبد الرحمن الناصر للخلافة ســـنة ٣١٦هـــ، إذ كـــان التنظيم والإدارة والعلاقات مع خارج الدولة أموراً أولاها جلّ اهتمامه ورعايته، فكـــانت هذه المرحلة مرحلة النضج والعطاء؛ فارتفعت لذلك قيمة الخطابة، مع ما ساد العصـــر من استقرار سياسيّ في الداخل، وهيبة السلطان في الخارج، ولا سيّما بعد أمره النـــاس بمخاطبته بأمير المؤمنين؛ فظهر ما يسمى خطابة الوفود.

---

[١] انظر: المراكشي، المعجب: ص١١٤،١٧٣، المقري، نفح الطّيب: الأجزاء ١، ٢، في صفحات متفرقة وكثيرة .

[٢] انظر: المقّري، نفح الطّيب: الجزء الثالث، في صفحات كثيرة ومتفرقة. ويشير الدكتور علي دياب في بحث له بعنوان"انتقال العلوم العربية من الشرق إلى الغرب وتأثيرها في أوروبا" إلى الكثير من الأعلام المشهورين الذين قدموا الأندلس من المشرق. الأندلس، قرون من التقلبات والعطاءات: ١١٢/٣.

[٣] ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: ٢١١٦/٥-٢١١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"لم يطل عمر الخلافة الأمويّة في الأندلس، فكان هذا إيذانا بانقضاء العصر الذهبي للخلافة"[١] وفقده بريقه بعد أنّ تولّى عدد من الخلفاء ضعاف الشخصية الحكم في الأندلس، وبدأ الصراع يدبّ في أطرافها، فاستحالت إلى دول متعددة صغيرة يحكمها ملوك الطوائف، الذين أخذوا يتنازعون الحكم والسيادة فيما بينهم وانشغلوا بمحاربة بعضهم بعضاً.

وفي عهد المرابطين، برز اهتمام أهل الأدب الأندلسيين، بشتّى موضوعات الفنون النثرية، رغم اهتمام السلاطين بالفقهاء أكثر من الأدباء، بل ربما دفعهم ما شعروا به من قهر أمام تفوق النصارى عليهم في ظل الطوائف إلى أن يبرز عندهم "ظاهرة المفاخرة والإشادة بمآثر الأندلسيين"[٢].

فكان هذا من شأنه أن يدفع الخطابة للنمو والازدهار، ولا سيّما الخطابة الدينية، التي كثر أعلامها في العصر المرابطي، من مثل أبي عبد الله بن أبي الخصال، إذ كانت الخطابة وسيلتهم في التعبير عن النهج الديني الذي اتبعوه في دعوتهم للإصلاح.

وبهذا نرى أنّ فترة المرابطين، قد اتسمت بالانفتاح في مختلف فنون العلم، والدليل على ذلك كثرة المؤلفات في مختلف الفنون، وسنرى من خلال النماذج الخطابية التي ستعرض لها هذه الدراسة في الفصل الثالث، التطور الذي أصاب أساليب الخطابة في تلك الفترة من سجع غلب عليها، وكثرة الاقتباسات من القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، إلا أنّ ذلك كلّه لم يصل بالخطابة إلى درجة التكلف، أو الصعوبة في المعاني.

أما في عهد الدولة الموحدية، فإنّ الحركة الدينية التي أسّسها وقادها محمد بن تومرت[٣]، سارت إلى جانب الحركة السياسية، فكانت الخطابة وسيلتهم وسلاحهم لتحقيق مبادئهم وأفكارهم، وتوجيه الناس إلى ما يريدون وكسب تأييدهم؛ لذا فالمتتبع للخطب

---

[١] علي محمد راضي، الأندلس .. والناصر: ص٨٣.

[٢] مصطفى الزباخ، فنون النثر الأدبي الأندلسي في ظل المرابطين: ص٢-٤.

[٣] يورد ابن القطان في كتابه بعضاً من خطب ابن تومرت، الدالة على فصاحته وبلاغته، ومنها: "الحمد لله الفعال لما يريد، القاضي بما يشاء، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدى، الذي يملأ الأرض قسطاً عادلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، يبعثه الله إذا نسخ الحق الباطل، وأزيل العدل بالجور، مكانه المغرب الأقصى، وزمانه آخر الزمان، ...". نظم الجمان: ص ٧٥-٧٦. وله أيضاً خطبة ألقاها في اتباعه قبيل وفاته زودهم فيها بوصايا هي جماع دعوته في العقيدة والحياة الاجتماعية، أوردها عبد الواحد المراكشي، ومنها: "... فانقرضت هذه العصابة نضر الله وجوهها، وشكر لها سعيها، وجزاها خيراً عن أمة نبيها، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران والعالم متجاهلاً مداهناً، فلم ينتفع العلماء بعلمهم بل قصدوا به الملوك، ...". المعجب: ص ١٩٤-١٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموحدية في بداية العهد الموحدي يظهر له ارتباط هذه النصوص بالإسلام، "إذ قامت دعوتهم على التوحيد والتحلّي بالأخلاق الفاضلة ومحاربة الظلم"[١]، فجاء أسلوبها معتمداً على الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، بغية الإقناع وتقديم البراهين على صدق ما يقولون، واستندت الخطابة، ولا سيّما الدينية إلى الألفاظ المناسبة للمقام ولدعم سلطان الموحدين، وبيان أهمية الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.

وتميزت كذلك الخطابة في العصر الموحدي بأنها مترابطة الفكرة، وجاءت مظهراً من مظاهر الوعظ، لإصلاح شؤون الأمة بأسلوب مطبوع بالروح الإسلامية، وتراكيب متفقة مع مضامين حياتهم السياسية والاجتماعية والأدبية، "وبدا أثر المدنية على الأسلوب الخطابي، فارتقى بلين الحضارة، وترف الحياة ونعومتها، واشتق من زخارف التعبير ومحسناته من غير تكلف في كثير من الأحيان، واعتمد الخطباء على ملكاتهم وذخائر محفوظاتهم..."[٢].

غير أنّ هذا لم يستمر طويلا إذ بدأ الخطباء في أواخر عهد الموحدين يميلون إلى السجع المتكلف، واستخدام المحسنات البديعية بكثرة، والإطالة المفرطة، كما هو الحال في خطب القاضي عياض الأخيرة، وقد أشار إلى ذلك ولده أبو عبد الله محمد في كتابه التعريف[٣].

يتضح لنا أنّ الخطابة في مرحلة الحكم الموحدي قد واكبت ظروف الحياة، مثلما كانت حال الحركة الأدبية بشكل عام حيث انتعشت خلال القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع، مع سوء الأوضاع السياسية وسقوط بعض المدن الأندلسية في يد النصارى، والهزيمة التي أطاحت بالمسلمين في معركة العقاب. إذ نجد أنّ الخطباء أخذوا يدافعون عن آرائهم، ويعرضونها بكل حماس، رغم ما ابتليت به الدولة من ضعف شديد.

وبقي الأمر كذلك في عهد بني الأحمر، حيث عاشت المدن الأندلسية في تلك الفترة الكثير من الحروب والانتكاسات والهزائم المتلاحقة، فلم تسعفنا المصادر التي بين أيدينا بنصوص خطابية كثيرة، غير أنّ خطبة لسان الدين بن الخطيب في الحث على

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين: ص ٩٤، بروفنسال، مجموع رسائل موحدية: ص ١٦٥-١٦٦. الرسالة الثالثة والعشرون.

[٢] رضا عبد الغني الكساسبة، أساليب النثر في عصر الموحدين وارتباطها بواقعهم الحضاري: ص ١٠٨.

[٣] سيرد تفصيل ذلك في الفصل الرابع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجهاد، التي يقول فيها: "أيها الناس – رحمكم الله تعالى – إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو – قصمه الله تعالى – ساحتهم، ورام الكفر – خذله الله تعالى – استباحتهم، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم، ومد الصليب ذراعيه عليهم ..."[1] تمثل نموذجاً من خطابة عهد بني الأحمر.

ومن هذا نرى أنّ الخطابة تأثرت بهذه الأحداث، إذ أصبح يغلب عليها طابع الاستغاثة والحثّ على الجهاد، واستنهاض الهمم للدفاع عن حضارة العرب ومجدهم الذي بدأت شمسه بالغروب.

أمّا الأسلوب الذي اتسمت به الخطابة في عصر بني الأحمر، فهو الإسراف في السجع المتكلف والزخارف اللفظيّة والإطناب، شأنهم في ذلك شأن كتّاب الأندلس عامة في هذا العصر، إذ مالوا إلى الإسراف في المحسنات في آخر عهد الإسلام في الأندلس، كما هو الحال في معظم كتابات لسان الدين بن الخطيب.

وخلاصة ما يمكن أن نخرج به من هذا الفصل، هو أنّ الخطابة في الأندلس – من خلال ما بين أيدينا من نصوص تمثلها – لم تكن بمعزل عن الأحداث، فمرّت بمراحل الضعف وسادتها حالة من الصمت والانتظار، لكنّها أيضاً نمت وازدهرت في عصور النماء والازدهار، والخطباء لم يكونوا بعيدين عن ظروف الحياة في المجتمع الذين يعيشون فيه؛ لذا فقد قاموا بدور كبير في مسيرة الأحداث وتصويرها، وإبراز الأخطار وتجسيمها في كثير من الصور المرعبة والمؤثرة، كما سنلاحظ في خطب القاضي عياض، ولسان الدين بن الخطيب.

---

[1] المقري، نفح الطّيب: ٨/ ٣٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

أشهر خطباء الأندلس

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أشهر خطباء الأندلس

حظيت بلاد الأندلس بعدد كبير من الخطباء، وعُدّ بعضهم إحدى معجزات عصره، إمّا لبلاغته وفصاحته وبديهته وقدرته على الارتجال، وإمّا لكثرة أعماله الأدبية بجانب بيانه وقدرته وتصرفه في وجوه الكلام وملكة التعبير، وشجاعته في القول التي لا تتجاوز حدود الشرع. فكانوا يرتفعون إلى مرتبة الوزراء والفقهاء ذوي النفوذ الكبير في المجتمع، ومن هؤلاء الخطيب القاضي منذر بن سعيد البلّوطي، والقاضي عياض، ولسان الدين بن الخطيب، وهم من أعلام النثر الأندلسيّ الذين حظوا بغير قليل من الشهرة في عصرهم والعصور التي تلت، وثبتت المعلومات حولهم في كتب المصادر. وسنتحدث عنهم معتمدين أسبقية سنوات الوفاة.

١ - الخطيب القاضي منذر بن سعيد البلوطي[١]:

إنّ تاريخ منذر بن سعيد البلوطي، تاريخ حافل بالمآثر في كافة المجالات، وينبع هذا من كونه أديباً وفقيهاً، فصيح اللسان، يعالج أمور الأدب جنباً إلى جنب لأمور الشوع والفقه والقضاء "حتى كان أبرز الفقهاء، الذين قالوا الشعر وتأثروا به فضلاً عن الخطب، وغيرها"[٢].

والبلّوطيّ هو أبو الحكم، منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن اليزيديّ الكُزْنيّ البلّوطيّ. نسبته إلى "فحص بلوط" قرب قرطبة، ويقال له الكُزنيّ نسبة إلى فخذ من البربر يسمّى "كزنة".

يشار في معظم المصادر إلى أنّ ولادته كانت سنة ثلاث وسبعين ومائتين، وأنّ وفاته كانت سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

---

(١) ترجمته في: الخشنيّ، قضاة قرطبة: ص ١٢٠ ، ابن الفرضيّ، تاريخ علماء الأندلس: ٨٤٥/٢-٨٤٧ ، الحميديّ، جذوة المقتبس: ٥٠٠:٢-٥٠١ ، ابن خاقان، مطمح الأنفس: ص٢٣٧-٢٥٩ ، الضّبّيّ، بغية الملتمس: ٦٢٠/٢-٦٢١ ، ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: ٢٧١٣/٦-٢٧٢٣ ، ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤١٦/٥-٤١٧ النباهيّ، تاريخ قضاة الأندلس: ص ٦٩-٧٣ ، الذهبيّ، سير أعلام النبلاء: ١٧٣/١٦ – ١٧٨ ، الفيروز آبادي، البلغة: ص ٢٢٦ ، السيوطيّ، بغية الوعاة: ٣٠١/٢ ، المقّريّ، أزهار الرياض: ٢٧٢/٢-٢٨٠ ، ونفح الطّيب: ٣٧٢/١ – ٣٧٥ .

(٢) حازم عبدالله خضر، القاضي الأديب منذر بن سعيد البلّوطيّ، كلية الآداب، العدد الرابع، الموصل، ١٩٧٢ : ص ١٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اختلفت رواية السيوطي في كتابه "بغية الوعاة" اختلافاً كبيراً عن بقية الروايـلت، إذ يقول "ومات يوم الخميس لأربع خلون من ربيع الأول سنة تسع وأربعين وثلاثمائة"[١]. وانفـــراد هذه الرواية يشجّع على رفضها، أو التشكيك فيها على الأقل. وانفرد كذلك ابن الأثير، بأن جعـــل وفاة البلوطي من أحداث سنة ست وستين وثلاثمائة، ومثل هذا الانفراد يجعلنا لا نحفـــل كثـــيراً بهذه الروايات.

ولعلّ الأهم من كلّ ذلك، أن نعرف أنّ المرحلة التي عاصرها منذر بـــن ســـعيد، هـــي مرحلة ازدهار البلاد وتقدمها في عهد عبد الرحمن الناصر.

وقد جاء في ترجمة البلوطي أنّ أبا الحكم كان "آية حركة في سكون وبركة لم تكن معـدّة ولا تكون، وآية سفاهة في تحلّم، وجهامة ورع في طيّ تبسّم، إذا جدّ وجد، وإذا هزل نزل، وفـــي كلتا الحالتين لم ينزل للورع عن مرقب، ولا اكتسب إثماً ولا احتقـــب، ولـــي قضـــاء الجماعـــة بقرطبة أيام عبد الرحمن ، ناهيك من عدل أظهر، ومن فضل أشهر، ومن جور قبض، ومن حـق رفع ومن باطل خفض، وكان مهيباً صليباً صارماً غير جبان ولا عاجز، ولا مراقب لأحد مـــن خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم، واستمر في القضاء إلى أن مات الناصر لدين الله، ثم ولـــي ابنه الحكم فأقرّه، وفي خلافته توفي، بعد أن استعفى مراراً فما أعفي، لم تحفظ عليه مدة ولايتـــه قضيّة جور، ولا عُدّت عليه في حكومته زلّة"[٢].

ويظهر من هذا أنّ منذر بن سعيد كان في **خطبه** لا يخرج عن الإسلام، وما جاء به مـــن عقيدة ونظام حياة، كما كان جريئاً حازماً في مواقفه، منتصراً فيها للحق، لا يخشى لومة لائـــم، ولا يخيفه تهديد كلّ ذي سلطان، متثقفاً وفقيهاً وأديباً يحرص على طلب العلم، إذ "كان غزير العلم كثير الأدب، متكلماً بالحق، متبيناً بالصدق، وله كتب مؤلّفة في السنّة والقرآن والـــورع، والـــرّد على أهل الأهواء والبدع، وكان خطيباً بليغاً، وشاعراً محسناً"[٣] ، "وله في علوم القـــرآن كتـــب مفيدة منها كتاب الأحكام وكتاب الناسخ والمنسوخ"[٤] وكان "يلهج بأخبار الصالحين"[٥].

---

(١) السيوطي، بغية الوعاة: ٢/٣٠١ .

(٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس: ص ٢٣٧-٢٣٨ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٨٣ .

(٤) الفيروز آبادي، البلغة: ص ٢٢٦ .

(٥) الذهبي ، سير أعلام النبلاء: ١٦/١٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن لم يصلنا شيء من تلك الكتب، إلّا بعض النماذج من خطبه أو مقطعات من الأبيات الشعرية، التي ساهمت في إبراز شخصية البلّوطيّ، الشخصيّة الفذّة في العلم والأدب، وتحاملها ضد الباطل، ودفاعها عن الحق دون خوف من سلطان إلّا سلطان الله -عزّ وجل- .

وقد عُرف اسمه، وذاعت شهرته، وظهرت مقدرته الخطابية منذ ذلك اليوم المشهود الذي وقفه بين يديّ عبدالرحمن الناصر، حين وفدت عليه الوفود من كلّ حدب وصوب ليهنئوه بالخلافة.

وترجم له ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) قائلاً: "البلّوطيّ الأندلسيّ، كان نحوياً فاضلاً وخطيباً مصقعاً[*]، وشاعراً بليغاً، ولد سنة خمس وستين ومائتين[1]، ... اتّصل بعبدالرحمن الناصر فحظي عنده ثم عند ابنه الحكم من بعده، وكان سبب اتصاله بالناصر ما ظهر من بلاغته يوم الاحتفال بدخول رسول قسطنطين بن ليون صاحب قسطنطينية على الناصر موفوداً إليه مع وفود سائر ملوك الإفرنجة، وذلك أنّ الناصر جلس للقاء الوفود بقصر قرطبة فلما تكامل المجلس ودخل عليه الوفود ورحّب بهم، أحبّ أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه للتنويه بفخامة الخليفة، وما تهيأ من توطيد الخلافة في أيّامه، وتقدم إلى ولي عهده الحكم بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، فقدم الحكم أبا عليّ البغدادي -القالي- وكان إذ ذاك ضيف الناصر فقام أبو علي وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلّى الله عليه وسلم فارتج عليه وانقطع وبهر، فلما رأى ذلك منذر وكان حاضراً قام من ذاته ووصل افتتاح أبي علي بكلام بهر العقول، فخرج الناس يتحدثون ببلاغته وحسن بيانه، وثبات جنانه، وكان الناصر أشدّهم تعجباً وإعجاباً به، فسأل عنه ابنه الحكم ولم يكن يعرفه، فقال له: هذا هو منذر بن سعيد البلّوطيّ. فقال: والله لقد أحسن ما شاء، ثمّ قرّبه وولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة"[2].

ونستطيع من خلال هذا النص أن نلاحظ أبرز ملامح الخطيب القاضي البلوطي، وبعض مقوّمات شخصيته؛ علمه وفضله وثقافته، ودفاعه عن الحق، وقدرته عل الاقناع العقلي مستمداً أدلته من القرآن والسنة. وقد وصفه الزبيديّ في "طبقات النحويين واللغويين" فقال: "كان أخطب أهل زمانه غير مدافع، مع ثبات جنان، وجهارة صوت، وحسن ترسّل، وكان ذا منظر نبيل

---

[*] الصقع: رفع الصوت ومتابعته، والخطيب المصقع: البليغ الماهر في خطبته (لسان العرب / مادة صقع): ٥٧/٧ .

[1] هذه الرواية جاءت مخالفة لما ورد في معظم المصادر الأندلسية.

[2] ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١٧٤/١٩-١٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخلق حميد، وتواضع لأهل الطلب وانحطاط إليهم، وإقبال عليهم، وكانت فيه دعابة حسنة، وله خطب عجيبة ورسائل بيّنة، وأشعار مطبوعة"[١].

وذكره ابن الفرضي: ".. كان خطيباً بليغاً شاعراً"[٢] وعرّف به الحميري بأنه "كان متفنناً في ضروب العلوم، وكانت له رحلة لقي فيها جماعة من العلماء في الفقه واللغة، وكان كثير المناقب، والخصال الحميدة، مع ثبات الجنان، وجهارة الصوت.."[٣].

ولكن – كما أشرنا سابقاً – رغم الأخبار التي أوردتها المصادر عن آثاره الأدبية الكثيرة وخطبه ورسائله، فإنّ ما بين أيدينا منها قليل، غير أنّه يمكن أن يعطي صورة عن أدبه ومكانته الرفيعة وفضله في الأدب الأندلسي.

وقد كان منذر بن سعيد البلوطي، مثال القاضي الناصح، والحاكم العادل، الذي لا يخف في الله لومة لائم، فكان جريئاً في "معارضته للناصر حين كلف في البناء والعمران، وانهمك في ذلك حتى عطّل شهود الجمعة بالمسجد الجامع، الذي اتخذه ثلاث جمع متواليات"[٤]، وقد أشار إلى تلك المعارضة أيضاً حسن ابراهيم حسن[٥].

وإن إنعام النظر في المواقف التي كانت بين البلوطي والناصر، ليقف بنا على خلق رفيع للقاضي البلوطي، فلم يجامل أو يضطر إلى النفاق، بل كان يحركه إحساس المؤمن الذي جعل الخليفة الناصر يقف موقف الرجولة الحقيقية، والقيادة الفذّة، وذلك حين تنبّه لقول البلوطي، واقتنع به وأحسّ إحساس المؤمن الحق حين تُليت عليه الآية (ولولا أن يكون الناس أمّةً واحدةً لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون)[٦] إذ نجده يثني على البلوطي، وكأنّ العاطفة الدينية والشعور الإسلامي استيقظا في نفسه بفضل جرأة البلوطي. فلم يقبل بما أشار عليه به الحكم من عزل البلوطي عن الصلاة، واستبداله بغيره، إذ قال: "أمثل منذر ابن سعيد في فضله وعمله وخيره لا أمّ لك!يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الحق؟ هذا ممّا

---

[١] الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: ص ٢٩٥ .

[٢] ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس: ص ٢٤٥ .

[٣] الحميري، صفة جزيرة الأندلس: ص ١٤٠ .

[٤] تفصيل ذلك في الفصل الثالث : ص ٩٤

[٥] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، والديني والثقافي والاجتماعي: ٤٢١/٣ .

[٦] سورة الزخرف / ٣٣ – ٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يكون، وإني لأستحي من الله أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر ورعه وصدقه، ... بل يصلّي بالناس حياته وحياتنا، إن شاء الله..."[١].

وكان منذر بن سعيد البلوطي، كما أشاد به المحدثون – في **الخطابة** "الخطيب الذي سما بهذا الفن[٢]"، فهو لم يترك مجالاً من مجالات الحياة والمجتمع إلّا قال فيه خطبة: في السياسة والمجتمع والشؤون الدينية. ويذكر عمر فرّوخ أنّ للبلوطيّ نصيباً وافراً في الشعر، إذ قال: "وكان أديباً شاعراً مترسلاً، له أشعار مطبوعة".. وشعره القليل الباقي في الزهد والشكوى من الدهر ومن الناس حيناً، وفي الفخر بالنفس حيناً آخر، وشعره صحيح متين"[٣].

ومن الإشارات التي أوردتها المصادر، وتؤكد فصاحة البلّوطيّ وبلاغته وسعة اطلاعه، ودرجة حفظه، وممارسته للشعر ونظمه له، حكايته مع أبي جعفر أحمد بن النّحاس[٤]؛ فقد حضر مجلسه في الإملاء، فأملى أبو جعفر في جملة ما أملى قول الشاعر:

خليليَّ هَل بالشّام عَيْنٌ حَزينَةٌ ... تُبكّي على نَجْدٍ لَعَلّي أُعينها

قد أسلَمَها الباكونَ إلّا حَمَامَةً ... مُطَوقةً باتت وباتَ قرينُها

تُجاوبُها أُخْرَى على خَيْزَرانةٍ ... يَكادُ يُدّنيها من الأرض لِينُها

فقال له منذر بن سعيد: "أيّها الشيخ، أعزّك الله، باتا يصنعان ماذا؟ فقال أبو جعفر: فكيف تقول أنت؟ فقال له منذر: باتت وبان قرينها، واستبان أبو جعفر ما قاله، فقال له: ارتفع، ولم يزل يرفعه حتّى أدناه منه"[٥].

ولعلّ الأبيات التي – ذكرت سابقاً في ختام خطبته في استقبال الوفود– أصدق تعبيراً عن موهبة منذر بن سعيد البلوطيّ وشاعريته. وتقدّم لنا إشارة إلى أنّ الخطباء كانوا يمارسون المزج بين النثر والشعر وبأساليب متنوعة وأغراض عديدة.

ونعود مرة أخرى إلى ما عرف من صلابة القاضي البلّوطيّ في أحكامه، وقوة الحقّ في قلبه، إذ إنّ مواقف منذر بن سعيد لا تتمثل فقط بوعظ الناصر وتذكيره ومحاولة

---

(١) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس : ص ٧٠-٧١ .

(٢) حنّا الفاخوري، تاريخ الأدب العربيّ: ص ٨٢٠ .

(٣) عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربيّ: ٤/٢٥٨ .

(٤) ابن النّحاس، هو: أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المرادي، أبو جعفر النّحوي المصريّ، من أهل الفضل الشائع، والعلم الذائع، رحل إلى بغداد وأخذ عن المبرد، والزجاج ونفطويه، وغيرهم، صنّف كتباً كثيرة منها: "إعراب القرآن" و "الكافي في العربية" ، توفي سنة ٣٣٨ هـ. ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/٩٩-١٠٠ ، اليافعيّ، مرآة الجنان: ٢/٣١١ .

(٥) الضّبّيّ، بغية الملتمس: ٢/٦٢٠-٦٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ردّه إلى الحق، بل تتعداه إلى المواقف القضائية التي تُعيد الحق لأفراد الرعيّة. فقد جاء في "مطمح الأنفس" أنه كان "من ذوي الصلابة في أحكامه والمهابة في أقضيته وقوّة القلب في القيام بالحق في جميع ما يجري على يديه، لا يهاب في ذلك الأمير الأعظم فمن دونه؛ ومن مشهور ما جرى له في ذلك قصته المشهورة في أيتام أخي نجدة، حدّث بها جماعة من أهل العلم والرواية، وهي أنّ الخليفة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد احتاج إلى شراء دار بقرطبة لحظيّة من نسائه تُكْرَمُ عليه فوقع استحسانه على دار كانت لأولاد زكريا أخي نجدة، وكانت بقرب النشارين في الرّبض الشرقيّ منفصلة عن دوره، يتصل بها حمّام العامّة، له غُلّة واسعة وكان أولاد زكريا أخي نجدة أيتاماً في حجر القاضي، فأرسل الخليفة له من قوّمها بعدد ما طابت به نفسه، وأرسل أناساً أمرهم بمداخلة وصيّ الأيتام في بيعها عليهم، فذكر أنّه لا يجوز إلا بأمر القاضي ، إذ لم يَجُزْ بيع الأصل إلّا عن رأيه ومشورته، فأرسل الخليفة إلى القاضي منذر في بيع هذه الدار، فقال لرسوله: البيع على الأيتام لا يصحّ إلّا لوجوه، منها الحاجة، ومنها الوهي الشديد، ومنها الغبطة، فأمّا الحاجة، فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع، وأمّا الوهي فليس فيها، وأمّا الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيّهم بالبيع وإلا فلا. فنُقل جوابه هذا إلى الخليفة، فأظهر الزهد في شراء الدار طمعاً أن يتوخّى رغبته فيها، وخاف القاضي أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأولاد سورتها فأمر وصيّ الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها، ففعل ذلك وباع الأنقاض، وكانت له قيمة أكثر ممّا قوّمت به للسلطان، فاتصل الخبر به، فعزّ عليه خرابها وأمر بتوقيف الوصيّ على ما أحدثه فيها، فأحال الوصي على القاضي أنّه أمره بذلك، فأرسل عند ذلك للقاضي منذر بن سعيد، وقال له: أنت أمرت بنقض دار أخي نجدة؟ فقال له: نعم، قال له: وما دعاك إلى ذلك؟ قال: أخذت فيها بقول الله تبارك وتعالى: (أمّا السَّفِينَة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَكَانَ وراءهم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً)[1]، مقوّموك لم يقدروها إلّا بكذا وبذلك تعلّق وَهْمك، فقد نضّ في أنقاضها أكثر من ذلك، وبقيت القاعة والحمّام فضلاً، ونظر الله تعالى للأيتام، فصبر الخليفة عبد الرحمن على ما أتى من ذلك، فقال: نحن أوّل مَنْ انقاد إلى الحقّ. فجزاك الله تعالى عنّا وعن أمانتك خيراً"[2].

---

[1] الكهف / ٧٩ .

[2] ابن خاقان، مطمح الأنفس: ص٢٥٢- ٢٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من هذه المواقف يظهر بجلاء، أنّ القاضي منذر بن سعيد البلّوطيّ لم يكن ليحاول الظهور والارتقاء في سلّم المراتب والشهرة من خلال علاقته بالناصر، كما قال الدكتور حسين مؤنس "فقد أتقن منذر فنّ شيخ البلاط، كما لم يتقنه شيخ قبله في الأندلس فكان يعرف كيف يفيد من كل مناسبة لكي يزداد عند الخليفة رفعة وعلى الشيوخ سلطاناً..[١]".

وقد علّق حازم عبد الله خضر حول ذلك فقال: "إنّ هذا لا يتفق مع الكثير من الحوادث الناطقة بسلامة موقف القاضي وجرأته في الحقّ مجرداً عن كلّ ميل أو انحراف أو تزلف. وإذا كان الدكتور حسين مؤنس يرى في حادثة الاحتفال وإلقاء منذر الخطبة فيها ما يبرر وجهة نظره، فإنّ في الحوادث الأخرى أقوى الحجج التي تدفع هذا الظن وتلقي الضوء على حقيقة الصلة بين منذر بن سعيد وعبد الرحمن الناصر أو ابنه الحكم من بعده"[٢]. ثم لو كان هذا الأمر صحيحاً، لما استعفى القاضي البلوطي من القضاء غير مرة، ورفض طلبه.

وصفوة القول، إنّ القاضي البلوطي قد حظي بمكانة مهمة في الأدب، وشغل مكانة هامة بين الأدباء والعلماء، وامتازت آثاره الشعريّة والنثريّة بالمستوى الفنيّ الرفيع، وظهر دوره العظيم في رفع مستوى **الخطابة**، حتى أنه لا تذكر الخطابة في الأندلس إلا ويذكر معها منذر بن سعيد البلوطي. فقد تعرف على نفسية السامعين فسهل عليه ذلك أن يعرض عليهم ما عنده من تجربة أو عقيدة، وبأساليب كانت نقطة الانطلاق في تجديد الخطابة في الأندلس منذ القرن الرابع الهجري، فمن المزج بين الشعر والنثر إلى الاقتباسات من القرآن الكريم. والنفس الخطابيّ في سرد أفكاره ومعانيه، وكان "يميل إلى مذهب داود[٣] الظاهري، ويحتج له، وأخذ عن ابن ولّاد[٤] والنّحاس"[٥]، "وروى عنه أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي[٦]، وكان مختصاً به[٧]".

---

(١) حسين مؤنس، شيوخ العصر في ا لأندلس: ص ٧١ .

(٢) حازم عبد الله خضر، القاضي الأديب منذر بن سعيد، كلية الآداب، العدد الرابع، الموصل: ص ١٨٨ .

(٣) داود الظاهري، هو: أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني، كان زاهدا كثير الورع، أخذ العلم عن إسحاق بن راهويه وغيره. ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/٢٥٥ – ٢٥٧ .

(٤) ابن ولّاد، هو: أبو الحسين محمد بن ولاد النحويّ، توفي عام ٢٩٨هـ. ترجمته في: ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: ١٩/١٠٥-١٠٦ والسيوطي، بغية الوعاة: ١/٢٥٩.

(٥) الفيروز آبادي، البلغة: ص ٢٢٦ .

(٦) يكنى: أبا الفضل، قدم قرطبة صغيراً وكان شيخاً زاهداً، توفي عام ٣٩٥هـ. ترجمته في: ابن بشوال، الصلة: ١/٨٦ .

(٧) الضّبّي، بغية الملتمس: ٢/٦٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومهما يكن من أمر، فإنّ القاضي البلّوطيّ صورة لالتحام علـــوم العربيـــة وفنونها بعلوم القرآن الكريم ومعالجتها لمختلف قضايا الفرد والمجتمـــع، وجـاءت الخطابة لتبيّن مع ذلك تواضع القاضي البلّوطيّ، فمن خطبة له ، قال: "حتّى متـــى؟ وإلى متى؟ فكم الذي أعظ ولا أتّعظ، وأزجـــر ولا أزدجـر، أدلّ الطريـق علـى المستدلين، وأبقى مقيماً مع الحائرين! كلا إنّ هذا لهو الضلال المبين! "إِنْ هِـيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِيَ مَنْ تَشَاءُ"[1] اللّهمّ! فرّغني لما خلقتنـــي لـــه! ولا تشغلني بما تكفّلت لي به! ولا تحرمني وأنا أسألك! ولا تعذّبني وأنا أســـتغفرك! يـــا أرحم الراحمين"[2].

وبعد، فإنّ شخصية القاضي منذر بن ســـعيد البلّوطـــيّ تســتحق الدراســـة والتعريف والتتبع لسيرة حياته، والآثار الأدبيّة الشعريّة والنثريّة، ولا سيّما خطبـــه، ولعلّ الجهود القادمة تكشف عن الكثير من تلك الآثار.

---

[1] الأعراف / ١٥٥ .

[2] النباهيّ، تاريخ قضاة الأندلس: ص ٦٩ . المقّريّ، أزهار الرياض: ٢/٢٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ - القاضي عياض[١]:

للقاضي عياض دور كبير في ميدان القول والبيان، وجدارة واستعداد، مما جعله علما من أعلام البلاغة والخطابة، ولعل ما وجدنا له في التراث الأدبي الأندلسي من فنون القول، وإخضاع كلامه لقيود تدل دلالة واضحة على تميزه وتفرده، وإمساكه بزمام حرفته الفنية، ما يدل على أنه من ذوي البيان، الذين يشار إليهم بالبنان.

يقول صاحب الصلة في ترجمته: "عياض بن موسى بن عياض اليحصبي من أهل سبتة، يكنى: أبا الفضل، قدم الأندلس طالبا للعلم، فأخذ عن القاضي أبي عبد الله محمدبن علي بن حمدين[٢]، وأبي الحسن سراج بن عبد الملك بن سراج[٣]، وعن شيخنا أبي محمد ابن عتاب[٤] وغيرهم. وأجاز له أبو علي الغساني[٥] ما رواه، وأخذ بالمشرق عن القاضي أبي علي حسين بن محمد الصدفي[٦] كثيرا وعن غيره. وعني بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم، وجمع من الحديث كثيرا وله عناية كثيرة به، واهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم، واستقضي ببلده مدة طويلة ، حمدت سيرته فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة فلم يطل أمده بها وقدم علينا قرطبة في ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، فأخذنا عنه بعض ما عنده، ... ثم كتب إلي القاضي أبو الفضل بخطه يذكر أنه ولد في منتصف شعبان من سنة ست وسبعين وأربع مئة.

---

[١] ترجمته في : ابن خاقان: قلائد العقيان: ٦٨٣/٣-٦٨٤، القاضي عياض، ترتيب المدارك : ١/مقدمة ، المحقق، ابن بشكوال، الصلة: ٤٢٩/٢-٤٣١ ، الضبي، بغية الملتمس : ٥٧٢/٢ ، ابن خلكان، وفيات الأعيان : ٤٨٥/٣ .

[٢] أبو عبدالله محمد بن علي بن حمدين،أجل رجال الأندلس وزعيمها في وقته، ولي قضاء الجماعة في الأندلس، توفي عام ٥٠٨هـ. ترجمته في: القاضي عياض، الغنية: ص ٤٦ ، ابن بشكوال، الصلة: ٥٣٩/٢ .

[٣] أبو الحسين سراج بن ابي مروان بن عبد الملك بن سراج القرطبي، أحد أعيان العلماء والأدباء، ولد سنة ٤٣٩هـ، كان من أكمل أهل عصره مروءة وصيانة، وأوسعهم مالا وجاها وأكثرهم مهابة، توفي ٥٠٨ هـ. ترجمته في: ابن بسام، الذخيرة: ق١ / م٢، ص٨٢١ ، القاضي عياض، ترتيب المدارك: ٨١٥/٤ ، والغنية: ص ٢٠١ ، ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١٨١/١١ ، ابن الأبار، المعجم: ٣٠٥-٣٠٦ ، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب: ١١٦/١ ، ابن دحية، المطرب: ص ١٢٣ .

[٤] أبو محمد بن عتاب، هو: أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن عتاب بن محسن الجذامي، قرأ القرآن بالسبع، وكان قائما على الفتوى، فاضلا صبورا على الجلوس للسماع، توفي ٥٢٠ هـ. ترجمته في: القاضي عياض، الغنية: ص ١٦٢ ، الضبي، بغية الملتمس: ٤٦٤/٢ ، ابن بشكوال، الصلة: ٣٣٢/١ .

[٥] أبو علي الغساني، هو: حسين بن محمد بن أحمد الغساني أبو علي ويعرف بالجياني، كان له بصر باللغة والإعراب ومعرفة بالغريب والشعر والأنساب، توفي عام ٤٩٨ هـ . ترجمته في: القاضي عياض، الغنية: ص ١٣٨ ، ابن بشكوال، الصلة: ١٤١/١ ، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١٨٠/٢ ، الحميري، الروض المعطار: ص ١٨٤ .

[٦] أبو علي حسين بن محمد بن فيره بن حيون الصدفي المعروف بابن سكرة، أصله من سرقسطة كان فاضلا، دينا عالما بالحديث، توفي، ٥١٤ هـ. ترجمته في: القاضي عياض، الغنية: ص ١٢٩ ، ابن بشكوال، الصلة: ١٤٣/١ ، ابن الأبار، مقدمة المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، المقري، نفح الطيب ٩٠/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتوفي – رحمه الله – بمراكش مغرّباً عن وطنه وسط سنة أربع وأربعين وخمسمائة"[١].

وهو في هذا كله يبدو علماً راسخاً بين شيوخ العلم والأدب، وقد حدّث عنه خلق من العلماء منهم الإمام أبو جعفر بن القصير الغرناطيّ[٢]، والحافظ خلف بن بشكوال[٣]، وأبو محمد بن عبيد الله الحجريّ[٤]، وولده القاضي محمد بن عياض[٥] قاضي دانية[٦].

---

[١] ابن بشكوال، الصلة: ٤٢٩/٢ – ٤٣٠ .

[٢] أبو جعفر بن ا لقصير الغرناطيّ: عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد بن محمد الأزديّ من أهل غرناطة من بيت شورى وجلالة روى عن أبيه القاضي أبي الحسن أحمد وأبي الفضل عياض رحل إلى فاس وإفريقية وركب البحر حاجاً فتوفي ٥٧٦ هـ . ترجمته في المقري: أزهار الرياض: ١٥/٣ .

[٣] ابن بشكوال هو: خلف بن عبد الملك بن مسعود أبو القاسم الأنصاريّ الأندلس، مؤرخ نحّالة، محدّث حافظ، ولد في قرطبة سنة ٤٩٤ هـ، كان كثير التواضع، ولي قضاء بعض جهات إشبيلية، توفي ٥٧٨ هـ . ترجمته في: ابن خلكان ، وفيات الأعيان: ١٧٢/١ ، الحنبلي، شذرات الذهب: ٢٦١/٤-٢٦٢ .

[٤] أبو محمد بن عبيد الله الحجري، هو: أبو محمد بن عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عبيد الله ا لحجري، محدث، حافظ ولد سنة ٥٠٥ هـ ، وتوفي سنة ٥٩١ هـ . ترجمته في: ابن فنفذ، الوفيات: ص ٢٩٧ ، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٣٠٧/٤ .

[٥] أبو عبدالله محمد بن القاضي عياض اليحصبيّ، من أهل سبتة وأصله من بسطة، سمع من أبيه القاضي أبي الفضل وابن العربي وأجاز له وولي قضاء دانية، وكان حميد ا لسيرة وله كتاب التعريف بالقاضي عياض، توفي ٥٧٥ هـ. ترجمته في ابن الأبار، الصلة: ١٥٩/٢ ، ابن الخطيب، الإحاطة: ٢٢٩/٢-٢٣٠ .

[٦] دانية: من مدن شرق الأندلس، كانت السفن تبنى فيها، وبعاد إصلاحها أيضاً. الحميري، الروض المعطار: ٢٣٢ ، البغداديّ، مراصد الإطلاع: ٥١٠/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال ابن خلكان في ترجمته: "هو إمام الحديث في وقته وأعرف الناس بعلومه، وبالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم"[١].

وقد وضع القاضي عياض كثيراً من المصنفات في مختلف الأغراض، منها: "الشفا بتعريف حقوق المصطفى"، و "الغنية" في ذكر مشيخته، و "ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك" و "شرح صحيح مسلم" و "مشارق الأنوار" و "الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع" في مصطلح الحديث، وكتاب في "التاريخ".

فكان أن اشتهر القاضي عياض بأخباره وعلمه وأدبه وتآليفه التي أغنت المكتبة العربية ، حتى عُدّ "أعجوبة عصره وموسوعة شاملة لما كان يحيط به من ثقافات واسعة واتجاهات فيها"[٢]، ولعل هذه المكانة العلمية، جعلت منه خطيبا مصقعا.

ويبدو لنا أنّ الخطابة والقضاء، كانا متلازمين، إذ إنّ القاضي كان قدوة في عدله واستقامته وصلاحه وتقواه "فالمكانة الاجتماعية التي يتمتّع بها العالم في أمته تضاعف مسؤوليته لأنه موضع القدوة"[٣] إلى جانب اعتماده الخطابة على المنابر واعظاً مرشداً، نبع فكره من الاسلام الصافي، وهذا ما لاحظناه سابقاً في سيرة القاضي منذر بن سعيد البلوطي.

وقد جاء في كتاب أزهار الرياض، نقلاً عن ابنه أبي عبدالله عياض، أنه قال: "ونشأ أبي على عفة وصيانة مرضي الحال، محمود الأقوال والأفعال، ... طالباً للعلم حريصاً عليه، مجتهداً فيه، معظماً عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إليهم، إلى أن برع أهل زمانه، وساد جملة أقرانه، فكان من حفّاظ كتاب الله تعالى مع القراءات الحسنة، والنغمة العذبة، والصوت الجهير، والحظ الوافر من تفسيره، وجميع علومه، وكان من أئمة الحديث في وقته، ... فقيهاً حافظاً للمسائل، عاقداً للشروط، بصيراً بالأحكام، نحوياً، حجة في الأدب، شاعراً مجيداً، كاتباً بليغاً، **خطيباً** حافظاً للغة

---

[١] ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤٨٣/٣ .

[٢] محمد بن تاويت، الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى: ٥٢/١ .

[٣] عبد الكبير المدغري، القاضي عياض المصلح الاجتماعي، كتاب ندوة الإمام مالك، دورة القاضي عياض: ٢٥/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأخبار والتواريخ، ... ، وبلغ من التفنن في العلوم ما هو مشهور"[١].

وقد أخذ القاضي عياض عن شيوخ بلده – سبتة – كالقاضي أبي عبد الله بن عيسى[٢]، والفقيه أبي إسحق الفاسي[٣]، ثم رحل إلى الأندلس ووصل قرطبة وأخذ عن أبي الحسن بن مغيث[٤] وغيره.

وتذكر المصادر التي ترجمت له، أنّه خرج إلى مرسية ولقي في رحلته هذه جماعة من أعلام الأندلس، وأجازه أبو علي الجياني، وابن شبرين[٥]، وغيرهم من أعلام غرب الأندلس، وأجازه أيضاً أبو جعفر ابن بشتغير[٦]، وغيره من أعلام شرق الأندلس.

ثم عاد إلى بلده سنة ٥٠٨ هـ وولي القضاء فيها سنة ٥١٥ هـ، وكان محمود الطريقة مشكور الحال، وتولّى قضاء غرناطة ٥٣١ هـ على المعتاد من شيمته السنية وأخلاقه المرضية، مشكوراً عند جميع الناس، لكنّ ابن تاشفين ضاق به ذرعه، وغصّ بمراقبته وصدّ أصحابه عن الباطل، فسعى في صرفه عن قضاء غرناطة، فصُرف عنها.

ثم ولي قضاء سبته ثانية، في آخر عام ٥٣٩ هـ، قدمه إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، فابتهج أهل بلده بذلك، فسار فيهم السيرة التي عهدوا منه، ثم بادر بالمسابقة إلى الدخول في نظام الموحدين والاعتصام بحبلهم، فأقرّه أمير المؤمنين على ما كان عليه فأوسع له وأجزل صلته، ولقي منه برّاً تاماً وإكراماً عاماً وانصرف على أحسن حال إلى أن ثارت الفتنة.

---

[١] المقّريّ، أزهار الرياض: ٣/٧ .

[٢] أبو عبدالله محمد بن عيسى، هو: محمد بن عيسى بن حسين التميمي السبتي، دخل الأندلس طالباً للعلم فسمع من أبي عبدالله بن المرابط بالمرية وغيره وكان من أهل العلم وتولّى القضاء بسبتة وفاس، توفي ٥٠٥ هـ. ترجمته في: ابن بشكوال، الصلة: ٢/٥٧٢ .

[٣] أبو اسحاق الفاسي، هو: إبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتي، كان من أهل الفقه والعلم والمعرفة بالوثائق والبصر بالأحكام من أهل سبته، توفي ٥١٣ هـ . ترجمته في: القاضي عياض، الغنية: ص ١١٩ ، ابن بشكوال، الصلة: ١/١٠٢ ، ابن الأبّار، معجم أصحاب الصدفي: ص ٥٣ .

[٤] أبو الحسن بن مغيث، هو: يونس بن محمد بن مغيث بن محمد بن يونس بن عبدالله، ويعرف بابن الصفّار، عارفاً باللغة والإعراب والأنساب، أديباً عارفاً بالخبر، جلّة العلماء في زمانه، توفي ٥٣٢ هـ. ترجمته في: القاضي عياض، الغنية: ص ٢٢٤ ، ابن بشكوال، الصّلة: ٢/٦٨٨ ، ابن الأبار، المعجم: ص ٣٠٩ ، الذهبيّ، سير أعلام النبلاء: ٢٠/١٢٣ ، الحنبليّ، شذرات الذهب: ٤/١٠١.

[٥] ابن شبرين، هو: أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن بن علي، أحد العلماء الفضلاء من رحال غرب الأندلس، توفي ٥٠٣ هـ. ترجمته في: القاضي عياض، الغنية: ص ٧٥ ، ابن بشكوال، الصلة: ٢/٥٦٩ ، المقري، أزهار الرياض: ٣/١٥٥-١٥٦ .

[٦] أبو جعفر أحمد بن سعيد بن خالد بن بشتغير من سكان لورقة، وكان ثقة واسع الرواية، توفي ٥١٦ هـ. ترجمته في: القاضي عياض، الغنية: ص ٩٩ ، ابن الأبار، المعجم: ص ٦ ، ابن بشكول، الصلة: ١/٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتظهر ترجمة القاضي عياض ما لاحظناه في ترجمة البلوطي – أنّ الأدباء في الأندلس من خطباء وشعراء كانوا يجمعون بين فنون متنوعة، ومعارف مختلفة تركت آثارها في الخطابة. فقد لاحظنا في **خطب** القاضي عياض تجلي الروح الدينية فيها، إذ يلجأ إلى تأكيد وحدانية الله ومعجزات خلقه، وتأكيد الرسالة المحمدية وأثرهما في السلوك البشري، فظلت شخصية القاضي عياض الدينية الجامعة لمختلف المعارف والعلوم حاضرة في خطبه، التي عبرت عن تفوقه في علوم الشريعة الأمر الذي أكسب الخطابة رونقاً جمالياً وبلاغياً، وأكسب القاضي عياض شهرة واسعة على نطاق العالم الإسلامي، "فعرف بأنّه إمام من أئمة العلم وشيخ من شيوخ المعرفة"[١]. وقد عبرت الأمة المغربية عن مكانة القاضي عياض في تاريخها بقولها: "لولا عياض لما ذكر المغرب"[٢].

٣ – لسان الدين بن الخطيب[٣]:

نالت شخصية لسان الدين بن الخطيب كثيراً من العناية والدراسة والاهتمام؛ فقد تعرض لترجمته كثير من المؤرخين، بل إنّه لا يمكن الحديث عن عهد غرناطة وملوك بني الأحمر بمعزل عن لسان الدين بن الخطيب، فهو وحده كاف للدلالة على النهضة الأدبية الشعرية والنثرية، فما من موضوع إلّا وطرقه، كيف لا وثقافته ثقافة شاملة مترامية الأطراف لا يوجد شيء –غالباً– في العلوم والمعارف والآداب إلا وقد تناوله، "فالثقافة الأندلسية من أولها في الأندلس إلى آخرها قد صفيت وتقطرت في لسان الدين بن الخطيب لتعدد مناحيه وسعة علمه وكثرة إنتاجه"[٤].

جاء في المصادر التي ترجمت للسان الدين بن الخطيب أنه "محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبدالله، الشهير بلسان الدين بن الخطيب، ولد بمدينة غرناطة سنة ٧١٣ هـ. واتصل أبوه بملوك بني الأحمر، وكان له شأن عظيم حين كانت غرناطة حافلة بالعلم وأهله من كل فن، فشب لسان الدين بين هؤلاء العلماء، وأخذ عنهم العلوم والأدب، وكان من بين مشايخه الفلاسفة والأدباء والأطباء. ولا

---

[١] عبدالله كنون، القاضي عياض أديبا، المناهل، العدد ١٩ ، السنة ٧ ، ١٩٨٠ ، ص: ٤٧.

[٢] محمد بن تاويت، تقديم حول القاضي عياض، المرجع نفسه: ص ١١ .

[٣] سبقت الاشارة إلى مصادر ترجمته: ص ٧٤ من الدراسة .

[٤] أحمد أمين، ظهر الإسلام: ٣/٢٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عجب في ذلك، فقد كانت جذوره الأسريّة طيبة في الفضل والعلم، وقد مارس جدّه الأول التعليم والتدريس، وغلب عليه لقب "الخطيب" وورثه فيه أبناؤه. كما تولى جدّه فضلاً عن ذلك بعض المناصب الإداريّة، وكذلك شغل أبوه "عبدالله" منصباً في دولة ابن الوليد إسماعيل، وقد كانت نشأة أبي عبدالله الأولى في غرناطة، وفيها حلّ الشباب تمائمه.

ومن أوسع الذين ترجموا لابن الخطيب، المقري في كتابه نفح الطيب، فقد (كان معجباً به وذلك ما دعاه إلى تأليف كتابه في مراحله الأولى بعنوان "عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب" ثم كان كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب")[١].

وقد استغرقت ترجمة ابن الخطيب القسم الثاني من هذا الكتاب، وكما جعل القسم الأول الخاص بالأندلس في ثمانية أبواب فإنّه التزم هذا العدد من الأبواب في التعريف بابن الخطيب، ثم يأتي كتاب أعمال الأعلام بعد النفح في الأهمية حيث نجد حديثاً مفصلاً عن حياة ابن الخطيب.

لعلّ الأمر المهم جداً في هذه الترجمات، إظهارها الدور الأسري الذي أثّر في حياة لسان الدين بن الخطيب، فقد كان لوالده الأثر الكبير في حياته السياسيّة وخطوته عند السلاطين، وسعة اطلاعه في ضروب العلم والمعرفة والأدب، إذ يقول لسان الدين بن الخطيب بعد وفاة والده: "... وخلفني عالي الدرجة، شهير الخطة، مشمولاً بالقبول، مكنوفاً بالعناية"[٢].

فكان بذلك من "المؤلفين المشهورين، كثير الدرس والقراءة، ورسائله الأدبيّة ومقطوعاته الشعريّة كثيرة جداً"[٣]، ولعل ما ذكرته المصادر التي ترجمت له من أنّ أرقه في الليل قد جعله يغترف من بحور العلم والمعرفة ما يشاء فجاءت مصنّفاته في مختلف

---

(١) المقّري: نفح الطّيب: ١/١٥ .

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة: ٤/٤٤٢ .

(٣) أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس: ص ٢١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مناحي الحياة، فغدا "شاعر الدنيا وعلم المفرد والثنيا، وكاتب الأرض إلى يوم العرض...".[١]

ومن مصنفاته: التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى، والكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة، وخطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف، وطرفة العصر في دولة بني نصر، والإحاطة في تاريخ غرناطة، ورقم الحلل في تاريخ الدول، وأعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام،وريحانة الكتّاب، وكناسة الدكان، ونفاضة الجراب في التاريخ، واللمحة البدرية في الدولة النصرية، والإماطة عن وجه الإحاطة، وجيش التوشيح، والسحر والشعر. وتشير هذه المصنفات إلى المواهب المزدوجة عند ابن الخطيب حيث جمع بين ملكتي الشعر والنثر.

ويقول فيه ابن خلدون: "ونبغ في الشعر والترسيل، بحيث لا يجاري فيهما، وأصبح شاعر الأندلس والمغرب في عصره"[٢].

وعدّ عنان كتب لسان الدين "تراثاً ضخماً منوعاً[٣]" واعتبر لسان الدين "قطب الشعر والنثر في عصره، ومحور الحركة الفكرية الأندلسية"[٤].

ويرى مصطفى الشكعة: "أنّ ابن الخطيب كان مستجيباً للذوق السائد في ذلك العصر ومواكباً لأساليب النثر المشهورة، وفي مقدمتها طريقة القاضي الفاضل[٥]"[٦].

أما أحمد أمين، فيرى "أنّ نثره يتسم بدقة الوصف وغزارة المعنى"[٧].

---

[١] ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان: ص ٢٤٣-٢٤٤ .

[٢] تاريخ ابن خلدون: ٦٨٩/٧.

[٣] محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام "نهاية الأندلس": ص ٤٨١ ، ابن الخطيب، الإحاطة: ٥٣/١ .

[٤] المرجع نفسه: ص ٤٨١ .

[٥] القاضي الفاضل، هو: أبو علي عبد الرحيم البيساني، نسبة إلى بيسان بين حوران وفلسطين، وزير لصلاح الدين الأيوبي، ربّ القلم والبيان واللسن واللسان والقريحة الوقّادة. وقال النويري: "إلى القاضي الفاضل انتهت صناعة الإنشا ووقفت"، عُرف أسلوبه بالتزام السجع الطويل، والتشبيه والاستعارة. توفي ٥٩٦ هـ. ترجمته في: ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ١٥٨/٣-١٦٣ ، النويري، نهاية الأرب: ١/٨-٥١ .

[٦] مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي: ص ٥٧٢ .

[٧] أحمد أمين، ظهر الإسلام: ٢١٩/٣ .

٥٣١١١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما كان لشيوخه الذين تتلمذ عليهم أثر كبير في تشكيل شخصيته الثقافية والمعرفية، فقد تتلمذ على مجموعة من الشيوخ، منهم أبو الحسن القيجاطي[١]، وأبو عبدالله ابن الفخّار[٢]، والطنجالي الهاشمي[٣]، وابن الحاج[٤].

وتذكر المصادر التي أشرنا إليها سابقاً، أن ابن الخطيب تولّى ديوان الإنشاء بعد وفاة ابيه سنة ٧٤١ هـ، الذي كان يرأسه أبو الحسن بن الجيّاب[٥] وزير السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل (٧٣٤-٧٥٥ هـ)، فتولى أمانة سر هذا الديوان، ثم خلف ابن الجيّاب بعد وفاته بسبب الوباء الجارف عام (٧٤٩ هـ)، فأصبح رئيس الكتّاب ورئيس ديوان الإنشاء، كما أنعم عليه السلطان رتبة الوزارة.

وحين خلف محمد الغني بالله (٧٥٥- ٧٦٠ هـ) سلطان أبيه يوسف، بقي ابن الخطيب في منصبه وما زال فيه حتى نشبت الفتنة سنة (٧٦٠ هـ) فيتولى شقيقه إسماعيل الحكم، ويرحل ابن الخطيب والغني بالله إلى المغرب ولم يزالا كذلك حتى عادا إلى الحكم ثانية، ثم فسدت العلاقة بينه وبين السلطان بسبب حسّاده، ثم غادر الأندلس إلى المغرب، وانتهى الأمر بسلطان الأندلس، بتحريض الفقهاء إلى أن أحرق كتبه سنة (٧٧٣ هـ)، ثم تولى حكم المغرب الأمير أحمد بن أبي سالم، وحقّق لابن الأحمر ما أراد في ابن الخطيب حين سجنه ثم قتله سنة ٧٧٦ هـ[٦].

---

(١) أبو الحسن القيجاطي، هو: علي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله، ورد غرناطة عام ٧١٢ هـ، وقعد بمسجدها يقرئ فنوناً من العلم، ولي الخطابة وناب عن بعض القضاة، وقصده الناس وأخذ عنه القريب والبعيد، توفي في ٧٣٠ هـ. ترجمته في: ابن الخطيب، الإحاطة: ٤/١٠٤-١٠٧ ، والكتيبة الكامنة: ٣٧-٤٠ ، وريحانة الكتّاب : ٢/٣٦١-٣٦٢ ، السيوطي، بغية الوعاة: ٢/١٨٠، المقري، نفح الطيب: ٥/٥٠٧ .

(٢) أبو عبد الله بن الفخار، هو: محمد بن علي الفخار، شيخ النحاة بالأندلس، توفي ٧٥٤ هـ . ترجمته في: ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة: ٧٠-٧١ ، السيوطي، بغية الوعاة: ٢/٨٠ ، المقري، نفح الطيب: ٥/٣٥٥-٣٥٩ .

(٣) الطنجالي الهاشمي، هو: أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر أحمد بن ابي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الهاشمي، تقدم قاضياً بمالقة، وهو أحد أماثل قطره وذوي الأصالة من أهله. ترجمته في: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس: ص ١٥٥ ، المقري، نفح الطيب: ٥/٣٨٩ .

(٤) أبو البركات، محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن الشيخ الولي أبي إسحاق بن الحاج البلفيقي، وكان من بيت كبير علماً وصلاحاً وزهداً ، توفي ٧٧٣ هـ أو ٧٧١ هـ. ترجمته في: النباهي: تاريخ قضاة الأندلس: ص ١٦٤ ، ابن الخطيب، الإحاطة: ٢/١٠١ ، ريحانة الكتّاب: ٢/٣٦٣ ، ابن خلدون، التعريف: ص ٦١ ، المقري، نفح الطيب: ٥/٤٧١ .

(٥) أبو الحسن الجيّاب، هو : علي بن محمد بن سليمان بن الحسن الأنصاري، ولد ٦٧٣ هـ، كان قائماً على العربية، إماماً في الفرائض والحساب، وكان قد امتطى من ديوان الإنشاء حواداً تقدم به، توفي ٧٤٩ هـ. ترجمته في: ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة: ص ١٨٣ ، ابن الأحمر ، نثير فرائد الجمان: ص ٢٣٩-٢٤١ ، المقري، نفح الطيب: ٥/٤٣٤ ، ٤٥٧ .

(٦) تفاصيل الأحداث في: ابن خلدون، العبر: ٧/١٩٠-٧٠٩ ، ابن الخطيب، الإحاطة: ١/٤٢-٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويُظهر لنا هذا الجانب من حياته السياسية، مدى أثر الاشتغال بالسياسة في فتح أبواب الكتابة في كثير من الموضوعات الاجتماعية والسياسية، الأمر الذي زاد من حقد بعض الفقهاء والعلماء عليه، لأنّهم شعروا أنه ملك الدولة منهم، ومن هؤلاء أشهر تلاميذ لسان الدين، وهو ابن زمرك[١] الذي أشاع عن لسان الدين أنّه كافر، وأنّه جاء في كتبه من المسائل الطبيعية والفلسفية التي لا يبيحها الدين، فراجت هذه الوشايات عند السلطان، وزاد غضبه، ولمّا علم لسان الدين بذلك، هرب إلى أفريقية بدعوى أنّه ذاهب إلى أمور تتعلق بالمملكة، ولكن عندما ذهب إلى أفريقية اتفق ملك المغرب على تسليمه لابن الأحمر، فسجن في فاس "وأفتى الفقهاء بقتله، ودسّوا عليه أحد القوّاد فخنقه في سجنه، ودفن في فاس ثم أُخرجت جثته، وأحرقت بالنار سنة (٧٧٦ هـ)، وكان يلقّب بذي الوزارتين: القلم والسيف، ويقال له "ذو العمرين" لاشتغاله بالتصنيف في ليله وبتدبير المملكة في نهاره"[٢].

فلا عجب أن يصبح عنوان عصره، في فنون الأدب وضروب العلم، فإنّ له في النثر الفني والشعر الآثار الخالدات وإن كان "يغلب عليه الطابع الإقليمي فيتناول معانيه من الصعيد المحليّ، لكنّه لا يغفل الرصيد الأدبيّ المشاع بين العرب كلّهم".[٣]

ثمّ أنّ خبرة لسان الدين في ديوان الإنشاء، وتقلّبه في الوظائف الإدارية والسياسة أتاحت له الاتصال بمشاهير كتّاب عصره، والإطلاع على الرسائل الديوانيّة للدول الأخرى، ولعلّ شهرته الواسعة في ميدان الرسائل الديوانية جاءت من كونها وسيلة للدعاية السياسية والإعلان، وهي صميم وظيفته. إلا أنّ ذلك لا يعني غياب لسان الدين بن الخطيب عن ميدان **الخطابة**، بدليل خطبته التي أوردناها في الفصل الثاني من هذه الدراسة، فالفكرة عنده تنبع من الاسلام بقيمه ومفهوماته، وطريقته في أداء الخطبة تعتمد على استثارة عزائم المستمعين وعواطفهم الدينية ليتفانوا في الجهاد في سبيل الله.

---

[١] ابن زمرك، هو: الوزير الكاتب محمد بن يوسف بن محمد أبو عبدالله، أصله من شرقي الأندلس، وكان صدراً من صدور العلم، حيث تتلمذ على عدد من مشهوري علماء غرناطة وأدبائها كأبي البركات البلفيقي ولسان الدين بن الخطيب الذي رفعه إلى المشاركة في الكتابة السلطانية ثم انفرد بها ابن زمرك بعده، توفي مقتولاً ٧٩٧ هـ، ترجمته في: ابن الخطيب، الإحاطة: ٢/٣٠٠-٣١٤ ، الكتيبة الكامنة: ص٢٨٢ ، ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان: ص ٣٢٧ ، المقري، أزهار الرياض: ٢/٧-٢٠٤ ، النفح: ١٤٥/٧ .

[٢] تاريخ ابن خلدون: ٧٠٩/٧ ، ابن الخطيب، الإحاطة : ١/٤٢-٤٣ ، المقّري، نفح الطّيب: ٩/٧ .

[٣] عبد الله كنون، "لسان الدين بن الخطيب الكاتب الساخر"، البحث العلميّ، العدد ٢ ، السنة الأولى، ١٩٦٤: ص ١٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصفوة القول، إنّنا أردنا من خلال استعراض بعض المحطات من حياة هؤلاء الأعلام، أن نبيّن أنّ صدى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية، قد أثّر في خطابة الأندلس، كما أثّرت الخطابة في سير تلك الاتجاهات، وعكست لنا قاموس الخطباء اللغوي وتنوّع ثقافاتهم وطرقهم لمختلف ميادين العلم والمعرفة.

واستطاعت الترجمة أن تقدم التصوير الدقيق للحياة العلمية التي كانت مليئة بالمراكز الدينية والأساتذة الذين أخذ عنهم الخطباء أو اتصلوا بهم، والنضوج الفكريّ العميق والعلم الرصين المجرّب الذي اتّصف به الخطباء في الأندلس.

ومع ذلك، فليس من غرضنا أن نستقصي دقائق تاريخ هؤلاء العلماء، لأنّنا لو قصدنا ذلك لما وفيناهم حقّهم، فحياتهم زاخرة عامرة بالأحداث. وإنّما هدفنا إلى الوقوف على لُمَعٍ وتسجيل المعالم العامة لحياتهم، وما قد يكون له أثر في تقدم الخطابة وازدهارها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

أنواع الخطابة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنواع الخطابة

دأب دارسو الأدب[1] على تقسيم الخطابة إلى خطب الجهاد، وخطب الدعوة إلى السلم، والخطب السياسية، والخطب الدينية، والخطب الاجتماعية.

وعرّفوا خطب الجهاد، بأنّها تلك التي كانت تلقى في التحريض على القتال وتحفيز الهمم، وبعث العزيمة في نفوس الجند، وإذكاء حماستهم، وتبشيرهم بالنصر، وتهوين الموت.

أمّا خطب الدعوة إلى السلم، فهي التي تقال قبل احتدام الصراع أو بعده لإصلاح ذات البين.

أمّا الخطابة السياسية، فقد كانت تلقى في بيان سياسة الخليفة أو الأمير.

وعرّفوا الخطابة الدينية، بأنّها تلك التي تستغل في التوجيه والإرشاد والإصلاح، وتأكيد ضرورة الإلتزام بالتعاليم والشرائع الدينية والأخلاقية، وتتصل بالجمعة والعيدين.

وجاءت الخطابة الاجتماعية، لتعالج بعض القضايا الاجتماعية أو تلك التي تقال في مختلف المناسبات العامة كخطب الإملاك، التي يلقيها أهل الخاطب عند طلب الرجل للمرأة، وإنّه رآها فأعجبته، أو سمع بها فأراد أن يتزوجها، ويحسن أن يتكلم الخطيب في مستهل خطبته عن استحباب الزواج وأنه سنة حسنة.

---

[1] منهم ، علي محفوظ ، فن الخطابة ، وإعداد الخطيب . محمد أبو زهرة ، الخطابة أصولها، تاريخها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ - خطب الجهاد

١ - خطبة طارق بن زياد (ت ١٠٢هـ)[١]

يلاحظ الباحث في النصوص الخطابيّة التي تحثّ على الجهاد وتسيير أمور الحرب، أنّ خطبة طارق بن زياد في الفتح تُعدّ من النماذج المبكرة للخطابة الأندلسية في موقف التحريض والإثارة لحماس الجند، في حين اعتبر بعض الدّارسين[٢] أنّ هذه الخطبة تعدّ من الأدب الأندلسي تجوزاً، إذ لم يكن صاحبها بعد قد عاش في الأندلس، وعدّها[٣] بعضهم من الأدب العربيّ عامة لا الأندلسيّ خاصة، أو هي صورة للخطابة في المشرق وحده.

بيد أنّنا نرى أنّها خطبة أندلسيّة ذات طابع مشرقي، ولا غرابة في ذلك إذ إنّ كثيراً من النصوص الأدبية اللاّحقة اتّسمت بخصائص أدب المشرق، ومهما تكن المدة التي عاشها طارق في الأندلس، فهي كفيلة بإحداث أيّ تغير وإن كان يسيراً، ولا سيّما أنّ العرب ومن دخل الإسلام من غيرهم عُرف عنهم الذكاء والفطنة وسرعة البديهة، وهذا ما عُرف عن طارق الذي أرسل معه موسى بن نُصير عدداً من الفقهاء ليعلّموا القرآن والحديث أثناء فتح بلاد الأندلس.

وتعرض هذه الدّراسة، لخطبة طارق بن زياد لتبيّن حقيقة نسبتها إلى قائلها، ودورها في الحثّ على الجهاد، وذلك من خلال عرض آراء بعض الباحثين المحدثين الّذين شككوا في صحة هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق، وحاولوا تفنيدها وإقصاءها عن الواقع[٤]، والّذين وقفوا موقف العدل من الخطبة ونسبتها لقائلها[٥].

---

[١] سبقت الإشارة إلى ترجمته في : ص ٣ من الدراسة.

[٢] علي بن محمد، النثر الأدبيّ الأندلسيّ في القرن الخامس، مضامينه وأشكاله: ص ١٣٧.

[٣] محمد خفاجي، قصة الأدب في الأندلس، ٤٦/٣ .

[٤] بطرس البستاني، معارك العرب في الشرق والغرب؛ ص ٦٨-٦٩ ، حكمة علي الأوسي، فصول في الأدب الأندلسي: ص ٧٦، الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس : ص ٧٨، علي بن محمد، النثر الأدبيّ الأندلسيّ في القرن الخامس "مضامينه وأشكاله" : ص ١٤٠-١٤١ ، علي محمد حمودة، تاريخ الأندلس السياسيّ والعمرانيّ والاجتماعيّ: ص ٤١-٤٢، فريال العلي، فنّ الخطابة في العصر الأموي: ص ١٠٥-١٠٧ .

[٥] عبّاس الجراري، الأدب المغربيّ من خلال ظواهره وقضاياه : ٦٥/١-٦٧ ، عبدالله كنون، النبوغ المغربيّ: ٤٢/١، علي لغزيوي، أدب السياسة والحرب في الأندلس من الفتح إلى نهاية القرن الرّابع الهجري: ص ٤١٤، هناء الدويري، الموجز في تاريخ الأدب الأندلسي والمغربيّ: ص ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد ذلك ستعرض الدراسة إلى نصّ تام عُثر عليه لهذه الخطبة، وقد ورد في كتاب "الإمامة والسياسة"[١] ومقابلته بالنصوص المتأخرة[٢].

أمّا عن نسبة هذه الخطبة لطارق بن زياد فقد شكّك عددٌ من الدارسين بذلك منهم أحمد هيكل في كتابه : "الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة"[٣]، واستند في شكّه إلى عدة أسباب منها :

١- أنّ طارقاً بربريّ، حديث عهد بالإسلام والعربيّة، وأنّه لم يرتبط بموسى بن نصير إلّا عندما ولي ابن نصير قيادة المغرب سنة (٨٩هـ). وبين هذا التاريخ، وتاريخ الفتح (٩٢هـ) فترة وجيزة، يستبعد معها أن يجيد طارق العربيّة، بحيث تسمح له بإلقاء الخطب.[٤]

٢- أنّ المصادر الأولى من عربيّة وأندلسيّة، قد سكتت عن هذه الخطبة، ولم تشر إليها ولم تنص عليها سوى المصادر المتأخرة كثيراً عن تاريخ فتح الأندلس مثل: نفح الطّيب، للمقّريّ، المتوفّى سنة ١٠٤١هـ[٥].

٣- أنّ أسلوب الخطبة بما فيه من السجع الكثير والمحسنات المتكلفة، لا ينتسب إلى أسلوب الخطابة في زمن طارق، ولذلك يرى أنّ هذه الخطبة هي أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسيّ[٦].

٤- أنّ ورود العبارة : "وقد اختاركم أمير المؤمنين من الأبطال عربانـاً" زاد من الشك والارتياب، لأنّ الجنود لم يكونوا عرباً، بل كانوا برابرة[٧]. ويخلص الدكتور أحمد هيكل إلى ترجيح أن تكون الخطبة قد وضعت على لسان طارق من قبل بعض الرواة المتأخرين كثيراً عن الفتح والمتأثرين كثيراً بأسلوب أواخر

---

[١] مؤلف مجهول، الإمامة والسياسة : ص ٣٠٨-٣٠٩ .

[٢] ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/٣٢١-٣٢٢ ، المقّريّ ، نفح الطّيب: ١/٢٤٠-٢٤١، ابن هذيل، تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس: ص ٧٠-٧١ ، وقد أورده محمد عبدالله عنان في كتابه دولة الإسلام، العصر الأول، القسم الأول: ص ٤٦-٤٨ .

[٣] أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: ص ٧٠-٧٣ .

[٤] المرجع نفسه : ص ٧٠ .

[٥] المرجع نفسه : ص ٧٠ .

[٦] المرجع نفسه : ص ٧٢ .

[٧] المرجع نفسه: ص ٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العصر العباسيّ، أو العصر المملوكي، ويرى أنّه من المعقول أن يكون طارق فعل ذلك بلغته البربرية، التي كان يجيدها، وكان جنوده يفهمونها.

أمّا المؤرخ محمد عبدالله عنان، فقد استند في شكّه على الأسباب التالية:

١- أنّ الخطبة لم ترد في المصادر التاريخية الإسلامية القديمة، ولم يشر إليها ابن خلدون ولا ابن الأثير، وإنّما نقلها المقري وحده عن مؤرخ مجهول[١].

٢- أنّ أسلوب الخطبة وعباراتها ، امتاز بالروعة مع أنّ طارقاً لم يكن عريقاً في العروبة والإسلام. ويخلص من ذلك إلى الحكم بأنّها من إنشاء بعض المتأخرين صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان، وهو لا ينفي أن يكون طارق خطب ولكن في غير هذه اللغة.

وقد أشار بعض الدارسين[٢]، إلى أن خطبة طارق بن زياد تتصف بالرّوعة، وأنّ لبلاغتها الشأن الأول في انتصار الجيش القليل على جيش القوط الكثير.

أمّا عبد السّلام الهرّاس[٣]، فيرى صحة نسبة الخطبة لطارق، للأسباب التالية:

١- أنّ طارقاً ابن لمسلم وهو زياد، وحفيد لمسلم وهو عبدالله، حسبما ذكر ابن عذاري[٤] في نسبه، فله على الأقل أبوان في الإسلام، وهكذا لم يعد هذا القائد البربريّ حديث عهد بالإسلام، ولم تعد الفترة الّتي قضاها في الإسلام لا تتعدى ثلاث سنوات، ثم من أين لنا معرفة ما إذا كان طارق قد نشأ في المغرب دون المشرق؟ أو تحديد ذلك التاريخ بالذات لاتصاله بموسى بن نصير، ونفترض، ما هو أقرب إلى المعقول، أنّ أباه أوجده هو الذي كان بالمشرق، فنشأ الابن الحفيد في بيئة عربيّة أصيلة، أتاحت له حذق لغتها والنبوغ فيها والفوز بثقة بلاط دمشق ليتولّى مكانة متميزة في الدّولة الأمويّة ممّا أهله لقيادة جيش الفتح.

---

[١] محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس: ٤٧/١ .

[٢] إبراهيم أبو الخشب، تاريخ الأدب العربيّ في الأندلس : ص ٧٩ .

[٣] عبد السّلام الهرّاس، "خطبة طارق بن زياد من جديد" ، مجلة دعوة الحقّ، العدد ٥-٦، السنة ١١: ص ١٢٦-١٢٩ .

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب : ٤٣/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- أمّا الدليل الثّاني الذي يسوقه الهرّاس فهو أنّ الزعم بكونها لـــم تـرد إلاّ فـــي المصادر المتأخرة كثيراً كنفح الطيب، زعمٌ غير صحيح، إذ وردت في مصـادر أقدم بكثير من عصر المقريّ، فقد أوردها ابن خلكان، ووردت في تحفة الأنفـس لابن هذيل.

ومهما يكن من أمر الشّك في صحة هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق، انطلاقاً من نسب صاحبها، وعدم ذكرها في بعض المصادر المتقدمة - علـــى حـدّ رأي بعـض الدارسين كما رأينا- ونظراً لسماتها الفنية التي رأوها غير مناسبة للعصر الذي عـــاش فيه صاحبها، فذلك كلّه لا يُعد دليلاً مقنعاً على عدم الأخذ بها وإنكارها تماماً .

وبعد الوقوف على آراء الدّارسين حول نسبة هذه الخطبة لطارق، نســـتطيع أن نخلص إلى ما يلي :

١- أنّ طارقاً، وإن كان بربرياً، فقد نشأ في بلاد العرب والإسلام، ولا ريب أنّه كان من الّذين أسلموا منذ الفتح المغربي الأول، وانتقل إلى المشـــرق حيـث تـــولاّه موسى بن نصير، وهو حفيد لعبدالله، وهو مسلم أيضاً حسبما ذكره ابن عـذاري في نسبه[١].

٢ - أنّ موسى بن نصير لم ينس قضية نشر الإسلام والثقافة العربيّـــة بيـــن بربـــر المغرب الأقصى، ولأجل نشر الإسلام، وتعليم سكان المنطقة مبادئـــه، "تـــرك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الإســـلام"[٢]، وقد أدّى الوجود العربيّ البربَريّ في طنجة إلى تجنيد البربر مع العـــرب فـــي جيش إسلامي كبير أدّى - فيما بعد- مهمة خطرة في تاريخ الدولـــة العربيّـة الإسلامية، ألا وهي فتح الأندلس، "ومثل هذا النوع من التجنيـــد فـــي الجيـش الإسلامي كان فرصة مهمة للاختلاط العربيّ البربريّ في المغرب الأقصى منذ

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب : ٤٣/١ ، تاريخ ابن خلدون : ١١٠/٦ .

(٢) تاريخ ابن خلدون: ١١٠/٦ ، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣٢٠/٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقت مبكر[١]" . وليس من شك في أنّ المغرب قد سار شوطاً كبيراً في التعريب، وبخاصة من خلال قدوم الأندلسيين في هجرة منظمة تضم كثيراً من الفقهاء والعلماء، وقد أشار الأستاذ عبدالله كنون إلى أنّ الخطبة "كانت من جملة ثمرات انطباع البربر بالطابع العربيّ البحت"[٢].

٣ - لا غرابة في نبوغ غير العرب في اللغة العربيّة منذ اعتناقهم الإسلام، فهناك سلمان الفارسيّ الذي أمضى شطر حياته في بلاد عجميّة، وعندما أسلم تفتق لسانه بالعربيّة، واعتزّ بالإسلام[٣]، فهو نسبه الذي يفخر به، وقد أشارت بعض المصادر[٤] إلى مكاتبات بين طارق وموسى بن نصير، مما يؤكد معرفته اللغة العربيّة وإتقانها. وقد وقفنا على رأي يذهب إليه الدكتور جاسر أبو صفية ، إذ يرى أنّ قادة الفتوحات في شمال أفريقيا، كانوا من العرب الخلّص، الذين أطلق عليهم لقب "المهاجرون".[٥]

٤ - أنّ الزعم بأنّ الخطبة لم ترد في المصادر القديمة غير صحيح فقد ورد جزءٌ منها عند منها في كتاب التأريخ، لمؤلف مجهول، ثم في الإمامة والسياسة لمؤلف في القرن الثالث الهجري[٦]، ووردت عند الطرطوشيّ وعند ابن خلكان في القرن السّابع وابن هذيل في القرن الثامن وغيرهم. الأمر الذي يؤكد وجود الخطبة وإن كانت بعض المصادر التاريخيّة لا تورد النصّ تاماً، فذلك لأنّها تولي الأحداث الحربيّة والسياسيّة جلّ عنايتها.

ونحن نعرف أنّ ما وصل إلينا من هذه المصادر القديمة قليلٌ جداً، ولكن لم تحظ خطبة جهادية بأكثر من هذا العدد من المصادر إلاّ قليلاً، وسنبقى ننتظر الكشف عن مصادر أخرى لهذه الخطبة.

٥ - أنّ ما أُثير حول صناعة البيان والبلاغة، واعتبار ذلك سبباً يمنع نسبة الخطبة لطارق، لا يمكن الاستناد إليه، فبلاغة الخطبة تمثلت في معانيها، والمعاني يعرفها العربيّ والأعجميّ، وإن كان هناك بعض التصرّف من الرواة، زيادة أونقصاناً، فهذا

---

[١] انظر ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٤٢-٤٣ .

[٢] عبدالله كنون، النبوغ المغربيّ: ١/٢٣ .

[٣] ابن الأثير ، أسد الغابه : ٢/٣٥٠-٣٥١ .

[٤] ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/٣٢٠ ، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ص ٣٤ .

[٥] جاسر أبو صفية، "أهمية البرديات في كتابة التاريخ الاسلامي"، مجلة الفيصل، العدد ٢٧٧، السنة ١٩٩٩، ص : ٢٣ .

[٦] مؤلف مجهول، التأريخ: ص ٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يعني نفي أصل الخطبة كاملة، وإنّ لغة هذه الخطبة وألفاظها هي لغة عامّة المسلمين، فمعظم ألفاظها دينيّة، وكثير منها من ألفاظ القرآن الكريم وألفاظ الأحاديث النبويّة الشريفة، وهي مما لا يحتاج إلى بلاغة خاصّة لأنها على كلّ لسانٍ، من ألسنة المسلمين الّذين يعرفون القرآن وتعاليم الدين الإسلامي نحو قوله: "فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم..."[١].

٦ - أنّ الموقف والمقام يستدعي إلقاء خطبة من قائد الجيش لجنده، يحثهم على الصبر ويرغّبهم في الشهادة، وهذا ما جرت عليه العادة ولا سيّما عند الفتوح الكبيرة مثل فتح الأندلس، لذا فمن غير الممكن نفي هذه الخطبة عن طارق كليّاً، بل إنّ خطبة طارق كانت أهم وثيقة في الفتح، تعزّز هدف المسلمين، وأنّهم لم يأتوا غازين، وإنّما جاءوا فاتحين ؛ لنشر الدين وإعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله.

وتستعرض هذه الدّراسة، أقدم النصوص التي وصلت إلينا: نصّ "الإمامة والسياسة" ونصّ "وفيات الأعيان" ليتسنى لنا مقابلتها والتعليق عليها، مع ما وصل إلينا من نصوص غير تامة[٢] وذكرنا الاختلاف بينها في الحواشي. والحقّ أنّ هذه الخطبة وردت قبل الإمامة والسياسة في كتاب التأريخ بما لا يزيد على سطرين[٣]؛ لذلك لم اعتمدها نسخة للمقابلة، وإن كان ما ورد منها يؤكد شهرة هذه الخطبة في أقدم المصادر التاريخية الّتي وصلتنا عن الأندلس، واعتمدت النسخة الأوفى في كتاب "الإمامة والسياسة".

---

[١] من قوله تعالى: (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنّ الله مع الصّابرين) الأنفال/٤٦ .

[٢] الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ) ، سراج الملوك : ٦٩٣/٢ ، إذ جاء النص: "... فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة، فقام فحضّهم على الصّدق والصّبر ورغّبهم في الشهادة، وبسط آمالهم، ثم قال: أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، فليس الا الصبر منكم والنصر من ربّكم، وأنا فاعل شيئاً فافعلوا كفعلي، فوالله لأقصدنّ طاغيتهم، فأما أن أقتله وأمّا أن أقتل دونه"ووردت عند اليافعي، مرآة الجنان: ١٦٠/١ : "أين المفر ! والبحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، فليس عليكم من الله إلاّ الصّدق والصّبر، وليس لكم وزير إلاّ سيوفكم".

[٣] مؤلف مجهول، التأريخ: ص ٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا نصّ الخطبة في كتاب التأريخ فقد ورد كما يلي: "فلما بلغ طارقاً دنوّه منه قام في أصحابه فحمدالله واثنى عليه، ثم حضّ النّاس على الجهاد ورغبهم في الشّهادة، ثم قال: "أيّها النّاس، أين المفرّ؟ والبحر من ورائكم والعدوّ أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصّبر، ألا وإني صادم إلى طاغيتهم بنفسي لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه"[1].

١- نصّ الخطبة في "الإمامة والسياسة":

"فلّما بلغ طارقاً دنوه (أي لذريق) منهم قام في أصحابه فحمد الله ثم حضّ النّاس على الجهاد، ورغّبهم في الشهادة وبسط في آمالهم ثم قال :

"أيّها النّاس ! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، فليس ثم والله إلا الصدق والصبر، فإنهما لا يغلبان، وهما جندان منصوران، ولا تضر معهما قلة، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة. أيّها النّاس: ما فعلت من شيء فافعلوا مثله؛ إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجلٍ واحدٍ في القتال. ألا وإنّي عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيبه حتى أخالطه أو أقتل دونه، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدّبر لعدوكم، فتبددوا بين قتيل وأسير، وإيّاكم إيّاكم أن ترضوا بالدّنيّة، ولا تعطوا بأيديكم وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذّلة، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة، فإنّكم إن تفعلوا، والله معكم ومعيذكم، تبوءوا بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين، وها أنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتي" فحمل وحملوا... "[2].

والذي يعزز نسبة هذه الخطبة لطارق، عدة أمور منها :

---

[1] مولف مجهول : التأريخ : ص ٣٨ .

[2] مولف مجهول، الإمامة والسياسة: ص ٣٠٨-٣٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- أنّ هذه الخطبة جاءت مناسبة للمقام الذي قيلت فيه، وهو الجهاد، وبيان خاتمة المجاهد النصر أم الشهادة.

٢- أنّ الخطبة لم تخل من التأثر بالقرآن الكريم، "فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم"[١] وذلك لتعزيز الثقة في نفوس المقاتلين.

٣- أنّ أسلوب الخطبة من حيث التأثير في المشاعر، وإثارة العواطف من خلال الاستفهام والترغيب، قد دفع الجيش للنصر، وقد أشارت فقرات الخطبة إلى مرتكزات فكرية[٢] اعتمد عليها طارق في دعوته الحماسية للجند، وحضّهم على الجهاد لينال الأحياء منهم الخيرات، وينال الشهداء ثواب الجهاد، مستخدماً الوسائل الفنية المتعددة مثل القسم والتوكيد، ورسم صورة عامة للظروف التي هم فيها، إذ اعتمد على المقابلة بين موقفهم وموقف أعدائهم، فالمسلمون محاطون بالبحر الذي يحاصرهم من خلفهم، وبالعدو الذي يزحف نحوهم، وهو بذلك يرغبهم في انتهاز الفرصة والإقدام على الموت، معلناً أنّه سيكون أول الحاملين؛ ليدفعهم إلى الجهاد ويبث الحماس في نفوسهم، وهي بذلك خطبة مؤثرة استطاعت مخاطبة العواطف والعقول، بدليل حماسة الجند وقتالهم حتّى النصر.

وتروي المصادر المتأخرة نصاً يختلف كثيراً في لفظه عن النص السالف الذكر وفيه زيادة كبيرة على رواية الإمامة والسياسة، وهو :

٢- نصّ "وفيات الأعيان" لابن خلكان، المتوفى سنة (٦٨١هـ) :

"فلما بلغ طارقاً دنوه قام في أصحابه فحمد الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم حث المسلمين على الجهاد، ورغبهم في الشهادة ثم قال: "أيّها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب[٣] اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه[٤] وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وَزَرَ لكم غير[٥] سيوفكم، ولا أقوات

---

[١] سبق تخريج الآية من : سورة الأنفال / ٤٦ .

[٢] علي لغزيوي، أدب السياسة والحرب في الأندلس : ص ٤١٣-٤١٤ .

[٣] نفح الطيب، وتحفة الأنفس: مأدبة.

[٤] تحفة الأنفس : بجيوشه.

[٥] نفح الطيب وتحفة الأنفس: إلا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكم[١] إلّا ما تَسْتَخلِصُونَه[٢] من أيدي أعدائكم، وإن امتدّت بكم الأيّام على افتقاركم، ولم تُنْجِزُوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب برعبها[٣] منكم الجراءة عليكم، فادفعوا من أنفسكم[٤] خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذه الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصّنة[٥]، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم[٦] إنْ سمحتم بأنفسكم للموت، وإنّي لم أحذركم أمراً[٧] أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطّة أرخص متاعٍ فيها النّفوس[٨] [إلاّ أنا][٩]، أبدأ فيها بنفسي، واعلموا أنّكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً، استمتعتم بالأرْفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حظّكم فيه أوفر من حظّي[١٠]، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرّافلات في الدّرّ والمرجان، والحلل المنسوجة بالعِقْيَان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك[١١]، من الأبطال عُرْباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ثقة منه بارتياحكم للطعام[١٢]، واستماحكم لمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظّه منكم ثوابَ الله على إعلاءِ كلمتهِ وإظهارِ دينه بهذه الجزيرة ويكون[١٣] مَغْنَمها خالصاً[١٤] لكم من دونه ومن دون المسلمين[١٥] سواكم، والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدّارين، واعلموا أنّي أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه،

---

[١] سقطت من نفح الطّيب.

[٢] تحفة الأنفس: تتخلصونه.

[٣] نفح الطّيب: من رعبها، تحفة الأنفس: عن رعبها.

[٤] نفح الطّيب، وتحفة الأنفس: عن أنفسكم.

[٥] نفح الطّيب، وتحفة الأنفس : الحصينة.

[٦] سقطت من تحفة الأنفس .

[٧] سقطت من تحفة الأنفس .

[٨] تحفة الأنفس : للنّفوس .

[٩] زيادة في نصّ ابن خلكان.

[١٠] نفح الطّيب وتحفة الأنفس: "فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي" والمعنى لا يستقيم لأنه يريد أن يقول لهم: إنّ حظّكم من الفتح أعظم من حظّي، فأنا والٍ أنقل من مكان لآخر، أمّا أنتم فقد صارت البلاد لكم.

[١١] نفح الطّيب، وتحفة الأنفس : الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين.

[١٢] نفح الطّيب، وتحفة الأنفس: للطّعان.

[١٣] نفح الطّيب ، وتحفة الأنفس: وليكون

[١٤] النفح، والتحفة: خالصة .

[١٥] النفح وتحفة الأنفس: المؤمنين، والنّص بعد ذلك في تحفة الأنفس يختلف بشكل واضح عن نصّ ابن خلكان والمقّريّ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكم[١] إلّا ما تَسْتَخلِصُونَه[٢] من أيدي أعدائكم، وإن امتدّت بكم الأيّام على افتقاركم، ولم تُنْجِزُوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب برعبها[٣] منكم الجراءة عليكم، فادفعوا من أنفسكم[٤] خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذه الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصّنة[٥]، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم[٦] إنْ سمحتم بأنفسكم للموت، وإنّي لم أحذركم أمراً[٧] أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطّة أرخص متاعٍ فيها النّفوس[٨] [إلاّ أنا][٩]، أبدأ فيها بنفسي، واعلموا أنّكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً، استمتعتم بالأرْفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حظّكم فيه أوفر من حظّي[١٠]، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرّافلات في الدرّ والمرجان، والحلل المنسوجة بالعِقْيَان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك[١١]، من الأبطال عُرْباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ثقة منه بارتياحكم للطعام[١٢]، واستماحكم لمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظّه منكم ثوابَ الله على إعلاءِ كلمتهِ وإظهارِ دينه بهذه الجزيرة ويكون[١٣] مَغْنَمها خالصاً[١٤] لكم من دونه ومن دون المسلمين[١٥] سواكم، والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدّارين، واعلموا أنّي أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه،

---

[١] سقطت من نفح الطّيب.

[٢] تحفة الأنفس: تتخلصونه.

[٣] نفح الطّيب: من رعبها، تحفة الأنفس: عن رعبها.

[٤] نفح الطّيب، وتحفة الأنفس: عن أنفسكم.

[٥] نفح الطّيب، وتحفة الأنفس : الحصينة.

[٦] سقطت من تحفة الأنفس .

[٧] سقطت من تحفة الأنفس .

[٨] تحفة الأنفس : للنّفوس .

[٩] زيادة في نصّ ابن خلكان.

[١٠] نفح الطّيب وتحفة الأنفس: "فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي" والمعنى لا يستقيم لأنه يريد أن يقول لهم: إنّ حظّكم من الفتح أعظم من حظّي، فأنا والٍ أنقل من مكان لآخر، أمّا أنتم فقد صارت البلاد لكم.

[١١] نفح الطّيب، وتحفة الأنفس : الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين.

[١٢] نفح الطّيب، وتحفة الأنفس: للطّعان.

[١٣] نفح الطّيب ، وتحفة الأنفس: وليكون

[١٤] النفح، والتحفة: خالصة .

[١٥] النفح وتحفة الأنفس: المؤمنين، والنّص بعد ذلك في تحفة الأنفس يختلف بشكل واضح عن نصّ ابن خلكان والمقّريّ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنّي عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لُذريق فقاتله إن شـــاء الله[١]، فاحملوا معي، فإنْ هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولن[٢] يُعوزكم بطل عـــاقل تســندون أمركم إليه، وإنْ هَلَكْت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفســكم عليه، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنّهم بعده يُخذلون"[٣].

والنّاظر في هذين النصّين، يُلاحظ مدى الاختلاف بينـــهما، والزيـــادات والمبالغات التي احتواها النصّ المتأخر، وهو نصّ مشكوك في صحـــة بعـــض عباراته ونسبتها لطارق بن زياد لأسباب هي :

١- أنّ قوله المنسوب إليه: "وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرّافلات في الـــدرّ والمرّجـــان، والحلـــل المنســـوجة بالعقيـــان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان" يُظهر وكأنّ غرض المسلمين مـــن الجهاد هو التمتع بالنساء، والمتع الزائلة التي لا تنسجم وأهداف الجهاد.

ويشير هذا الجزء من الخطبة إلى أنّ أهل الأندلس كانوا مـــن أصـــول يونانية، "والمعروف أنّ القوط كانوا يحكمون الأندلس زمن الفتح العربي"[٤] ولـم يذكر النويري الّذي ذكر السّلالات الّتي تعاقبت على حكم الأندلس أنّ اليونان قـد دخلوها[٥].

٢- أنّه ورد في نصّ الخطبة، مخاطبة الجند بهذه العبارة: "وقد انتخبكم الوليد بـــن عبد الملك من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانـاً" . ومن المستغرب أنّ يصف طارق جنوده بأنّهم أبطال عربان، وهو يعلم تماماً أنّ جلّ الجيش المشارك في فتح الأندلس من البربر، ولو أنّه خاطبـــهم بالأبطـــال المسلمين لما كان قوله مستغرباً. لذا لا نستبعد أن تكون هذه الإضافة مدسوســـة على طارق. وقد تكون (عرباناً) عزباناً بدليل قوله (أصهاراً وأختاناً).

---

[١] نفح الطّيب : إن شاء الله تعالى.

[٢] المصدر نفسه : ولم يعوزكم .

[٣] وفيات الأعيان : ٣٢١/٥-٣٢٢ .

[٤] تاريخ اليعقوبي: ٢٨٥/٢ ، تاريخ ابن خلدون : ٢٥٣/٤-٢٦١ .

[٥] النويري، نهاية الأرب : ٤١/٢٤-٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- أنّ ما اتُّهمت به الخطبة "من السجع الكثير، والمحسنات المتكلّفة"[١] لا نجده إلاّ في فقرة واحدة هي التي يقول فيها: "وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات في الدّرّ والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان.. واستماحكم بمجالدة الأبطال الفرسان". والذي يتأمل هذه الفقرة يجدها مختلفة عن بقية فقرات الخطبة، ولا نستبعد أن تكون مثل هذه الإضافات مدسوسة ملفقة ممن كان يحسد طارقاً .

إنّ تناقض الرّوايات على النحو الذي رأينا من خلال مقابلة نصّ متقدم مع نصّ متأخر ، يظهر بجلاء أنّه لا يمكن نفي الخطبة عن قائلها، وأنّ اختلاف الروايتين قد يكون مؤشراً على وجود خطبتين إحداهما عند بداية الفتح والثانية في أثناء الفتح، إذ لا يعقل أن لا يخطب طارق خلال سنوات الفتح (٩١-٩٣هـ) إلا خطبة حربيّة واحدة! ، فالخطبة ثابتة لطارق بن زياد، وما وقع فيها من تباين واختلاف بزيادة أو نقص، كان بسبب تصرّف الرواة، ومثل هذا التصرّف في الرّوايات يتطلب من الباحث التعامل مع هذه النصوص بحذر شديد، والتأكد من صحة نسبتها لقائلها وعصرها.

٢- خطبة موسى بن نصير (ت ٩٧هـ) :

جاء في كتاب "الإمامة والسياسة" ملحق ابن القوطيّة: "وذكروا أنّ موسى خرج من طليطلة[٢] في الجموع غازياً يفتتح المدائن حتّى دانت له الأندلس، وجاءه وجوه جُلِيقيّة[٣]، فطلبوا الصلح فصالحهم، وغزا البُشْكَنس[٤] فوغل في بلادهم حتّى أتوا قوماً كالبهائم، ثم مال إلى الإفرنج حتّى انتهى إلى سرقطة "وافتتح" ما دونها إلى الأندلس

---

[١] أحمد هيكل، الأدب الأندلسيّ من الفتح إلى سقوط الخلافة : ص ٧١ .

[٢] طُلَيْطِلَة وهي : ناحية بالأندلس من أعمال استجه، قريبة من قرطبة، وهي مدينة قديمة، وكانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق بن زياد، وقد سقطت بيد النصارى سنة ٤٧٨هـ. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٣٩/٤، الحميري، الرّوض المعطار: ص٣٩٣

[٣] جُلِيقيّة، وهي : منطقة تقع شمال غرب الأندلس، وقد خضعت للحكم الإسلاميّ فترة قصيرة في العهد الأمويّ. الحميريّ، الروض المعطار : ص ٥٠ .

[٤] البُشْكَنس: هم النصارى الإسبان الذين سكنوا في الجزء الغربي من جبال البرانس وكان مركزهم مدينة بانبلونا التي أصبحت فيما بعد عاصمة نافار. وقد خضعت منطقتهم للحكم الإسلامي منذ دخول موسى بن نصير الأندلس، إلاّ أنهم شقّوا عصا الطّاعة وانضموا لألفونسو الأول سنة ١٨٢هـ: المصدر نفسه : ص ٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأصاب فيها ما لا يدري ما هو ثم سار حتى قدمها وجاوزها بعشرين ليلة، وبين سرقسطة وقرطبة مسيرة شهر أو أربعين ليلة، قال: وذكروا أنّ عبدالله بن المغيرة ابن أبي بردة[١]، قال: كنت فيمن غزا مع موسى الأندلس، حتى بلغنا سرقسطة، وكانت من أقصى ما بلغناه مع موسى إلا يسيراً من ورائها، فأتينا مدينة على البحر، ولها أربعة أبواب، قال: فبينما نحن محاصرون لها إذ أقبل عياش بن أجيل[٢]، وكان صاحب شرطة موسى، فقال: "أيها الأمير إنا قد فرقنا الجيش أرباعاً على نواحي أبواب المدينة، وقد بقي الباب الأقصى، وعليه ربية، فقال موسى: ذلك الباب فإنا سننظر إن شاء الله، ثم إنّ موسى التفت إلي، فقال: كم معك من الزاد؟ قلت: ما معنا غير تَلَيس[٣]، قال: لم يبق معك إلا تليس، وأنت من أيسر الجيش، فكيف بغيرك، اللهم أخرجهم من ذلك الباب، قال المغيرة: فأصبحنا عن تلك الليلة، وقد خرجوا من ذلك الباب، أو أكثرهم فدخلها موسى، ووجه ابنه مروان في طلبهم، فأدركهم، فأسرع القتل فيهم، وأصابوا مما كان معهم، ومما في المدينة شيئاً عظيماً.

قال : وذكروا أنّ جعفراً بن الأشتر، قال: كنت ممن غزا الأندلس مع موسى ، فحاصرنا حصناً عظيماً بضعاً وعشرين ليلة ما نقدر عليه، فلما طال ذلك عليه، نادى فينا أن أصبحوا على تعبئة، فظننا أن قد بلغه أنّ قادة من العدو قد دنت منه، وأنّه يريد التحول عنهم، فأصبحنا على تعبئة، فقام فينا فحمد الله، ثم قال: أيّها الناس إنّي متقدم أمام الصفوف إذا رأيتموني كبرت وحملت فكبروا واحملوا، فقال الناس: سبحان الله أترى عقله ذهب عنه، يأمرنا بحمل الحجارة وما لا سبيل إليه، قال: فتقدم بين يدي الصفوف حيث يراه الناس، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة والبكاء، فأطال القيام، ونحن وقوف ننتظر تكبيره فاستعددنا، ثم إن موسى كبّر، وكبّر الناس وحمل، وحمل الناس. قال: فانهزمت ناحية من الحصن التي تلينا، فدخل الناس منها فصار ما لا ترى عيني إلا خيل المسلمين يمرغ فيها، وفتحها الله علينا، فأصبحنا وقد أصابنا من السبي، ومن الجوهر ما لا يحصى"[٣].

---

[١] من فضلاء التابعين، دخل الأندلس مع موسى بن نصير. ترجمته في المالكي: رياض النفوس: ١/١٢٦ .

[٢] عيّاش بن أجيل: روى عن سعيد بن المسيب، وكان على شرطة موسى بن نصير، وأجاز معه إلى الأندلس، وقدم بالسفن من الأندلس إلى إفريقية سنة مائة، ترجمته في :ابن بشكوال، الذيل والتكملة: سفر ٨، ق١، ص ٢٤٤، الضبي ، بغية الملتمس: ٢/٥٦٠ .

[٣] تليس: التليسة وعاء يسوى من الخوص شبه قفعه. ابن منظور ، لسان العرب: مادة تلس : ١/٣٠٦ .

[٣] مؤلف مجهول، التأريخ: ص ١٤٤ ، الإمامة والسياسة ، "ملحق ابن القوطيّة" ؛ ص ١٥٢-١٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما يعزّز صحة هذه الخطبة :

١- أنّ الخطبة وردت منسوبة إلى موسى بن نصير في مصدر متقدّم، وهو كتاب التاريخ لمؤلف مجهول، ووردت أيضاً عند ابن القوطية.

٢- أنّها لم تخرج عن مقتضى الحال، فموسى بن نصير خاطب بها أصحابه عندما اشتد الأمر وشعر أنّه لا مفرّ من التعبئة والحثّ على الجهاد، وإن عدّ بعض الدّارسين[١] هذا النّصّ مجرد أمر ألقاه قائد جيش لجيشه، فإنّنا نرى أنّ مواقف الجهاد تستدعي أن يخطب القائد في جيشه ولو بكلمات لإثارة الجند.

٣- خطبة عبد الرحمن الداخل، المتوفّي سنة (١٧٢هـ) :

تُعدّ هذه الخطبة من أبرز أمثلة الخطابة المتصلة بالوقائع والحروب التي قامت بين عبد الرحمن الدّاخل وخصمه يوسف الفهري آخر ولاة الأندلس ١٤١هـ، ومما احتفظت به المصادر من خطبة عبد الرحمن الدّاخل ما ورد في نفح الطّيب للمقّري:

" هذا اليوم أُس ما يبنى عليه، إمّا ذُلُّ الدّهر، وإمّا عزُّ الدّهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربحوا بقية أعماركم فيما تشتهون"[٢].

وبعد أن انتصر على يوسف الفهري، ورأى أصحابه يلاحقون أصحاب يوسف بالقتل يوم هزيمتهم، قال: "لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم، واستبقوهم لأشدّ عداوة منهم"[٣].

ويلاحظ الباحث في هذه الخطبة :

أنّ عبد الرحمن الداخل خاطب بها أصحابه حين اشتدّ وطيس المعركة، لحثّهم فيها على الثبات والصمود مشيراً إلى نعمة الجهاد عليهم.

وقد انطلقت الخطبة من دعائم قوية، اعتمدت عليها في مخاطبة عبد الرحمن لجنده، فإمّا الهزيمة التي تؤدي إلى الذّل طول الدّهر، وإمّا النصر الذي يؤدي إلى العزّ، وكانت هذه التعبئة حافزاً لوحدة صف المسلمين.

---

[١] حكمة علي الأوسي، فصول في الأدب الأندلسي : ص ٧٧ .

[٢] المقّري، نفح الطيب : ٣/٤٢ .

[٣] المصدر نفسه : ٣/٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- خطبة عبدالله عم أبي عبد الرحمن بن الحكم، ٢٠٨هـ[١]:

"لمّا أظهر العصيان عبدالله عم أبي عبد الرحمن بن الحكم عَسكر بمرسية، وصلى الجمعة على أن يخرج يوم السبت، وقال في خطبته: "اللّهمّ إن كنتُ أحقّ بهذا الأمر من عبد الرحمن حفيد أخي فانصرني عليه، وإن كان هو أحقّ به مني وأنا صنو جده فانصره علي". فأمّنوا على دُعائه. ولم يستتم كلامه حتى ضربته الريح الباردة، فسقط مفلوجاً. فكمّل النّاس صلاتهم بغيره"[٢].

الملاحظ أنّ عبارات الخطبة قصيرة، ويبدو أنّها سلمت من خطبة أطول من ذلك ولكنّها مع ذلك تعلن عن جودة، ومتانة تتسم بها، وتنجم عن طبع وسليقة، وذكاء وفطنة، ولم تخلُ من عاطفة دينيّة، بل كانت ترتكز عليها، وتستغلها في إثارة الحميّة في النّفوس.

٥- خطبة الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم في معركة "وادي سليط" سنة ٢٤٠هـ :

جاءت خطبة الأمير محمد بن عبد الرحمن في إطار التعبئة النفسية[٣] للجند في المعركة، فقد وردت في "المقتبس" على النحو الآتي :

"في الوقيعة قال: ... ثم سقط النّصّ حتى قوله: وشعار نبيّه صلّى الله عليه وسلم، وليخش كل واحد منكم أن تُؤتى هذه العصابة من قبله اليوم، فيُمحى الدين من هذه الجزيرة"[٤].

وقد علّق ابن حيّان على هذه الخطبة بقوله: "فشحذ كلامه من نيّاتهم، ونهضوا عنه لشأنهم، فرفع محمد يديه إلى السّماء، وقال: اللّهمّ أيد دينك، وانصر وليك، وتمم وعدك، واخذل من عاندك وحادّك"[٥].

---

(٢) هو عبدالله بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، توفي في بلنسية ٢٠٨هـ. ابن سعيد، المغرب: ٤٧/١.

[٢] العبارة والنص في: ابن سعيد، المغرب : ٤٧/١ .

[٣] علي لغزبوي ، أدب السياسة والحرب في الأندلس : ص ٤١٧

[٤] ابن حيّان، المقتبس، تحقيق محمود مكي: ص ٢٩٦-٢٩٧ .

[٥] المصدر نفسه: ص ٢٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما يلاحظه الباحث في هذه الخطبة :

أن العبارات القليلة تظهر أنّها سلمت من نص لم يصل إلينا كاملاً[١]، لكنها تمثل أهم نقطة في موضوعها، وهو الدعوة إلى تحمل المسؤولية في دفع العدو "تجنباً للهزيمة التي تؤدي إلى محو الدين"[٢].

فقد كان عهد الأمير محمد من أكثر العصور شدّة وخطورة على الدولة الأمويّة في الأندلس، بل وعلى دولة الإسلام فيها بشكل عام، حتّى إنّ ابن حيّان وصف زمن حكمه فقال: "المشوب آخره بالتنكيد، المنصرم عن فرقة الجماعة، ونجوم النّفاق بكل جهة"[٣]. وقد ترتب على ذلك أن وجّه الأمير محمد عناية كبيرة نحو الاهتمام بأمور الدّولة الداخلية، والخارجية، وذلك من أجل الحفاظ عليها من الثائرين المتمّردين داخل الأندلس، وكذلك من الأعداء الذين يتربصّون بها، مستغلين ذلك الضعف الذي بدأ يدب في أركانها في الخارج.

يطلعنا ابن سعيد[٤] على أنّ طليطلة كانت بؤرة ثورات وفتن، حيث ثار أهلها على الأمير محمد في بداية عهده وتحديداً سنة ثمانٍ وثلاثين ومائتين، وأسروا عامله عليها حارث بن بُزيع[٥]، ورفضوا إطلاق سراحه حتّى أطلق سراح رهائنهم المعتقلة في قرطبة فأطلقوه، بعد أن خرّبوا قلعة رباح[٦]، فغادرها أهلها خوفاً من الثائرين في طليطلة، فما كان من الأمير محمد إلا أن أرسل إليهم- أهل قلعة رباح- أخاه الحكم، سنة تسع وثلاثين ومائتين في جند، فأصلح أسوارها، وأعاد أهلها إليها، لكنّ عصابة من الثائرين في طليطلة، التقت بجند الأمير في منطقة فحص أندوجر، مني إثرها جند الأمير بهزيمة نكراء، شجعت أهل طليطلة على مزيد من العصيان.

---

[١] جاء في المقتبس، تحقيق محمود مكي: "يظهر أنّ هذه الجمل انما هي بقية خطبة ألقاها الأمير محمد في عسكره قبيل المعركة لإثارة الحماسة في نفوسهم، حتى يستبصروا في قتال أعدائهم"، ص ٢٩٧ ، الحاشية رقم (١).

[٢] علي لغزيوي، أدب السياسة والحرب في الأندلس: ص ٤١٧ .

[٣] ابن حيّان، المقتبس، تحقيق محمود مكي: ص ١٠١ .

[٤] انظر : ابن عذاري، البيان المغرب : ٢/٩٥ .

[٥] حارث بن بزيع، من كبار قوّاد عبد الرحمن الأوسط بن الحكم، وقد تحدّث صاحب أخبار مجموعة عن أبيه وصلته بعبد الرحمن بن معاوية الدّاخل. أخبار مجموعة: ص ١٠٩ ، ابن الأثير، الكامل في التاريخ : ٤/٢٨٩ .

[٦] قلعة رباح: بالأندلس من أعمال جيان، وهي بين قرطبة وطليطلة. الحميري، الروض المعطار: ص ٤٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حرّك هذا التمرد الأمير محمد، فأراد تلقينهم درساً، خرج من أجله بنفسه على رأس قوّة كبيرة، وذلك في المحرم من سنة أربعين ومائتين. وقد قدّم ابن عذاري وصفاً لتفاصيل تلك الحملة على أهل طليطلة، حيث قال: "أرسلوا إلى أُردُنّ بن أذفونش يعلمونه بحركته، ويستمدّون به، فبعث إليهم أخاه غنون، في جمع عظيم من النصارى، فلمّا اتصل ذلك بالأمير محمد، وقد كان قارب طليطلة، أعمل الحيلة والكيد، واستشعر الحزم، فعبأ الجيوش، وكمن الكمائن بناحية وادي سليط، ثمّ نصب الرّدود وطلع في أوائل العسكر في قلة من العدد، فلمّا رأى ذلك أهل طليطلة، أعلموا العِلْج بما عاينوه من قلة المسلمين، فتحرك العلج فرحاً، وقد طمع في الظفر والغنيمة, وانتهاز الفرصة، فلمّا التقى الجمعان، خرجت الكمائن عن يمين وشمال، وتواترت الخيل أرسالاً على أرسال، حتّى غشي الأعداء منهم ظلل كالجبال فانهزم المشركون، وأهل طليطلة، هذّاً بالسيوف وطعناً بالرّماح، فقتل الله عامتهم، وأباد جماعتهم، وحِيز من رؤوسهم ممّا كان في المعركة وحواليها ثمانية آلاف رأس، وجمعت ورصّعت فصار منها جبل علاه المسلمون، يكبّرون ويهللون، ويحمدون ربّهم ويشكرون. وبعث الأمير محمد بأكثرها إلى قرطبة، وإلى سواحل البحر، وإلى العدوة، وانتهى عدد من فقد منهم في هذه الوقعة إلى عشرين ألفاً"[1].

وقد وافق مضمون الخطبة هدفها، وهو إثارة الحماسة في نفوس الجند، فكان لاستغلال الجانب الدّيني في نفوس الجنود نتائجه الإيجابيّة، ويكفي دليلاً على ذلك تعليق ابن حيّان، بقوله: "فشحذ كلامه من نياتهم، ونهضوا عنه لشأنهم"[2]. فقد عرف الأمير محمد كيف يدعوهم للقتال، ويرغّبهم فيه، وذلك بجعل كل منهم مسؤولاً عن حماية دينه، بل إنّه يذكّرهم بذلك، وبخطورة النتائج التي ستترتب على تقاعسهم، حيث يُمحى الدّين من الجزيرة. وقد تجلّت العاطفة الدينيّة في الخطبة حيث توجّه الأمير إلى الله – عز وجل– بالدعاء أن يأخذ بأيديهم، وينصرهم على أعدائهم، أعداء الدّين.

ونجد عند ابن عذاري مجموعة أبيات شعرية لعبّاس بن فرناس[3]، تصف وقعة وادي سليط، والنتيجة التي حققتها بفضل كلمات الأمير وقيادته جيشه :

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب : ٢/٩٤-٩٥ .

[2] ابن حيّان، المقتبس ، تحقيق محمود مكي: ص ٢٩٧ .

[3] عبّاس بن فرناس، أبو القاسم، عالم شاعر، وأديب مشهور، كان في أيّام الأمير محمد بن عبدالرحمن. الضّبّي. بغية الملتمس: ٢/٥٦١. والأبيات في ابن عذاري، البيان المغرب : ٢/١١١ - ١١٢ ، ووردت أبيات أخرى من القصيدة في المقتبس تحقيق محمود مكي: ص٢٩٨-٣٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومختلفِ الأصواتِ مُؤتلفِ الزِّحْـفِ ... لَهُومِ الفلا عَبْلِ القنـابلِ مُلْتَـفِّ
إذا أوْمضتْ فيه الصّوارمُ خِلْتَـهَـا ... بُرُوقاً تراءى في الجَـهام وتستخْـفـي
كأنّ ذوى[1] الأعلام في مَيلانـه[2] ... قَرَا قيرُ [في][3] يمٍّ عَجزْنَ عـن القَذْفِ
وإنْ طَحَنتْ أرحاؤُهَا كان قُطْبُـها ... حِجَى ملكٍ نَدْبٍ شمائلُـه عَـفّ
سَمِيّ خِتام الأنبيـاءِ محمـدٍ ... إذا وُصِفَ الأَملاكُ جَلّ عـن الوصـفِ
فـمِـنْ أَجْـلِه يومَ الثلاثاء غُـدْوةً ... وقد نَقَضَ الإصباحُ حَبْلَ-عُـرَى السَّجْفِ
بَكـى جَبَـلا وادي سـليط فأعوَلا ... على النّضَرِ العُبدانِ والعُصْبَـةِ الغُلْـفِ
دَعَـاهُـمْ صريخُ الحينِ فاجتمَعُوا لَهُ ... كما اجتمع الجُعْـلانُ للـبَعْـرفي "وَقْـفِ[4]
فـمـا كـان إلّا أنْ رَمَـاهُم ببعضها ... فَـولّـوا علـى أعقابِ مَهْزُولَـةِ كُشْـفِ
كـأنّ مَسَـاعـيـرَ المـوالي عَلَيْهِمُ ... شـواهـيـنُ جـاءت للغرانيـقِ بالنّسْـفِ
قَتَـلْـنـا لَـهُـم ألـفـاً والفاً وَمِثْلَهَا ... وألـفـاً وألـفـاً بَـعْـدَ ألـفٍ إلـى ألْـفِ
سِـوى مَـنْ طـواه النّهرُ في مُلْحبِّه ... فـأغـرق فـيـه أو تَـذَأْذَأَ مِـنْ جُـرْفِ

٦- خطبة أبي عبدالله بن أبي الخصال، المتوفّي سنة ٥٤٠هـ[5] :

ومن خطب الحض على الجهاد خطبة طويلة[6] لابن أبي الخصال جـاء فيـها: "الحمدُ لله الذي لا تُعدُّ سوابق نعمه، ولا تحدُّ علائق عصمه، ولا تردُّ بوائقُ نقمه؛ الـذي فضح البريّة عدلُه، ووسعتهم رحمتهُ وفضلهُ، قدّر أرزاقهم وأعمارهُم، وأحصى أنفاسهم وكتب آثارهم؛ ووكّل بهم ليلهم ونهارهم؛ فكل يتحرى مطالعه إلى أنْ يَبلُـغَ منتـهاها، ويتقرّى مضاجعه حتى يبيت بأقصاها. من رضي حَتْمَه فمن السعداء، ومن سَخِط حُكمه "فليمدُدْ بسَبَبٍ إلى السّماء"[7].

---

[1] في المقتبس : ذرى .

[2] المصدر نفسه : سيلانه .

[3] سقطت من المصدر نفسه.

[4] المصدر نفسه : القف .

[5] ترجمته في : ابن خاقان، قلائد العقيان: ٢/٥١٨-٥٢٠ ، الضّبّي، بغية الملتمس: ١/١٧٠-١٧١، السيوطي، بغية الوعاة: ١/٥٤، ابن الخطيب، الإحاطة: ٢/٣٨٨-٣٩٠، ٤١٦-٤١٨، المكناسيّ، جذوة الاقتباس : ١/٢٥٧-٢٥٨، ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: ١٩/٥٣-٥٤ ، المقريّ، نفح الطّيب: ٣/٢٦٨ .

[6] رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٢٢-٥٢٩ .

[7] سورة الحج/الآية ١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحمده حمد مؤمنٍ بلقائه، مؤمنٍ بدوامه وبقائه، ويعتقد كلَّ خلقٍ مملوكاً له، وهو المالكُ ويرى أنّ كلَّ شيءٍ -غير وجهه- هالك[١].

وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ كلمة لفظها أمانٌ، وعقدها عهدٌ بالجنة وضمان، وشهادةٌ يشهد بها لحم الجاحد ودمه، ويعرفها قرنه وقدمه، وإنّ أباه لسانه وفمه[٢]. كلمةٌ من أخطأها تاه وركب المهامة الأشباه. ومن قالها ألزم القصد، وأوردته حوضاً لم يظمأ بعده ولم يصد.

وأشهد أن محمداً نبيه ورسوله الصادع بأمره ونهيه، الناهض بأعباء رسالته ووحيه، الرادع لأهل الزيغ والجهالة، الجادع لأنف الكفر والضلالة اعتمد عروشهم فَتَلَّها[٣] وثَلَّها[٤]، وقصد جموعهم ففضها وفلّها، وأعطى المشرفيّة حقّها .. صلّى الله عليه وعلى آله الذين ألبسهم الفضل شهيراً، واختارهم له عَضُداً وظهيراً وأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً[٥]. وعلى أصحابه الذين ابتدروا دعوته سبقاً، وأخبروا عنه صدقاً، ووجدوا ما وعدهم حقّاً[٦] ومدّوا أطناب الإيمان غرباً وشرقاً. صلاةً تكون لرضاه عنهم ورضاهم عنه وفقاً[٧]، وتتقرّاهم حيث كانوا داراً داراً، وأفقاً أفقاً .

ومنها أيضاً : ".. سَلُوا ثغر الفجر إذا افترّ، وقرن الشّمسِ إذا ذرّ. أما سحب على القرون ذيوله وجرّ، وغاب على أممٍ قد خلت من قبلها أمم وَكَرّ؟! .."[٨]

ويلاحظ الباحث في هذه الخطبة، أنّها، تفيض بتصوير هوان الدّنيا وتذكير الإنسان بمصيره المحتوم، ويتابع الخطيب قوله استهاضاً للهمم وبعثاً للحمية في النّفوس، بأن لا يقبلوا الذلّ والهوان.

---

(١) من قوله تعالى: (.. كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ). سورة القصص/ ٨٨ .

(٢) اشارة واقتباس من الآية الكريمة: (حَتّىٰ إذا ما جَاءُوها شَهِدَ عَليهم سَمْعُهُمْ وأبصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بما كَانُوا يَعْمَلُون) سورة فصلت/٢٠

(٣) تله: قضى نحبه، ابن منظور، لسان العرب: ١/٣١٠ .

(٤) ثلة: أن يحفر أصل الحائط ثم يدفع فينقاض، وهو أهول الهدم، المصدر نفسه: ١/٣٤٥.

(٥) من الآية الكريمة: (إنّما يُريدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيتِ وَيُطهّرَكُمْ تَطْهِيراً) الأحزاب/٣٣ .

(٦) من الآية الكريمة : (وَنَادى أصحَابُ الجنّةِ أصْحَابَ النّار أنْ قَدْ وَجَدْنَا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقّاً)، الأعراف / ٤٤ .

(٧) إشارة إلى قوله تعالى: (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) ، سورة المائدة / ١١٩ .

(٨) رسائل ابن أبي الخصال (ترسّل الفقيه الكاتب) : ص ٥٢٢-٥٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧- خطبة لسان الدين بن الخطيب، المتوفّى سنة ٧٧٦هـ :[١]

ومن خطبة للسان الدّين بن الخطيب، حضّ فيها على الجهاد :

"أيّها النّاس، رحمكم الله تعالى، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دَهَمَ العدوُّ - قصمه الله تعالى- ساحتهم، ورام الكفر- خذله الله تعالى- استباحتهم، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم، ومدّ الصليب ذراعيه عليهم، وأيديكم بعزّة الله تعالى أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم الغريب فلا تحقروه، وسبيل الرّشد قد وضح فلتبصروه، الجهادَ الجهادَ فقد تعين، الجارَ الجارَ فقد قرّر الشرع حقّه وبيّن، الله الله في الإسلام، الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسّلام، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد، جددوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد، صلوا رحم الكلمة، وآسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة، كتاب الله بين أيديكم، وألسنة الآيات تناديكم، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم، والله سبحانه يقول فيها (يا أيُّها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم)[٢] ومما صح عنه قوله (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النّار)[٣] (لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم)[٤] (من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا)[٥] أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده:

---

[١] ترجمته في : تاريخ ابن خلدون : ٧/٦٨٩-٧١٠ ، ابن الخطيب، الإحاطة: ١/مقدمة المحقق، ٤/٤٣٨-٤٥٧، ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان: ص ٢٤٢-٢٩٢ ، المقرّي، أزهار الرّياض: ١/١٨٦-٣٢٠ وفي مواطن متفرقة من الأجزاء ٣، ٤ ، ونفح الطيب: ٧ أجزاء، وفي صفحات متفرقة.

[٢] سورة الصف/١٠ .

[٣] الحديث في صحيح البخاري: ٢/١٦ كتاب الجهاد والسير .

[٤] الجامع الصحيح (سنن الترمذي) : ٤/٨ كتاب الزهد.

[٥] صحيح مسلم: ٣/٣٨ كتاب الإمارة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَاذا "يَكُونُ جوابُكُمْ"[١] لِنبيّكُـــــمْ ... وطريقُ هذا الغدرِ غيرُ مُمَـهَّـدِ
إنْ قال: لِمْ فرّطتمُ في أُمتـــــي ... وتركتموهم للعدوّ المعتـــــدي؟
"تالله"[٢] لو أنّ العقوبة لم تُخَـــف ... لكفى الحَيَا من وجه ذاك السيِّدِ[٣]

اللّهمّ اعطف علينا قلوب العباد، اللهمّ بُثّ لنا الحميّة في البلاد، اللّهمّ دافع عـــن الحريم والضعيف والأولاد. اللّهمّ انصرنا على أعدائك، بأحبابك وأوليـــائك، يـــا خـــير الناصرين اللّهمّ أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً"[٤].

ويلاحظ أنّ الخطبة استمدت معانيها من القرآن الكريم والسّنة النبويّة الشـــريفة، وقد استطاع ابن الخطيب أن يفي بالغرض، ويصل الغاية من القول، وأن يلهب مشـاعر المسلمين، ولمن كان يقول: "أدركوا رمق الدّين قبل أن يفوت، وبادروا عليل الإســـلام قبل أن يموت" وهم كما يقول القرآن الكريم (تَحْسَبُهُمْ جَمِيْعَاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)[٥].

وتدعو الخطبة أيضاً إلى كثير من الأخلاق التي يجب على المســلمين التمســك بها، مثل رعاية الجار، وصلة الرحم، وعدم التولي يوم الزحف: "الجار الجار فقد قـــرر حقّه وبيّن، ... اللّهمّ أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين".

وبعد، فإنّ خطب الجهاد لها دور كبير في إثارة مشاعر الجنـــد[٦]، والواقـــع أنّ الباحث في خطب الجهاد في الأندلس، يقف موقف العجب من قلّة ما وصل إلينا. وقـــد

---

[١] تاريخ ابن خلدون: ماذا اعتذاركم غداً .

[٢] المصدر نفسه : لله

[٣] حين طمع ابن الأحمر بالاستيلاء على مالقة لكنها دخلت في إيالة السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، فتكدّر الجوّ بينهما ودارت بينهما مخاطبات شعرية في معنى العتاب على ألسنة كتابهما ومن ذلك قصيدة من نظم كاتب ابن الأحمر، أبي عمر بن المرابط ومنها الأبيات السّابقة، ومطلعها :

هَلْ مِنْ مُعِينٍ لِي الهوى أو مُنْجِدِي ... مِنْ مُتْهَمٍ فِي الأَرضِ أو مِنْ مُنْجِدِ ابن خلدون، العبر: ٤٠٨/٧-٤١٤

[٤] المقّريّ، نفح الطّيب : ٨/ ٣٠٠ .

[٥] سورة الحشر / ١٤ .

[٦] جاء في "مذكرات الأمير عبدالله" آخر ملوك بني زيري بغرناطة: ص ٤٤-٤٥ "إنّ ابن أبي عامر عندما همّ بالرّجوع عن لورقة (Lorca) يريد المريّة، تأخر عنه مجاهد، صاحب دانية، وتبيّن للمنصور قعوده عنه وخذلانه إياه؛ وسأله عن ذلك، فقال مجاهد مخاطباً له ولأعلام قوّاده: "يا قوم إن كنتم لا تعرفون البربر، ولا جربتم حروبهم، فأنا والله عليم بها : فإياكم أن يكون بواركم على أيديهم. وأنتم ستعلمون أن فتنة عشرين سنة خيرٌ من ملاقاة ساعة واحدة فإنّ فيها تتلف الدّول، وينتقل الملك ويستأصل الجمع، فعليكم بالتأني" = =

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حاولنا الوقوف سابقاً على أسباب تلك القلة- حيث لا يتناسب ذلك وعظم الفتوحات الإسلامية في الأندلس، وتتابع الحروب بين أهل الأندلس وجيرانهم الإسبان، ودورها في بث الحماس في نفوس الجند، وحثهم على الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق، ونشر الإسلام في شتى بقاع الأرض، وكلّ ذلك يستمد نجاحه من قدرة الخطيب على الإقناع وإثارة الأهواء والميول وجذب السامعين إلى رأيه بما يستخدم من تنوّع في الأساليب والتأثير، إلى جانب الفصاحة وسعة الثقافة، وسرعة البديهة، وحرارة العاطفة، وجودة الإلقاء، والحرص على الحقيقة فلا يتجافى عمله عن قوله ، كما فعل طارق بن زياد عندما دعا جيشه إلى الإقدام على القتال ولو كان فيه الموت، إذ جاء في خطبته: "وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكنة إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النّفوس، إلاّ وأنا أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً"[1].

فقائد الجيش صادق في نيته ذكيٌّ ، رؤوف برعيته، وعليه أن يتعرف أحوال عدوه، ويتسمع أخبارهم، وعليه أن يتعرف أحوال عسكره، فمتى توافرت آليات الإقناع هذه وغيرها، نجح الخطيب في هدفه، وهو إثارة مشاعر الجند.

وقد لاحظنا أنّ الخطب الجهادية في الأندلس أخذت تتسع في اتجاهات الحث على الجهاد باتساع ظروف الحياة المتجددة، فتنوعت الموضوعات وتعددت الأساليب المشبعة بالروح الإسلامية.

-- فقال له، ابن أبي عامر: "جبنت ! إرجع إلى دانية، ولا تفسد عليّ الجيش". ومن رسالة تبليغية ، تحمل في داخلها خطبة مؤثرة، يخاطب فيها بعض جنوده الذين فروا أثناء حملاته على النصارى الإسبان وقائدهم شانجه، قوله: "وكثيراً ما فرط من قولكم، وسبق من عزمكم، أنكم تجهلون قتال المعاقل والحصون، وتشتاقون ملاقاة الرجال على العجول، فحين جاءكم شانجه بالأمنية، وقاتلكم بالشرطية، وظهر لكم علة الطائفة النصرانية، أنكرتم ما عزمتم، ونفرتم ما ألفتم، حتى فررتم فرار اليعافير من آساد الغيل، وأجفلتم أجفال الرئال عن المقتنصين، فالحقتم العار بأنفسكم، بعد اختياري لكم، .. فلا نعمتي رعيتم، .. ، ولا غضب الله ورسوله اتقيتم.. ففيم و لم كان انحيازكم؟ أشكاً في وعد ربكم؟ أم خوراً في أصل طبعكم؟ أم عجزا عن دفع الأطفال وأخلاق الرجال ..." انظر: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس: ص ٨٣-٨٤ .

[1] ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣٢٢/٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - خطب الدّعوة إلى السلم

تكاد النماذج التي تمثّل الخطابة في موقف الدّعوة إلى السّلم تنحصر في الدّعـوة إلى السّلم بين الأطراف الإسلاميّة المتحاربة خلال الفتن والحروب الداخلية، ووجدنا من ذلك نموذجاً من الخطابة الأندلسية، يتصل بحملات الأمير عبدالرحمن بن الحكم علـى أهل ما رده[١] عقاباً لهم على تحرشاتهم وإيذائهم للمسلمين.

١- خطبة الأمير عبد الرحمن بن الحكم، المتوفّي سنة (٢٣٨هـ)[٢] :

جاء في "أخبار مجموعة" أنّ الأمير عبد الرحمن بن الحكم غزا أهل ماردة سبعة أعوام متتالية، فلمّا كان العام السّابع ضيّق عليهم الخناق، ولمّا رأى ضعف أهلها عـن الدّفاع، وسمع صراخ النساء وعويل الأطفال، أمر بالإمساك عنهم، ثـم جمـع وزراءه وقواده وألقى فيهم خطبة دعاهم فيها إلى رفع الحصار عن المدينة، ومما قال فيها :

" قد علمتم ما كان من تغلّب حشمنا ورجالنا على هؤلاء الظلمة لأنفسهم، ولـم يكن رفعنا ما رفعنا عنهم إلّا رقبة لله عزّ وجل فيهم، وتخوفاً من قتل ولدانهم وأطفالـهم ومن لا ذنب لهم ممن استكره على نفسه منهم، ونحن نرى استجلاب النصر من حيـث عوّدنا الله وعرّفنا من العفو والصفح، وقد عزمت على الانتقال عنهم، فإنْ أبصروا قـدر يدنا في الإبقاء عليهم، ومراقبة الله فيهم، وإلّا كان الله من ورائهم محيطاً، وعلى الانتقام منهم قديراً، فهو الذي أيدنا وقهرهم ونصرنا وكبتهم"[٣].

ويلاحظ في هذه الخطبة :

---

[١] ماردة: كورة واسعة من نواحي الأندلس، وهي إحدى القواعد التي تخيرها الملوك الأوائل للسكن متصلة بحوز قريش بين الغرب والجوف من أعمال قرطبة: الحميري، الروض المعطار: ص ٥١٨، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٥/٣٩ .

[٢] عبد الرحمن بن الحكم، الرابع من خلفاء بني أمية بالأندلس، بويع له يوم وفاة أبيه ٢٠٦هـ، وكانت خلافته إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام، توفي ٢٣٨هـ ترجمته في ابن سعيد، المغرب : ١/٤٥ -٥١، ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٨٠-٩٣، ابن الأبار، الحلة السيراء: ١/١١٣-١١٩، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٨/١٤٠، الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٨/٢٣١-٢٣٢، المقّريّ، نفح الطّيب: ١/٣٤٤-٣٥٠.

[٣] مؤلف مجهول، أخبار مجموعة : ص ١٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- بروز العاطفة الدينية، التي تحرك المسلمين في صراعهم ضد الخارجين عن الجماعة، فجاءت منسجمة مع هدفهم في حماية الدين وإعلاء كلمة الله.
- وقد اعتمد الخطيب في تدعيم أفكاره على المعاني الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: (فاعف عنهم واصفح إنّ الله يحبُّ المحسنين)[١]، وقوله تعالى: (والله من ورائهم محيط)[٢].
- وقدّمت الخطبة للخصوم درساً في العفو والصفح، فجاء صداها في نفوس أهل ماردة، حيث عبّروا عن استجابتهم لدعوة الأمير إلى السلم والصفح، وأتت رسلهم تعلن الطاعة والخضوع.

ويلاحظ من خلال هذا النموذج، أنّ الخطب الجهادية لم تكن مجرد تعبئة للقتال، بل نجد من يسعى إلى السلم، ويدعو إلى تجنب الفتن الدمويّة، والانقسام بين المسلمين، ويحثّ على الوحدة، فنجد الخطيب يستند إلى أساليب الإقناع والتأثير: إذ يستمد معانيه من القرآن الكريم والسنة النبوية في موقف العفو والصفح، ووسيلة لتهدئة القلوب الثائرة، ونبذ الانقسامات.

ولعل مخاطبة العلاء بن جابر العقيلي[٣] الصميل وزير الفهري ما يؤيد ذلك، فعندما نجحت الدعوة لعبد الرحمن الدّاخل في الأندلس، دخلها في سنة ١٣٨هـ في خلافة أبي جعفر المنصور العبّاسي، ووافق ذلك ما كان من العداوة بين العصبيتين اليمنية والمضرية، فآزرته اليمنيّة، وأقبلت عليه الوفود من شتى الأقاليم والمدائن تبايعه، وبذلك زاد عدد أنصاره، وراح يستولي على بلاد الأندلس مدينة تلو مدينة، وعلم والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهريّ بخبره، وكان غازياً بجلّيقيّة، فكرّ راجعاً بجيشه إلى قرطبة، وهناك التقى الجيشان، ودارت المعركة بينهما على مقربة من المصارة إحدى ضواحي قرطبة.[٤]

كانت الحروب التي دارت بين عبد الرحمن الداخل ويوسف الفهري، تثيرها النوازع السياسية، وقد حاول أصحاب النيات الحسنة تقديم النصيحة، والترغيب في

---

[١] المائدة / ١٣ .

[٢] البروج / ٢٠ .

[٣] العلاء بن حابر العقيلي، أحد وجوه قيس حاول الإصلاح بين عبدالرحمن الدّاخل ويوسف الفهريّ ووزيره الصميل، البيان المغرب: ٤٦/٢-٤٨ .

[٤] تفاصيل ذلك في : ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٦/٢-٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السلم فحين التقى الجيشان في يوم جمعة توجه العلاء بن جابر العقيلي أحد وجوه قيس إلى الصميل وزير الفهريّ ، وخاطبه :

"يا أبا جوشن : أتق الله، فوالله ما أشبه هذا اليوم إلّا بالمرج[1] وإنّ عاره لباقٍ علينا إلى اليوم، فإنّ الأمور يقتدى لها بالأقران والأمثال: أمويّ وفهريّ، وقيس واليمن، وهذا يوم عيد ويوم جمعة، ويوم المرج أيضاً يوم جمعة، والأمر والله علينا لا شكّ في ذلك، فاتق الله، واغتنم لنا الأمر لنكون فيه أعزّاء لا أتباعاً"[2].

ويلاحظ أنّ العلاء في خطابه استند إلى وسائل فنيّة متنوعة لتؤثر في مشاعر المخاطب، وترغيبه في أن يجنح إلى السّلم، فنرى خطابه يعتمد على التوكيد والقسم وتكرار الدّعوة إلى اتقاء الله في النفوس البريئة، والاتعاظ بما جرى يوم المرج والتحذير من النتائج.

---

[1] يقصد مرج راهط ، وهي موقعة كانت للأمويين على القيسيين بالمشرق،٦٤هـ . ومرج راهط: بغوطة دمشق من الشام. الحميري، الروض المعطار: ص ٥٣٦-٥٣٧ .

[2] ابن عذاري، البيان المغرب : ٤٧/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ - الخطب السياسية

يصدر هذا اللون من الخطب عن السلاطين والفقهاء والأدباء وغيرهم، ممن كان لهم اتصال بالأحداث والمناسبات التي أحاطت سياسة الأندلس الداخلية والخارجية، وقد انحصرت هذه الخطب في غرضين هما :

١- خطب البيعة.

٢- خطب الوفود.

أولا- خطب البيعة :

فقد جاءت على ألسنة الحكام والخلفاء، إذ يعلنون فيها سياستهم ونهجهم في معاملة رعاياهم، ولعلّ أبرز النماذج التي تمثل هذا الغرض من الخطب في الأندلس : خطبة عبدالرحمن بن الحكم، التي ألقاها في إخوته وأهله ووزرائه، عقب إعلان البيعة له، وبعد أن صلّى على أبيه الحكم، ويقول فيها :

"الحمد لله الذي جعل الموت حتماً من قضائه، وعزماً من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته؛ فاستأثر بالملكوت والبقاء، وأذلّ خلقه بالفناء، تبارك اسمه وتعالى جدّه، وصلّى الله على محمد نبيه ورسوله، وسلّم تسليماً. وكان مصابنا بالإمام -رحمه الله- مما جلت به المصيبة، وعظمت به الرّزيّة، فعند الله نحتسبه، وإيّاه نسأل إلهام الصّبر، وإليه نرغب في كمال الأجر والذّخر، وعهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم، ولسنا ممن يخالف عهده، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله"[1].

والخطبة بعد هذا، لم تخرج عن طبيعة المناسبة، إذ تبدو العاطفة حزينة هادئة، بسبب الجو النفسيّ للقائل، فالخطبة والخطيب مرتبطان بالموقف الذي لا يستلزم التطويل.

وانقسمت الخطبة إلى فكرتين: التّرحم على الفقيد وطلب الصبر وكمال الأجر، وذكر عهد الفقيد والسير على نهجه بما فيه صلاح النّاس.

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٩٠-٩١ ، ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ص ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا- خطب الوفود :

إنّ هذا النوع من الخطب السياسيّة، يكاد ينحصر في التهنئة بالخلافة أو طلب الحاجة، وهي خطب تقتضيها طبيعة مناسبات استقبال الوفود، حيث تظهر فيها الدولة المستقبلة في أعظم قوتها، مما يتيح الفرصة لكل خطيب وصف ذلك في خطبهم، ولعلّ أبرز ما يمثل هذا النوع من الخطب، تلك الخطبة الشهيرة التي قالها منذر بن سعيد البلوطي[١]، في حفل الاستقبال الذي أقامه عبد الرحمن الناصر لسفير أمبراطور القسطنطينية، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل ويعلوا من أمر الإسلام والخلافة، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه. وشرع الخطباء في القول فارتج عليهم، وكان أبو علي القالي مهيئاً لهذه المهمة، لكن أصابه العي، مما يدل على عظمة هذا اليوم، فقام منذر بن سعيد البلوطي من تلقاء نفسه، ووصل افتتاح أبي علي القالي بكلام عجيب، وهذا نصّ الخطبة :[٢]

"أمّا بعد [حمدالله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصّلاة والسّلام على محمد صفيّه وخاتم أنبيائه[٣] ، فإنّ لكلّ حادثة مقاماً، ولكلّ مقام مقالاً، وليس بعد الحقّ إلّا الضلال ، وإنّي [قد][٤] قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فأُصغوا إليّ يا معشر[الملأ][٥] بأسماعكم، وافقهوا عني بأفئدتكم، إنّ من الحقّ أن يقال للمحقّ صدقت،

---

[١] ترجمته في : الخشنيّ، قضاة قرطبة: ص ١٧٥، ابن الفرضيّ، تاريخ علماء الأندلس: ٢/٨٤٥-٨٤٧. الحميديّ، جذوة المقتبس: ٢/٥٥٠-٥٥١، ابن خاقان، مطمح الأنفس: ص ٢٤٧، الضّبّي، بغية الملتمس: ٢/٦٢٠-٦٢١ ، ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٦/٢٧١٣-٢٧٢٣، ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨/٦٧٤-٦٧٥، النباهي، المرقبة العليا: ص ٦٩-٧٣، الفيروز أبادي، البلغة: ص ٢٢٦، الذهبيّ، سير أعلام النبلاء: ١٦/١٧٣-١٧٤، المقّريّ ، أزهار الرياض: ٢/٢٧٢-٢٨٠، ونفح الطّيب: ١/٣٧٢-٣٧٥، ابن خلدون العبر: ٤/٣١١-٣١٢ .

[٢] نصّ الخطبة في : ابن خاقان، مطمح الأنفس: ص٢٤٠-٢٤٤، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس: ص ٦٦-٧٠، ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: ٦/٢٧١٧-٢٧٢٠، المقّري، أزهار الرياض: ٢/٢٧٣-٢٧٦، نفح الطّيب: ١/٣٦٩-٣٧٤ .

[٣] سقطت من مطمح الأنفس.

[٤] سقطت من مطمح الأنفس وأزهار الرياض.

[٥] مطمح الأنفس: "فأصغوا إليّ بأفئدتكم معاشر الملأ".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللمبطل كذبت، وإنّ الجليل تعالى في سمائه، وتقدّس بصفاته وأسمائه، أمر كليمه موسى، صلّى الله على نبيّنا وعليه وعلى جميع "أنبيائه"[١] ، أن يذكّر قوله "بأيام"[٢] الله، [جلّ وعزّ][٣] عندهم، [وفيه وفي رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، أسوة حسنة][٤]، "وإنّي أذكّركم بأيام الله عندكم"[٥]، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي [لمّت شعثكم][٦]، [وأمّنت سِرْبَكم، ورفعت "فَرَقَكم"[٧]][٨]، "بعد أن كنتم قليلاً فكثّركم"[٩]، ومستضعفين فقوّاكم، ومستذلّين فنصركم، ولّاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سُرادِقها على الآفاق، وأحاطت بكم "شُعَلُ"[١٠] النّفاق، حتّى صرتم في مثل حَدَقَة البعير، "من ضيق الحال"[١١]، ونكد العيش "والتّغيير"[١٢]، فاستبدلتم بخلافته من الشّدّة "بالرّخاء"[١٣]، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد [كنف][١٤] العافية بعد استيطان البلاء، "أنشدكم"[١٥] الله معاشر الملأ ألم تكن الدّماء مسفوكة "فحقَنَها"[١٦]، [والسبل مَخُوفة فأمّنها][١٧]، والأموال مُنْتَهبة فأحرزها وحصّنها؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمّرها، وثغور

---

[١] مطمح الأنفس : الأنبياء والمرسلين.

[٢] مطمح الأنفس : بنعم .

[٣] سقطت من المرقبة العليا.

[٤] سقطت من مطمح الأنفس.

[٥] مطمح الأنفس: "وأنا أذكركم بنعم الله تعالى عليكم".

[٦] سقطت من مطمح الأنفس.

[٧] مطمح الأنفس: خوفكم، وفي أزهار الرياض: قونكم.

[٨] سقطت من المرقبة العليا.

[٩] مطمح الأنفس: "وكنتم قليلاً فكثركم".

[١٠] المصدر نفسه : تشعل.

[١١] نفسه : مع ضيف الحال، وفي المرقبة العليا: بضيق الحال.

[١٢] المرقبة العليا: والتقتير، وكذلك في أزهار الرياض، وسقطت من معجم الأدباء.

[١٣] الباء في "بالرخاء" سقطت من أزهار الرياض.

[١٤] سقطت من المرقبة العليا.

[١٥] مطمح الأنفس : ناشدتكم .

[١٦] المرقبة العليا: "فحنقها" ، ومطمح الأنفس : " فأمنها" .

[١٧] سقطت من مطمح الأنفس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المسلمين مهتضمة فحماها "ونصرها"[١]؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، "وتلافيه"[٢]، جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله [عنكم][٣] غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يداً على عدوكم، [بعد أن كان بأسكم بينكم، "ناشدتكم"[٤] الله ألم تكن خلافته "قفل"[٥] الفتنة بعد انطلاقها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد، حتّى باشره، [بالقوة][٦] والمُهجة والأولاد، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدَّعَة وهي محبوبة ، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة[٧]، بطوية "صحيحة"[٨]، [وعزيمة صريحة][٩]، وبصيرة ثابتة [نافذة ثاقبة][١٠]، [وريح هابّةٍ غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجدّ ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل مشهور، متحملاً للنصَب، "مستغلاً لما ناله"[١١] في جانب الله من التعب، حتّى لانت الأحوال بعد شدّتها، وانكسرت شوكة الفتنة "عند"[١٢] حدّتها، ولم يبق لها غارب إلّا جَبّه، ولا "نجم"[١٣] لأهلها قرن إلّا جذّه، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبلمّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً[١٤]]، (حتّى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب "الخيرات"[١٥] والبركات)[١٦]، وصارت وفود الروم وافدة "عليه"[١٧] وعليكم، وآمال الأقصَيْنَ والأدنَيْنَ "مستخدمة إليه[١٨] و"إليكم،

---

[١] المرقبة العليا : وزهرها .

[٢] المرقبة العليا : وتأليفه .

[٣] سقطت من المرقبة العليا .

[٤] أزهار الرياض ومعجم الأدباء: فأنشدكم .

[٥] المرقبة العليا : قيد .

[٦] سقطت من المرقبة العليا .

[٧] سقط هذا الجزء من مطمح الأنفس.

[٨] مطمح الأنفس : خالصة .

[٩] سقطت من مطمح الأنفس .

[١٠] سقطت من مطمح الأنفس .

[١١] المرقبة العليا : مستقبلاً لما نابه .

[١٢] معجم الأدباء : بعد .

[١٣] نفسه : ظهر .

[١٤] سقط هذا الجزء من مطمح الأنفس .

[١٥] سقطت من المرقبة العليا.

[١٦] مطمح الأنفس : "فقد فتح الله عليكم أبواب البركات وتواترت عليكم أسباب الفتوحات" .

[١٧] سقطت من مطمح الأنفس .

[١٨] سقطت من مطمح الأنفس ، وفي معجم الأدباء : مستحرمة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يأتون من كلّ فجٍّ عميق، وبلدٍ سحيق، لأخذ حبل "بينه وبينكم"[١]، [جملة وتفصيلاً][٢]، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة [بادية][٣]، تدل على أمور باطنة [خافية][٤]، دليلُها قائم، "وجفنها غير نائم"[٥] (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)[٦] وليس في تصديق ما وعد الله[٧] ارتياب، ولكلّ نبأ مستقر، ولكلّ أجل كتاب، فاحمدوا الله أيّها الناس على آلائه، "واسألوه"[٨] المزيد من نَعْمائه ، فقد أصبحتم "بيُمن"[٩] خلافة أمير المؤمنين أيّده الله "بالعِصْمَة"[١٠] والسّداد، وأُلهمه [بخالص][١١] التوفيق "إلى"[١٢] سبيل الرّشاد، أحسن النّاس حالاً، وأنعمهم بالاً، وأعزّهم قراراً، وأمنعهم دارا، وأكثفهم جمعاً، "وأجلهم"[١٣] صنعاً، لا تهاجون ولا "تذادون"[١٤]، وأنتم بحمدالله على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم "بالمناصحة"[١٥]، لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم [وابن عمّ نبيّكم، صلّى الله عليه وسلّم][١٦]، فإنّ من نزع (يداً)[١٧] من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدّنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، [وقد علمتم أنّ في التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها، حفظ الأموال وحَقْن الدّماء، وصلاح الخاصّة والدّهماء، وأنّ "بقوام"[١٨] الطاعة تقام الحدود، وتُوفى العهود، وبها وُصلت الأرحام، "ووضحت"[١٩] الأحكام، وبها سدّ الله

---

(١) المرقبة العليا : منه ومنكم، ومعجم الأدباء : للأخذ بحبل بينكم وبينه ".

(٢) سقطت من مطمح الأنفس.

(٣) سقطت من المصدر نفسه .

(٤) سقطت من المصدر نفسه .

(٥) المرقبة العليا : وغيبها عاتم .

(٦) سورة النور/ ٥٥ . وفي مطمح الأنفس وردت تكملة الآية "وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً"

(٧) زاد في مطمح الأنفس : عز وجل .

(٨) المصدر نفسه : وسلوه ، والمرقبة العليا : واسألوا .

(٩) أزهار الرياض : في يمن، المرقبة العليا ومعجم الأدباء: بين .

(١٠) المرقبة العليا : بالعظمة .

(١١) سقطت من معجم الأدباء .

(١٢) سقطت من مطمح الأنفس .

(١٣) المرقبة العليا : وأجلهم .

(١٤) المرقبة العليا : تواذون، وفي مطمح الأنفس : تذارون .

(١٥) المرقبة العليا : بالنصيحة .

(١٦) هذا الجزء سقط من المرقبة العليا .

(١٧) مطمح الأنفس : يد ه.

(١٨) معجم الأدباء : بقيام .

(١٩) المرقبة العليا : صحت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخلل، وأمّن السُّبُل، ووطّأ الأكناف، ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم القرار، واطمأنت بكم الدّار، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنّه تبارك وتعالى يقول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم[١])[٢]، وقد علمتم[٣] ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين، وصنوف الملحدين، السّاعين في شقّ عصاكم، وتفريق "ملاكم"[٤] ، [الآخذين في مخاذلة دينكم][٥]، وهتك "حريمكم"[٦]، وتوهين دعوة نبيّكم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين ، أقول [قولي] [٧] هذا "وأختم بالحمد"[٨] لله ربّ العالمين [مستغفراً الله الغفور الرّحيم فهو خير الغافرين].[٩]

ثم أنهى خطبته بأبيات من الشعر[١٠] :

مَقالٌ كحدِّ السَّيْفِ وَسْطَ المَحافِلِ ... فَرَقْتُ به ما بين حَقٍّ وباطلِ

بقلبٍ ذكيّ تَرْتَمي جَنَباتُهُ ... كبارق رَعْدٍ عِنْدَ رَعْشِ الأَنامِلِ

[فما دَحَضَتْ رِجْلي ولا زلّ مِقْولي ... ولا طاش عَقْلي يَوْمَ تلك الزَّلازِلِ][١١]

[وقد حَدَّقَتْ "حَوْلي"[١٢] عيونٌ إخالها ... كَمِثْلِ سهامٍ أُثْبِتَتْ في المَقاتِلِ][١٣]

"لخيرٍ"[١٤] إمامٍ كان أو هو كائنٌ ... لمقتبلٍ أو في العصور الأوائلِ

تَرَى النّاسَ أفواجاً يؤمّون "بَابَهُ"[١٥] ... وَكُلُّهُمُ ما بين "راجٍ"[١٦] وآملِ

وُفُودُ مُلُوكِ الرّومِ وَسْطَ فِنائِهِ ... مَخافةَ بأسٍ أو رجاءَ لنائلِ

---

[١] النساء / ٥٩ .

[٢] سقط هذا الجزء من مطمح الأنفس .

[٣] زاد في المرقبة العليا : معشر المسلمين .

[٤] المرقبة العليا : ملتكم .

[٥] سقطت هذه العبارة من مطمح الأنفس .

[٦] مطمح الأنفس : حرمتكم .

[٧] سقطت من مطمح الأنفس .

[٨] مطمح الأنفس : والحمدلله، المرقبة العليا : وأختمه بالحمد لله .

[٩] هذه العبارة سقطت من مطمح الأنفس، وجاءت في المرقبة العليا: "وأستغفر الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين" وفي أزهار الرياض: "وأستغفر الله الغفور الرحيم فإنّه خير الغافرين" .

[١٠] وردت الأبيات دون نصّ الخطبة في طبقات النّحويين واللّغويين : ص ٢٩٦ .

[١١] هذا البيت سقط من طبقات النّحويين واللّغويين.

[١٢] مطمح الأنفس : نحوي .

[١٣] سقط هذا البيت من طبقات النّحويين واللّغويين .

[١٤] مطمح الأنفس : بخير .

[١٥] المصدر نفسه : داره، وفي طبقات النّحويين واللّغويين : فضله .

[١٦] مطمح لأنفس : راضٍ، وكذلك طبقات النّحويين واللّغويين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَعِشْ سَالِماً أَقْصَى حَيَاةٍ "مُؤَمَّلاً"[١] فَأَنْتَ غِيَاثُ كُلِّ حافٍ وَنَاعِلِ

[سَتَمْلِكُها مَا بَيْنَ شَرْق وَمَغْرِب إِلى "دَرْب"[٢] قسطنطين أو "أرض"[٣] بابلِ][٤]

تُعدّ هذه الخطبة أشهر ما وصل إلينا في مصادر عدة، في تمثيل خطابة الوفود، ويلاحظ عليها :

العناية بالبدء حيث بدأ الخطيب بالحمد والثناء على الله وشكر نعمه، والصلاة على نبيه، ثم انتقل إلى الموضوع، فعظّم هذا اليوم وربطه بعظمة خلافة أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر، مقارناً بين الأوضاع قبله وما عرفت به من اضطرابات، والأوضاع في عهده وما ساد من رخاء وسلام وتعمير، وهو إنما يقرر حقيقة عاصرها، معتمداً الأسلوب الإخباري مرة، والتقريري مرة أخرى، للتأكيد وتقوية المعنى، ولا سيّما في حديثه عن مآثر الخليفة على الصعيد الداخلي والخارجي، مؤكدا على السياسة العسكرية الخارجية، رابطاً ذلك بالموضوع الرئيسيّ لهذه الخطبة، الذي يدور حول استقبال وفد الروم.

ثم يدعو القوم إلى حمد الله وسؤاله المزيد من النعم في ظل خلافة عبد الرحمن الناصر، داعياً إلى ضرورة الطاعة للخلافة، مستنداً في ذلك إلى النصوص المستمدة من القرآن الكريم، وهي من الدعائم التي تقوم عليها الخطابة.

ويختم منذر بن سعيد البلّوطي خطبته بحمد الله واستغفاره فأسلوب الخطبة، إذن يقف بنا أمام عالم جليل فطن، استطاع من خلال هذه الخطبة "أن يلتزم بما تتصف به الخطب السياسية في العادة من رسميّة والتزام بالتقاليد التي يجب التقيد بها في مثل تلك الخطب، من حيث تنوع أساليبها من شدّة إلى لين، ومن إخبار إلى استفهام، ومن حيث

---

[١] مطمح الأنفس: معمر، وكذلك في طبقات النحويين واللغويين .

[٢] طبقات النحويين واللغويين: أرض.

[٣] المصدر نفسه : درب .

[٤] سقط هذا البيت من مطمح الأنفس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حرصها على الاجتذاب بما تحمله من صور، وما تستلزمه من استشهاد بالآيات القرآنيّة"[١].

والخطبة بعد ذلك تصف مجالس الخليفة الناصر الحافلة بمن يرجون رضاه وعطاياه، وبمن بات عليهم تقديم فروض الطاعة والولاء له من أعدائه هيبة منه، وإجلالاً لعظمته وقوته. ويشير المقّريّ في "نفح الطّيب" ومن قبله الحميديّ في "جذوة المقتبس" "إلى أنّ البلوطي كان قد أنشد لنفسه في آخر خطبته أبياتاً ثلاثة"[٢] ، ويرى المقري أنّ أبا الحكم كأنّه عرّض من خلالها بأبي علي القالي، واحتج بشكل مبطن على عدم تقديمهم إياه في ذلك المقام[٣] ، وتلك الأبيات هي قوله :

هذا المقام[٤] الّذي ما عابه فَنَدٌ ... لكنّ قائله[٥] أزْرَى به البلدُ

لو كُنْتُ فِيْهم غَريباً كنت مُطّرَفاً ... لكنّني مِنْهمُ فاغتالني النّكدُ

لولا الخِلَافةُ أبقى اللهُ حُرْمَتَها[٦] ... ما كنتُ أرضى[٧] بأرضٍ ما بها أَحَدُ

ويبدو أنّ الخيبة التي مُني بها أبو علي القالي، حين أصابه الحصر وامتنع عليه الكلام من الأمور التي منحت الخطبة شهرة وصيتاً.

---

(١) أحمد الحوفي، فن الخطابة : ص ٧٠-٧١ .

(٢) الحميدي، جذوة المقتبس : ٥٥٦/٢ ، المقّريّ، نفح الطّيب : ٣٧٤/١ .

(٣) انظر المقّري، نفح الطّيب : ٣٧٤/١ .

(٤) الجذوة : المقال .

(٥) المصدر نفسه : صاحبه .

(٦) المصدر نفسه : محنتها .

(٧) المصدر نفسه : أبقى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتظهر الخطبة اهتمام عبد الرحمن النّاصر، بعقد المجالس الرسميّة التي تكشف عن الفخامة والأبّهة، واهتمامه بهذا النوع من النثر الذي يلقى في المناسبات الرسميّة، لإظهار هيبة السلطان أمام الحاشية، وأمام الوفد.

ولم تقف الخطابة السياسيّة عند هذا الحد، إذ اتخذ بعض الأندلسيين من الخطابة وسيلة للمدح السياسيّ، ومن أبرز نماذج هذا النوع خطبة لأبي العبّاس أحمد بن أضحى الهمْداني[١] القاها بين يدي عبد الرحمن الناصر بعد قدومه من موطنه من قريسة همدان بفحص غرناطة، وقد استهلها بحمدالله والصلاة على نبيه[٢]، فقال :

"الحَمْدلله "المُحْتجب"[٣] بنُور عَظَمَتِه، عن أبصار بريّته، والدّال "بحدوث"[٤] خلقه على "أوّليّته"[٥] والمنفرد بما أتقن من عجائب دهره، [(وسنن)[٦] صمديته][٧]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، إقراراً "بربوبيّته"[٨]، وخضوعاً "لعزّه وعظمته"[٩]. وأشهد أنّ محمداً عَبْده "الأُمّيّ"[١٠] ورسوله "المكّيّ"[١١] انتخبه من "أكْرَمِ الأرومات"[١٢] ، واصطفاه من أطيب البيُوتات[١٣]، حتّى قبضه الله "إليه"[١٤]، واختار له ما لديه. [وقد قبل سعيه، وأدّى أمانته][١٥]، [فصلّى الله عليه وسلّم تسليماً][١٦]. ثم إنّ الله [تبارك وتعالى لمّا "ابتعثه"[١٧] من أكرم خلقه، "وكرمه"[١٨] برسالته وأنزل عليه محكم تنزيله، واختار له من

---

[١] ترجمته في : ابن حيان القرطبي، المقتبس، تحقيق شالميتا : ٥/١٧٤-١٧٧ ، ابن الأبار، الحلة السيراء: ١/٢٢٨-٢٢٩ ، ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة : ١/١٥٠-١٥٣ .

[٢] نص الخطبة في : ابن حيّان، المقتبس، تحقيق شالميتا : ٥/١٧٤-١٧٥ ، ابن الأبار، الحلة السيراء: ١/٢٢٨-٢٢٩، ابن الخطيب، الإحاطة: ١/١٥٠-١٥٣ .

[٣] المقتبس : الذي احتجب .

[٤] المصدر نفسه : بأحدث .

[٥] نفسه : أزليته .

[٦] الإحاطة : منن

[٧] سقطت من المقتبس ، وجاء مكانها : "وشرع من سنن رسله" .

[٨] الإحاطة : بوحدانيته، وفي المقتبس : لالهيته .

[٩] المقتبس : وخضوعاً لربوبيته .

[١٠] سقطت من الإحاطة .

[١١] سقطت من المصدر نفسه .

[١٢] المصدر نفسه : أطيب البيوتات .

[١٣] زاد في المقتبس : وحباه بأبهر الآيات .

[١٤] سقطت من المصدر نفسه .

[١٥] سقطت من المصدر نفسه .

[١٦] سقطت من المصدر نفسه ، وجاء مكانها: "فصلوات الله وملائكته عليه وسلّم تسليماً" .

[١٧] الاحاطة : بعثه .

[١٨] المصدر نفسه : وأكرمه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أصحابه وأشياعه "فمن بعدهم"[١] "خلفاء"[٢]، جعل منهم أَئِمّة يَهْدُون بالحقّ، وبه يَعْدِلُون][٣]، فجعل الله الأمير[٤]، "أعزّه الله"[٥]، وارث ما خلّفوه من "معالمهم"[٦]، وباني ما أسّسوه "من مشاهدهم"[٧]، [٨] حتّى أمّن "السالك"[٩]، وسكن[١٠] الخائف[١١]، رَحْمَةً من الله[١٢]، ألبسه كرامتها، وطوّقه [مجد][١٣] فضيلتها، والله يُؤتي "مُلْكه"[١٤] مَنْ يَشاء، والله ذو الفضل العظيم :

اللهُ أَعْطَاكَ الّتي لا فَوْقَهَا ... وَلَقَدْ أَرَادَ المُلْحِدُونَ عَوْقَهَا
عَنْكَ وَيَأْبَى اللهُ إلّا سَوْقَهَا ... إِلَيْكَ حَتّى قَلّدُوكَ طَوْقَهَا[١٥]

ثم "إنّي"[١٦] عبد الأمير "أبقاه"[١٧] الله الناشيء، في [غدي][١٨] نِعْمته "المنهوك"[١٩]

---

[١] سقطت من الإحاطة.
[٢] المصدر نفسه : مخلفاً .
[٣] سقط هذا الجزء من المقتبس .
[٤] المصدر نفسه زاد : الأمير "سيدنا" .
[٥] سقطت من المصدر نفسه .
[٦] الإحاطة : من معاليهم .
[٧] سقطت من المقتبس .
[٨] زاد في المقتبس : "وواعي ما حفظوه" .
[٩] المصدر نفسه : "حتى أمّن به المالك، وأمّن به المسالك" .
[١٠] المصدر نفسه : وسكن اليه الخائف .
[١١] المصدر نفسه ، زاد : وكب الجامح .
[١٢] المصدر نفسه ، زاد : العباده .
[١٣] سقطت من الإحاطة .
[١٤] المقتبس : فضله .
[١٥] سقطت من الحلة السيراء، والإحاطة .
[١٦] المقتبس : أتى .
[١٧] المصدر نفسه : أيده .
[١٨] سقطت من المصدر نفسه .
[١٩] المقتبس : المخلع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في محبته "قادت بي همة"[١] أخذت بضبعي [طرفي إليّ من الاعتراف "بالعجز"[٢] عن مبلغ كُنْه بلاغة المتنطّع عن أسلاف مجده، ثم أردفَ قوله بأبيات من الشعر، ومنها :

[وما عَسَى قَائِلٌ يُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا ... أَثْنَاه في الوَحْيِ تَقْديس وَتَطهير

فتّ البرية إلّا أن ألسنها ... مُسْتَنطقات بما تَخفي الضّمَائِر][٣]

"وقلت فيك أيّها الأمير مقالاً شرفته بفضلك وانهيته بكرم مجدك وهو:"[٤]

أيا مَلكاً "تُزْهى"[٥] به قُضُبُ الهند ... إذا لمعتْ "بين"[٦] المغافرِ والـزَّرْدِ[٧]

وَمَنْ بَأْسُهُ فِي مَنْهَلِ الـمَوْتِ وَارِدٌ ... إذا أَنْفُسُ الأَبْطَالِ "كَفَّتْ"[٨] عَنِ الوِرْدِ

وَمَنْ أَلْبَسَ اللهُ الخِلَافَةَ نِعْمَةً ... بِهِ "فَأَتَتْ النِّعْمَى"[٩] فَتَجَلّتْ عَنِ "الحسدِ"[١٠]

كفاني لديه أنْ جَعَلْتُ "وَسِيلَتِي"[١١] ... "ذِمَام هَشَاميّ"[١٢] الهوى "خالص"[١٣] الـودّ

يُؤَكِّدُ ما يُدْلي به مِنْ "مَتَانَةٍ"[١٤] ... "لباس"[١٥] أَبِيهِ "عَبْدَكَ"[١٦] الفارس "النّجْدِ"[١٧]

---

[١] المقتبس، تحقيق شاليتا : "فأدت بي سمة" .

[٢] المصدر نفسه : ما يعجز .

[٣] سقط من المقتبس، وجاء مكانه: "ورفعت ناكس طرفي وأحاطني ما يعجز عن بلوغ مدى صفته التي تحسر بلاغة المتنظم في أساليب بجدة، ماذا عسى قائل أن يثني عليك، وقد نالك في الوحي تقديس وتطهير" والبيتان سقطا من الحلة السيراء والإحاطة.

[٤] وردت في المقتبس: "وقد قلت فيك أيّها الأمير مقالا شرفته بذكرك، وأزهيته بسناء مجدك، فأنعم باستماعه بكرمك"

[٥] الحلة السيراء، والاطالة: ترمى.

[٦] الحلة السيراء والإحاطة: فوق.

[٧] الحلة السيراء والمقتبس: السرد، والإحاطة: الصرد.

[٨] المقتبس: كعت، والإحاطة: كلت.

[٩] المقتبس: فأتت نعمى، والإحاطة: فاقت النعمى.

[١٠] المقتبس: العد.

[١١] الحلة السيراء: وسايلي، وكذلك الإحاطة.

[١٢] المقتبس: ذماما شآمي، وكذلك الإحاطة.

[١٣] المقتبس والإحاطة: مخلص.

[١٤] المقتبس: شهامة، الإحاطة: مثابة.

[١٥] المقتبس: بيأس، الإحاطة: خلوص.

[١٦] الإحاطة: عبد.

[١٧] المصدر نفسه: الجند.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَـأَنْـعِمْ عَلَيهِ [فيِ][1] يا خَيْرَ مُنْعِمٍ بإظهار "تَشْريفِي"[2] "وَعَقْدٍ عِـنْـدي"[3]

وَلا تُشْمِتِ الأعداءَ أنْ جِئْتُ قاصِداً إلى مَلِكِ الدُّنيا فأُحْرَمُ مِنْ قصـــــدي

فَعِندَ الإمامِ المرْتَضَى كُلُّ نِـعْمَـةٍ "وَشُكْري لما"[4] "يُولِيهِ"[5] مِنْ نِعْمَةٍ عِنْدِي

ومما يلاحظ أنّ الخطيب أخذ يمهّد لموضوعه الرئيسيّ بالحديث عن وراثة عبـــد الرحمن الثالث وإبراز مزايا عهده، وما ساد فيه من أمن، ويعلن الطاعة ويعترف بفضـل عبد الرحمن ونعمته عليه، ويمدحه مدحاً مبالغاً فيه إلى درجة تفضيله على سائر الناس.

والخطبة وإن تطرّقت إلى أفكار سياسية، فإنّ قائلها يهتم بإبراز موقفه الشـخصي من الأمير، وإعلان الطاعة له، ورغبته في التكسب من خلال خطبته وهذا مـا تظـهره الأبيات صراحة، ويلاحظ ترصيع الخطبة بأبيات شعرية، والالـتزام بالسـجع، وقـدوم الخطيب من موطنه همدان ليلقي خطبته بين يدي عبد الرحمن النّاصر مما يعني التـهيؤ المسبق للخطبة.

فقد ذكر ابن عذاري المراكشيّ في حديثه عن جملة الثوار ببلاد الأندلس في أيـام الأمير عبدالله، الخارجين عن الجماعة، المضرمين لنار الفتنة، ذكر أنّ أول أولئك الثوّار

---

[1] سقطت من الإحاطة، وجاء مكانها: اليوم.

[2] الإحاطة: تشريف.

[3] المقتبس: وعقد على جند.

[4] المصدر نفسه: وشكر الذي والإحاطة: وشكراً لما.

[5] الإحاطة: يلحيه * لم ترد في الحلة السيراء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان عمر بن حفصون[١]، الذي لجأ إلى الحيلة والمكر حتّى قبض على سعيد بن جودي[٢] الذي عارضه بالحَرْب والحَرَب، وكان ذلك سنة ست وسبعين ومائتين، وقد أقام ابن جودي شهوراً مكبلاً عند ابن حفصون في ببشتر[٣]، حتّى قبل فيه ابن حفصون مالاً جزلاً، وفكّ وثاقه ليعود فيمكر به ويقتله، أمّا خطيبنا، فيذكر المراكشيّ أنّ محمد بن أضحى ("تولّى أمر العرب بجانب "إلبيرة"[٤])[٥]، فأمسى على طاعة الأمير عبدالله وأضحى، فناصب ابن حفصون الحرب، وعارضه بالطّعن والضّرب، إلى أن ظفر به ابن حفصون في تلك المسالك وصار عنده أُسيراً هناك، ففداه العرب بمال جسيم. ومشى عن طاعة الأمير على منهاج قويم"[٦].

أمّا ابن خلدون، فيذكر أنّ أحمد بن أضحى الثائر بحصن "الجامة"[٧]، أطاع الناصر لدين الله، ورهن ابنه على الطاعة.[٨]

وبعد، فإنّ اختلاف الروايات، يجعلنا أمام عدة احتمالات، منها أنّ ابن أضحى ومعه ابنه، كانا من الثوار في حصن الجامة فرجعا عن ذلك، وجاءا تائبين إلى النّاصر لدين الله، ومنها أنه كان لهما دور فاعل في محاربة فتنة وثورة من ثورات ابن حفصون، ولا سيّما أنّ الهمْداني كان قد ولي أمر العرب في إلبيرة أيام الأمير عبد الله حتى أنّ العرب فدوه بمال جسيم ، ليسير على طاعة الأمير عبد الله.

---

[١] ابن حفصون ، هو : عمر بن حفص بن عمر كان من كبار الثائرين بالأندلس بأعمال رية قبل سنة ٢٧٥هـ. وكان جلداً شجاعاً أتعب السلاطين و لم يستطيعوا القضاء عليه إلى أن توفّي سنة ٣٠٥هـ . ترجمته في : الحميدي، جذوة المقتبس : ٣٥٦/١، الضّبّي، بغية الملتمس : ٣٩٣/٢ ، ابن عذاري، البيان المغرب : ١١٤/٢-١١٨ .

[٢] سعيد بن جودي، هو : سعيد بن سليمان بن جودي السعديّ، من هوازن كان شجاعاً بطلاً، فارساً مجرباً، قد تصرف مع فروسيته في فنون من العلم وتحقق من ضروب الأدب، خطيباً، واتصل قيامه بأمر العرب إلى أن قتل ٢٨٤ هـ ، ترجمته في ابن الأبار، الحلّة السيراء: ١٥٤/١-١٦٠، ابن الخطيب، الإحاطة: ٢٧٥/٤.

[٣] ببشتر بالأندلس حصن منيع بينه وبين قرطبة ثمانون ميلا، وكان قاعدة العجم، كثير الديارات والكنائس، وله قرى كثيرة، وما حوله كثير المياه والأشجار، وقد أتت فتنة ابن حفصون على أكثر ذلك : الحميريّ، الروض المعطار: ص٧٩ .

[٤] إلبيرة : من كور الأندلس جليلة القدر نزلها جند دمشق من العرب، وكثير من موالي الإمام عبد الرحمن بن معاوية وهو الذي أسّسها، وهي من قواعد الأندلس الجليلة، فخربت في الفتنة، وانفصل أهلها إلى غرناطة: الحميري، الروض المعطار: ص ٢٨، البغدادي، مراصد الاطلاع : ١١١/١ .

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٧/٢ .

[٦] المصدر نفسه : ١٣٤/٢ .

[٧] الجامة: من بلاد افريقية، الحميريّ، الرّوض المعطار : ص ١٥٥ .

[٨] ابن الأبار ، الحلة السيراء : ٢٢٩/١ ، ابن خلدون، تاريخه المسمى، العبر : ٣٠٤/٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنّ المراكشيّ يعود في موقع آخر ليشير إلى ثورة لمحمد بن أضحى حيث يقول: "وثار محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمْداني، من أكابر أبناء العرب بكورة إلبيرة، إلى أن هلك الأمير عبدالله، فاستنزله الناصر لدين الله عن حصنه فيمن استنزله من الثّوار"[١].

فالرّوايات تتناقض، ولدى المراكشيّ بخاصة، لكنّها في كلّ الأحوال تفضي إلى أنّ توبة كانت لمحمد بن أضحى، وابنه أحمد، أمام الخليفة النّاصر، كانا قد أعلناها وأتبعاها بإعلان الولاء والاخلاص، وذيّلها أحمد الابن بخطبة مدحيّة للخليفة النّاصر، ختمت بأبيات شعريّة -كما رأينا- نالت رضا الناصر واستحسانه، فرفع من شأن محمد وولده على أثره[٢].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب : ١٣٧/٢ .

[٢] انظر: ابن حيان، المقتبس ، تح شالميتا وآخرين : ١٧٤/٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د - الخطب الدينية

في هذا النوع من الخطب تتشابه النصوص في شكلها ومضمونها مهما اختلفت مستويات قائليها، إذ لا فرق نلمسه بين أسلوب خليفة أو خطيب في مسجد.

أمّا المناسبات التي احتوى عليها هذا النوع من الخطب، فقد تمثلت في خطب الجمع والعيدين، ومختلف المناسبات التي يمكن من خلالها الإرشاد والوعظ والتوجيه الإيجابي.

ومن هذه الخطب :

١- خطبة منذر بن سعيد البلّوطيّ في ذمّ البنيان :

وهي خطبة ألقاها حين رأى كلف عبد الرحمن الناصر بعمارة الأرض وإقامة معالمها، وتشييد البنيان، وانشغاله في بناء مدينة الزهراء، وانهماكه في ذلك إلى درجة أنّه عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث جمع متواليات، فأراد البلّوطيّ تذكير الخليفة ووعظه بفصل الخطاب والحكمة والإنابة والرجوع، فابتدأ أول خطبته[١] بقوله تعالى:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وإذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فاتّقوا الله وأطيعونَ، واتّقوا الّذي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[٢].

ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، [جاش به صدره وقذف به على لسانه بحره، وأفضى في ذلك إلى ذمّ المشيّد][٣]، والإستغراق في زخرفته والإسراف في الإنفاق عليه، فجرى [في ذلك][٤] طلقاً، (وتلا)[٥] فيه قوله: (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على تَقْوَى مِنَ الله وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فانْهَار بِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ، والله لا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمِينَ، لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الذي بَنَوْا رِيْبَةً في قُلُوبِهِمْ إلّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ والله

---

[١] المرقبة العليا، وأزهار الرياض : فأدخل في خطبته فصلاً مبتدئاً بقوله :

[٢] سورة الشعراء / ١٢٨-١٣٥ ، وزاد في المرقبة العليا وأزهار الرياض، ونفح الطّيب : ولا تقولوا (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الواعِظِينَ). الشعراء / ١٣٦ . وزاد كذلك : فمتاع الدنيا قليل، والآخرة لمن اتقى ، وهي دار القرار ومكان الجزاء.

[٣] هذا الجزء سقط من المرقبة العليا ، وأزهار الرياض ونفح الطيب، وجاء : ومضى في ذم تشييد البنيان.

[٤] سقطت من المرقبة العليا، وأزهار الرياض. وجاءت في مطمح الأنفس: وجرى فيه .

[٥] المرقبة العليا، وازهار الرياض، ونفح الطّيب: وانتزع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[١] وأتى بما شاكل المعنى من التخويف بالموت والتحذير (منه)[٢]، والدّعاء إلى [الله ، عزّ وجلّ، في][٣] الزهد في هذه الدنيا الفانية، والحضّ على اعتزالها،و[التبيين لظاهر معانيها والترغيب في الآخرة ومغانيها][٤] والتقصير عن طلب اللذات، ونهي النفس عن اتباع (الشهوات)[٥]، [٦] وتلا من القرآن العظيم ما يوافقه. وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله ويطابقه، حتى بكى[٧] الناس، وخشعوا، وضجّوا، وتضرّعوا، وأعلنوا الدّعاء إلى الله تعالى في التّوبة، والابتهال في المغفرة"[٨] فعلم الخليفة أنّه هو المقصود به، والمعتمد بسببه، فاستجدى وبكى، وندم على ما سلف منه من فرطه، واستعان بالله من سَخَطِهِ واستعصمه برحمته.

ويلاحظ أنّ الخطيب لم يلتزم بالمقدمات التقليديّة من افتتاح بالتحميد والصّلاة والسّلام على الرسول، ولعلّ الخطبة لم ترد على شكل نصّ حرفيّ، كما خطب بها البلّوطيّ، ويتضح ذلك من خلال المصادر التي أوردتها، إذ تشير بعض المصادر[٩] إلى أنّ تلك الآيات التي بدأ بها كانت بداية فصل أدخله في خطبته، فمن غير المعقول أن يغفل البلّوطيّ عن الإفتتاح .

وتمثل هذه الخطبة الخطابة الدينيّة (ذات المغزى السياسيّ)[١٠] فهي خطبة من خطب يوم الجمعة التي يوجهها الخطيب للإرشاد والتوجيه الإيجابيّ والإصلاح، وتتخذ الطابع السياسيّ انطلاقاً من كونها موجهة في الحقيقة للخليفة، على شكل موعظة، وتهدف إلى تغيير الأوضاع نحو الأفضل، من خلال استثارة العاطفة الدينية بما ارتكزت عليه الخطبة من استشهاد بالآيات القرآنية، والتنوع في الأساليب بين خبر وإنشاء، واختلاف الجمل بين طول وقصر، وربطها بمجريات الأحداث في حياتنا اليوميّة.

---

[١] سورة التوبة / ١٠٩-١١٠ .

[٢] المرقبة العليا ، وأزهار الرياض ونفح الطّيب : من فجاءته .

[٣] سقطت من المرقبة العليا وأزهار الرياض ونفح الطّيب.

[٤] سقطت من المصادر السابقة ، وجاء : والرفض لها، والندب إلى الإعراض عنها .

[٥] المصادر نفسها : هواها .

[٦] المصادر نفسها : فأسهب في ذلك كلّه وأضاف إليه .

[٧] نفسها : حتى أذكر من حضر من الناس .

[٨] نصّ الخطبة في : ابن خاقان، مطمح الأنفس : ص ٢٤٧ ، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، المسمى المرقبة العليا: ص ٦٩-٧٠، المقّريّ، أزهار الرياض : ٢/٢٧٧-٢٧٨ ، ونفح الطّيب : ١/٥٧٠-٥٧٢ .

[٩] النباهي، تاريخ قضاة الأندلس : ص ٦٩ ، المقّري ، أزهار الرياض : ٢/٢٧٧ .

[١٠] محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبيّة : ص ١٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تظهر هذه الخطبة جرأة عالية، تميز بها البلوطيّ في أداء الواجب على أتمّ وجـه، وتُبرز المصادر الأثر الذي أحدثته الخطبة في نفس الناصر، وفي نفوس السّامعين الذيـن تأثروا بما قاله البلّوطيّ بسرعة، وظهر ذلك في تصرفاتهم ، ولعلّ في تقبل الناصر لكـلام البلّوطيّ، وندمه على ما فعل دليلٌ واضح على منزلة البلّوطيّ في نفسه، إذ خاطبه بقوله: "جزاك الله يا قاضي عنّا وعن نفسك خيراً، وعن الدّين والمسلمين أجلّ جزائه، وكثر في النّاس أمثالك، فالذي قلت هو الحقّ"[١]، وأمر بنقض سقيفة تلك القبة وإعادة قرمدها تراباً. ويذهب مؤرخونا[٢] إلى أنّ مكانته وجاهه كلّه قام على الخطابة.

٢- خطبة البلّوطيّ في الاستسقاء[٣]:

جاء في "مطمح الأنفس" ما نصّه :

"[٤] وقحط الناس [في بعض السنين][٥] آخر مدّة النّاصر [لدين الله أمير المؤمنين][٦]، فأمر القاضي[٧] منذر بن سعيد بالبروز إلى الاستسقاء بالناس، فتأهب لذلك "وصام بيـن يديـه ثلاثة أيام"[٨] تنفلاً وإنابة [واستجداءً][٩] ورهبة، واجتمع "النّاس"[١٠] له في مُصَلّى الرّبـض [بِقُرْطُبَة][١١]، [بارزين إلى الله تعالى في جَمْع عظيم][١٢]، "وَصَعَد الخليفة الناصر في أعلى مصانع القصر المشرفة"[١٣] [يشارك النّاس في الدّعاء إلى الله [تعالى][١٤] والضّراعة][١٥]

---

[١] النباهي، تاريخ قضاة الأندلس : ص ٧٢ .

[٢] حسين مؤنس، شيوخ العصر في الأندلس : ص ٧١ .

[٣] نصّ الخطبة في : ابن خاقان، مطمح الأنفس: ص ٢٤٩-٢٥١ ، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس : ص ٧٠-٧١ المقّريّ ، أزهار الرياض: ٢/٢٧٩-٢٨٠، ونفح الطّيب : ١/٥٧٢ ، الذهبيّ، سير أعلام النبلاء : ١٦/١٧٦ .

[٤] سير أعلام النبلاء : وقال الحسن بن محمد

[٥] سقطت من المرقبة العليا .

[٦] سقطت من سير أعلام النبلاء وأزهار الرياض ونفح الطّيب، وجاءت في المرقبة العليا : "لدين الله عبد الرحمن بن محمد"

[٧] أزهار الرياض : القاضي - المذكور منذر ، نفح الطيب : القاضي منذر المذكور.

[٨] سير أعلام النبلاء : فصام أياماً وتأهب .

[٩] سقطت من المرقبة العليا، وسير أعلام النبلاء، ونفح الطيب.

[١٠] سير أعلام النبلاء: الخلق .

[١١] سقطت من سير أعلام النبلاء .

[١٢] سقط هذا الجزء من المصدر السابق.

[١٣] المرقبة العليا : وصعد الخليفة الناصر في أعلى مصانعه المرتفعة في القصر، وفي سير أعلام النبلاء : وصعد الناصر في أعلى قصره.

[١٤] سقطت من المرقبة العليا وسير أعلام النبلاء .

[١٥] المرقبة العليا : "ليشارف الناس ويشاركهم في الخروج إلى الله والضراعة له". وسقطت من سير أعلام النبلاء، وجاءت: ليشاهد الجمع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

[فلما سرح طرفه في ملأ الناس وقد شخصوا إليه بأبصارهم، قال: "يا أيّها الناس" وكرّرها مشيراً بيده في نواصيهم][١]، ثم قال[٢]: "سَلامٌ عَلَيْكُمْ[٣] كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[٤]، [(أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ، واللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيْدُ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ)[٥]][٦] ، [فضجّ النّاس بالدّعاء وارتفعت الأصوات بالاستغفار والتضرّع إلى الله تعالى بالسّؤال والرّغبة في إرسال الغيث ووصل الحال][٧]، ومضى على تمام خطبته، ["فأفزع"[٨] النفوس بوعظه، وانبعث الاخلاص بتذكيره][٩]، [فما أتمّ خطبته حتّى بلّلهم الغيث][١٠]".

كان منطلق هذه الخطبة التوجه إلى الله بالدعاء طلباً للرحمة بنزول المطر، ويشار في كتب الفقه[١١] إلى أنّ التوجّه إلى الله -عزّ وجلّ- بالاستسقاء يكون على وجه من ثلاثة أوجه: الأول منها يكون بأن يصلّي الإمام بالمأمومين ركعتين في أي وقت من الأوقات

---

[١] هذا الجزء سقط من المرقبة العليا، وسير أعلام النبلاء، وأزهار الرياض ونفح الطّيب، وجاء مكانها: "فأبطأ القاضي(١) (حتّى اجتمع الناس، وغصت بهم ساحة المصلّى)(٢)، (ثم خرج نحوهم ماشياً، متضرعاً، مخبتاً ، متخشعاً)(٣) وقام ليخطب فلما رأى (بدار الناس إلى (ارتقابه)(٤)، واستكانتهم من خيفة الله: وإخباتهم له، وابتهالهم إليه، رقت نفسه، وغلبته عيناه، فاستغفر)(٥)، وبكى حيناً، ثم افتتح خطبته". (١) سير أعلام النبلاء : منذر . (٢) سقطت من سير أعلام النبلاء (٣) سير أعلام النبلاء : ثم خرج راجلاً متخشعاً (٤) نفح الطّيب : ارتقائه (٥) أزهار الرياض، ونفح الطّيب: فاستعبر .

[٢] زاد في أزهار الرياض ونفح الطّيب: "يا أيّها الناس" وجاء في سير أعلام النبلاء : "يا أيّها الناس وكررها مشيراً بيده في نواصيهم".

[٣] زاد في المرقبة العليا وسير أعلام النبلاء وأزهار الرياض ونفح الطّيب: "سلامٌ عليكم" ثم سكت، ووقف شبه الحصر(١)، ولم يكن من عادته، فنظر الناس "بعضهم ببعض"(٢)، لا يدرون ما عراه، ولا ما أراد بقوله. ثم اندفع "تالياً" (٣) بقوله ".

(١) سير أعلام النبلاء : شبه الحسر (٢) أزهار الرياض ونفح الطّيب: بعضهم إلى بعض.

(٣) سقطت من سير أعلام النبلاء .

[٤] سورة الأنعام / ٥٤ .

[٥] سورة فاطر / ١٥-١٧ .

[٦] المرقبة العليا، وسير أعلام النبلاء، وأزهار الرياض ونفح الطّيب، جاء مكانها : "استغفروا ربّكم، وتوبوا إليه، وتزلفوا(١) بالأعمال الصالحات لديه".

(١) سير أعلام النبلاء : وتقرّبوا .

[٧] المرقبة العليا، وسير أعلام النبلاء : "فهاج الناس بالبكاء، وجأروا بالدعاء". وفي أزهار الرياض ونفح الطّيب: قال الحاكي: فضجّ الناس بالبكاء".

[٨] المرقبة العليا : ففرع ، وفي أزهار الرياض ونفح الطّيب : ففزع .

[٩] سقطت من سير أعلام النبلاء، وقيل : وخطب فأبلغ .

[١٠] المرقبة العليا ، وأزهار الرياض ونفح الطّيب : "فلم ينقض النهار حتى أرسل الله بماء منهمراً روى الثرى، وطرد المحل، وسكن الأزل، والله لطيف بعباده" ، وسقطت من سير أعلام النبلاء وجاء مكانها : "فلم ينفض القوم حتى نزل غيث عظيم" .

[١١] تفاصيل تلك الأوجه في : السّيد سابق، فقه السّنة : ١/١٨٢-١٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير وقت الكراهة، يجهر في الأولى بسورة "الأعلى" بعد "الفاتحة" وفي الثانية "بالغاشية" بعد "الفاتحة" ويخطب فيهم خطبة تكون قبل الصلاة أو بعدها. والوجه الثاني يكون بتضمين الدّعاء بالاستسقاء بحيث يؤمن المصلون على دعاء الإمام. أما الوجه الثالث: وهو المتجسد في خطبة البلّوطيّ هذه، فصورته أن يكون الدّعاء مجرداً في غير يوم الجمعة، وبدون ارتباطه بصلاة في المسجد أو غيره.

وفيما يتعلق بخطبة البلوطي، فقد تجهز لها الخطيب مستشعراً رهبة الموقف قبل وقوعه، فقد صام -كما ذكر- رهبة، وإنابة، وتنفلاً، أما هيئة الخطيب عند خروجه، فتعطي دلالة واضحة على عظم الموقف، والخشوع الذي كان يتحلّى به.

أمّا ما أصاب الخطيب حين توقف عن الكلام بعد قوله: "يا أيّها النّاس" واعتقاد الناس أنّه قد حصر، بمعنى أن الكلام حصر في جوفه، فلم يعد يقوى على النطق، فقد دفع الناس إلى التعجب، إذ لم يكن ذلك من عادته، وهذا دليل على ما عرف به البلوطي من بلاغة وفصاحة، ولعلّ ما أصابه كان لعظم المشهد، أو ربما كانت حركة مقصودة من الخطيب ليزيد من جذب الأسماع إليه.

إنّ أسلوب البلّوطيّ غير بعيد عن الاقتداء بسنة رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم- الذي كان يلجأ للاستشهاد بآيات من القرآن الكريم نصاً أو بالمعنى، ويذكّر النّاس من خلالها بافتقارهم لله، وحاجتهم له، واعتمادهم عليه وحده في تلبية حاجاتهم. وقد أوردت المصادر[1] ما كان يقال عن استفتاح عجيب للبلوطيّ في خطب الاستسقاء.

أمّا عدم افتتاح الخطيب لخطبته بالحمد والصلاة على الرسول، مع أنّهما التقليدان المتبعان بالنسبة للخطابة، فربّما يعود إلى أنّ هذه الروايات التي وصلتنا للخطبة لم تكن كاملة، ويحتمل أنّ رواة الخبر وناقليه ركّزوا على ما يتعلق بالخطبة وموقف الخطيب والنّاس.

---

[1] الباهي، تاريخ قضاة الأندلس : ص ٧١ ، الذهبي، سير أعلام النبلاء : ١٧٦/١٦، المقّريّ، أزهار الرياض: ٢٨٠/٢، ونفح الطّيب: ٥٧٢/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- خطبة أبي عبدالله بن الجنان[١] :

ومن الخطب الدينيّة المرتجلة، قول أبي عبدالله بن الجنان :

"الحمد لله الذي حمده من نعمائه، وشكره على آلائه من آلائه، أحمده حَمْدَ عارف بحق سنائه، واقف عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه، عاكف على رسم الإقرار بالافتقار إليه والإستغناء به في كل آنائه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المتوحد بعظمته وكبريائه، المتقدّس عمّا يقوله الملحدون في أسمائه. وأصلّي على سيّد ولد آدم ونخبة أنبيائه، محمد المفضّل على العالمين باجتبائه واصطفائه، المنتقى من صميم الصميم، وصريح الصريح بجملة آبائه، المرتضى الأمانة والمكانة بإبلاغ أمر الله وأدائه، أرسله الله للناس كافة عموماً لا يتخصص باستثنائه، وفضله بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة على أمثاله من المرسلين ونظرائه، ورقاه إلى الدّرجات العلا وأنهاه إلى سدرة المنتهى ليلة إسرائه، وحباه بالخصائص التي لا يضاهي بها بهاء كماله وكمال بهائه، ورداه رداء العصمة فكانت عناية الله تكنفه عن يمينه وشماله وأمامه وورائه، ووفاه من حظوظ البأس والندى ما شهد بمزيته على الليث والغيث في إبائه وانهمائه، صلّى الله عليه وعلى آله مصابيح الهدى ونجوم سمائه، صلاة تتصل ما سمح البدر بائتلاف أنواره والقطر باندفاق أنوائه، وسلّم تسليماً"[٢]

يلاحظ الباحث أموراً عدّة في هذه الخطبة، منها :

- أنّها تبتدئ بحمد الله والشهادة بوحدانيته، وبرسالة محمد -صلّى الله عليه وسلم- وبالصلاة عليه.
- أنّها تتدرج للحديث عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، وخاتم الرسل، وأنّه جاء هادياً ومبشراً للخلائق كافة.
- وتهدف الخطبة إلى بناء سلوك إسلاميّ في شخصية المجتمع البشريّ، وذلك في تدرجها من الاعتقاد النقليّ القائم على الإيمان بوحدانية الله وكتبه ورسله إلى الاعتقاد العقليّ المبنيّ على الملاحظة والمشاهدة والتحليل.

---

[١] ابن الجنان، هو : محمد بن محمد بن أحمد الأنصاريّ من أهل مرسية، أبو عبدالله، كان محدثاً راوية ضابطاً كاتباً بليغاً شاعراً بارعاً، رائق الخط، توفي ٦٥٠ هـ، ترجمته في : الغبريني، عنوان الدراية : ٣٤٩ ، ابن الخطيب، الإحاطة : ٣٣٨/٢-٣٥٩. المقّريّ، نفح الطّيب: ٣١٤/١-٤١٧ ، شكيب أرسلان، الحلل السندسيّة: ٥١١/٣ .

[٢] المقّريّ، نفح الطّيب : ٤٢٣/٧-٤٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤- خطبة القاضي عياض توفي ٥٤٤ هـ:

وللقاضي عياض دور كبير في هذا الميدان، وجدارة جعلته من أعلام البلاغة، وأصحاب القول، ولقد ظلت شخصيته الدينية حاضرة في كل آثاره الأدبية، كالخطابة التي عبرت عن مكانته العالية في علوم الشريعة، وخاصة في القرآن الكريم، الذي ظهر في خطبه بشكل جلي فأكسبها رونقاً جمالياً، ومظهراً بلاغياً راقياً. إذ نجد فيما ترك من آثاره الأدبية محصولاً من القول يدل دلالة واضحة على أنه علم يشار إليه بالبنان، ونمثل على هذا بخطبة من خطبه ضمنها سور القرآن، يقول فيها :

"الحمد لله الذي افتتح "بالحمد" كلامه، وبين في سورة البقرة أحكامه، ومد في آل عمران والنساء ومائدة الأنعام ليتم أنعامه، وجعل في الأعراف أنفال توبة يونس و "ألر كتاب أحكمت آياته"، بمجاورة يوسف الصديق في دار الكرامة، وسبح الرعد بحمده وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم "ليوقن"[١] أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا كهف ولا ملجأ إلا إليه، ولا يظلمون قلامه، وجعل في حروف "كهيعص" سراً مكتوماً"[٢] ، قدم بسببه طه صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ليظهر إجلاله وإعظامه، وأوضح الأمر حتى حج المؤمنون بنور الفرقان والشعراء صاروا كالنمل ذلاً وصغاراً لعظمته، "وظهر"[٣] قصص العنكبوت فآمن به الروم، وأيقنوا أنه كلام الحي القيوم، نزل به الروح الأمين على زين من وافى القيامة، "وأفصح"[٤] لقمان الحكمة بالأمر بالسجود "لرب الأحزاب" فسبا فاطر السموات أهل الطاغوت، وأكسبهم ذلاً وخزياً، وحسرة وندامة، وأمد يس صلى الله عليه وسلم بتأييد الصافات، فصاد الزمر يوم بدر "وأوقع بهم لما أوقع"[٥] صناديدهم في القليب "بين"[٦] مكدوس ومكبوب،[٧] شالت بهم النعامة، وغفر غافر الذنب

---

[١] نفح الطيب : ليؤمن .

[٢] المصدر نفسه : مكنوناً .

[٣] نفح الطيب : ظهرت .

[٤] المصدر نفسه ، تحقيق د. مريم طويل : وأوضح .

[٥] نفح الطيب: وأوقع بهم ما أوقع .

[٦] سقطت من المصدر السابق .

[٧] زاد في نفح الطيب : حين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقابل التوب للبدريين -رضي الله عنهم- ما تقدم وما تأخر حين فصلت كلمات الله، فذل من حقت عليه كلمة العذاب وأيس من السلامة، ذلك بأن أمرهم شورى بينهم وشغلهم زخرف الآخرة عن دخان الدنيا، فجثوا أمام الأحقاف لقتال أعداء محمد -صلى الله عليه وسلم- يمينه وشماله وخلفه وأمامه، فأعطوا الفتح وبوئوا حجرات الجنان، حين تلوا ق والقرآن المجيد، وتدبروا جواب قسم الذاريات والطور لاح لهم نجم الحقيقة، وانشق لهم قمر اليقين، فنافروا السآمة، ذلك بأنهم أمنهم الرحمن إذا وقعت الواقعة، واعترف بالضعف لهم الحديد وهزم المجادلون وأخرجوا من ديارهم لأول الحشر يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين حين نافروا السلامة، أحمده حمد من امتحنته صفوف الجموع في نفق التغابن، فطلق الحرمات حين اعتبر الملك وعامه، وقد سمع صريف القلم وكأنه بالحاقة والمعارج يمينه وشماله وخلفه وأمامه،[١] ناح نوح الجن فتزمل وتدثر فَرَقاً من يوم القيامة وأنس بمرسلات النبأ فنزع العبوس من تحت كَوْر العمامة وظهر له بالانفطار التطفيف فانشقت بروج الطارق بتسبيح الملك الأعلى وغشيته الشهامة، فوربّ الفجر والبلد والشمس والليل والضحى : قد أنشرحت صدور المتقين، حين تلوا سورة التين وعلق الإيمان بقلوبهم، فكل على قدر مقامه يبين، ولم يكونوا بمنفكين دهرهم، ليله ونهاره وصيامه وقيامه إذا ذكروا الزلزلة ركبوا العاديات ليطفئوا نار القارعة ولم يلههم التكاثر حين تلوا سورة العصر والهمزة وتمثّلوا بأصحاب الفيل فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، أرأيتهم كيف جعلوا على رؤوسهم من الكون عمامة، فالكوثر مكتوب لهم، والكافرون خذلوا وهم نصروا، وعدل بهم عن لهب اللّهامة، وبسورة الإخلاص قروا وسعدوا وبرب الفلق والناس استعاذوا فاعيذوا من كلّ حزن وهمّ وغمّ وندامة، وأشهد أنّ لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، شهادة تنال بها منازل الكرامة، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما غرّدت في الأيك حمامة (وسلّم تسليماً[٢])[٣].

اتّبع الخطيب خطاً فنياً متميزاً يقوم على إحكام الصناعة، وإيثار التأنق، وتوظيف الآيات القرآنية توظيفاً دقيقاً، وهذا ما يميز جميع خطب القاضي عياض التي أثبتتها المصادر الأندلسيّة.

---

[١] زاد في نفح الطّيب، تحقيق د. مريم طويل : وقد .

[٢] سقطت من نفح الطّيب .

[٣] نص الخطبة : المقّريّ، أزهار الرياض: ٤/٧٨-٨٢ ، ونفح الطّيب : ٧/٣٣٣-٣٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبتدئ الخطيب بحمدالله والشّهادة بوحدانيته وبرسالة نبيّه، فالخطبة لا تطالعنا بالنتائج قبل المقدمات، بل تستخلص النتائج من المقدمات، مما يؤكد العلاقة العضويّة بين عناصر الخطبة، إلّا أنّه يطالعنا بمقدمات يكتفي فيها بالتلميح والإشارات إلى معاني الآيات القرآنية دون التفصيل، فتأتي الآية القرآنيّة تعبيراً عن مقاصد الخطيب، وأشبه ما تكون مقدمات فكريّة تدعو العقل البشريّ إلى التأمل، وحاثّة على الاعتبار بآيات الله والاخلاص لدينه، وذلك ما يلاحظ في جلّ خطبه[١].

إنّ الخاتمة تُعدّ تقريراً دالاً على ذات الموضوع الذي تريد الخطبة إثباته عن طريق التلميحات والإشارات بحيث يتقبل السّامع الفكرة ويعمل بها.

أمّا التكلّف البادي على الخطبة، فقد جعل الكثيرين[٢] يشكون في نسبة الخطبة للقاضي عياض غير أنّ ما نلمحه في خطبه الأخرى[٣] يؤكد على أنّ الخطيب يمسك بزمام فنّ الخطابة، وهو من أهل الصناعة الذين يجعلون كلامهم خاضعاً لقيود تدل على أنّ أصحابها يأتون بما يميّزهم عن غيرهم، وقد أشار أبو عبدالله محمد ابن القاضي عياض إلى مجموع جامع لخطبه لم يصل إلينا "وخطبه- وفقكم الله- كثيرة مدونة يشتمل عليها مجلد، قرئت عليه وسمعها أكثر أصحابه"[٤].

ويبدو أنّ هذا النّوع من الخطب قد راق بعض خطباء الأندلس، فأخذوا في محاكاته ومعارضته، ومنهم: الطنجاليّ[٥]، وسنورد بعضاً منها في الفصل الرابع - إن شاء الله -.

---

[١] أبو عبد الله محمد بن عياض، التعريف بالقاضي عياض : ص ٨٤-٨٦ ، المقّريّ ، أزهار الرياض: ١٧١/٤ .

[٢] قال المقّريّ في نفح الطّيب : ٣٣٤/٧ : "لأنّ نفس القاضي في البلاغة أعلى من هذه الخطبة" .

[٣] انظر خطبه : أبو عبدالله محمد ابن القاضي عياض، التعريف بالقاضي عياض : ص ٨٤-٨٥، ابن الخطيب، الإحاطة: ٢٢٧/٤ .

[٤] أبو عبد الله محمد بن عياض ، التعريف بالقاضي عياض : ص ٨٧ .

[٥] لم يعثر في ترجمته إلّا على أنّه هو : الفقيه الجليل، أبو المجد عبد المنعم ابن الشيخ الفقيه العدل، أبي جعفر بن أحمد بن عبدالله بن عبد المنعم الهاشميّ الطنجاليّ، والطنجاليون أسرة عريقة في المجد والشّرف بمالقه. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس : ص ١٥٩. ونصّ خطبته في: المقّري، أزهار الرياض : ٨٢/٤-٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥ - خطبة أحمد بن الحسين بن علي الزّيّات توفي ٧٢٨هـ[١] :

خطب ابن الزّيّات خطبة ألغيت الألف من حروفها على كثرة ترددها في الكلام، وهي: "حمدت ربّي جلّ من كريم محمود، وشكرته عزّ من عظيم معبود، ونزّهته عن جهل كلّ مُلْحد كفور، وقدّسته عن قول كل مفسد غرور، كبير لو تقدم في فهم نجد قدير لو تصور في رسم لحد، لوعَدَته فكرة التصوّر لتصوّر ولوحَدَتْه فكرة لتعذّر ولو فُهمت له كيفية لبطل قِدَمُه، ولو علمت له كيفية لحصل عدمُه، ولو حَصَره طَرْفٌ لقُطع بتَجَسّمه، ولو قهره وصف لصدع بتقسمه، ولو فرض له شبح لرهقه كيف، ولو عرض له، للحقّ عجل وَريث، عظيم من غير تركّب قُطْر عليم مِنْ غير ترتّب فكر، موجود من غير شيء يمسكه معبود من غير وهم يدركه، كريم من غير عِوَض يُلْحِقهُ، حكيم من غير عَرض يَلْحَقُه، قوي من غير سَبب يجمَعُه، عليّ من غير سبب يرفعه، لو وجد له جنس لعُورض في قيموميته، ولو ثبت له حِسّ لنُوزع في دَيْمومَيّته .

ومنها: "تقدّس عن لمّ فعله، وتنزه عن سمّ فضله. وجلّ عن ثمّ قدرته، وعزّ عن عَمّ عزّته، وعظمت عن من صفته، وكثرت عن كمّ مِنّته، فَتَق ورتق، وصوّر وخلق، وقطع ووصل، ونصر وخذل، حَمَدْتُه حمد من عرف ربه ورهب ذنبه، وصفت حقيقة يقينه قلبُه، وذكرت بصيرة دينه لبّه، فنهض لوعي بشروط نفضته وحدّ، ربط سِلك سلوكه وشيّد، وهدم صرح عُتوّه وَهدّ وحرس معقل عقله وحد وطرد غرور غُرّته ورذله، علم علم تحقيق فنحا نحوه، وتفرّد له عزّ وجلّ بثبوت ربوبيّته وقدمه، ونعتقد صدور كلّ جوهر وعرض عن جوده وكرمه، ونشهد بتبليغ محمد صلى ربّه عليه وسلّم، رسوله وخير خلقه، ونعلن بنهوضه في تبيين فرضه، وتبليغ شرعه، ضرب قبة شرعه، فنسخت كلّ شَرْع، وجدّد عزيمته فقمع عدوّه خير قمع، قوّم كلّ مُقوَّم بقويم سِمَته، وكريم هَدْيه. وبيّن لقومه كيف يركنون فوره بقصده وسديد سعيه بشّر مطيعه فظفر برحمته، وحذّر عاصيه فشقي بنقمته.

وبعد، فقد نصحتم لو كنتم تعقلون وهديتم لو كنتم تعلمون وبُصّرتم لو كنتم تبصرون. وذكّرتم لو كنتم تذكرون. وظهرت لكم حقيقة نشركم. وبرزت لكم خبيئة حشركم فلم تركضون في طلق غفلتكم. وتغفلون عن يوم بعثكم وللموت عليكم سيف مسلول، وحكم عزم غير معلول. فكيف بكم يوم يؤخذ كل بذنبه، ويخبر بجميع كسبه، ويُفَرّق بينه وبين صحبه، ويعدم نصرة حزبه، ويشغل بهمه وكربه عن صديقه وتربه، وتنشر له رقعته، وتعين له بقعته، فربح عبد نظر

---

[١] سبقت ترجمته في : ص ٣١ من الدراسة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو في مهل لنفسه وترسل في رضى عمله. جنّة لحلول رَمْسه وكسر صنم شهوته، ليقرّ في بحبوحة قدسه، وحصر بنظر ينزله سرير سروره بين عقله وجسمه.

ومنها: "فتنبّه -ويحك- من سِنَتك ونومك، وتفكر فيمن هلك من صحبك وقومك، هتف بهم من تعلم، وشبّ عليهم منه حرق مظلم، فخُرِّبت بصيحته ربوعهم، وَتَفَرَّقت لهوله جموعهم وذلّ عزيزهم، وخسيء رفيعهم، وصُمَّ سميعُهم، فخرج كلّ منهم عن قَصْره، ورُمي غير مُوَسّد في قبره. فهم بين سعيد في روضته مُقرَّب، وبين شقي في حُفْرَته مُعذَّب، فنستوهب منه -عزّ وجلّ - عصمته من كلّ خطيئة، وخصوصيّة تقي من كلّ نفس جريئة"[١].

ويلاحظ في هذه الخطبة انها تدور في الوعظ حول الايمان بوحدانية الخالق، والاخلاص في العمل والتفكير بالموت والآخرة "تقدس عن لم فعله، وتنزه عن سم فضله، وتفرد له عزّ وجلّ بثبوت ربوبيته وقدمه"، "فربح عبد نظر وهو في مهل لنفسه وترسّل في رضى عمله"، "وبرزت لكم خبيئة حشركم فلم تركضون في طرق غفلتكم. وتغفلون عن يوم بعثكم وللموت عليكم سيف مسلول".

وصفوة القول، إنّ الخطب الدينيّة يفضل أن تكون مطابقة لمقتضى الحال ملائمة لما تدعو اليه حاجة السامعين، بحيث تستحضر في موضوعها الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وعلى الخطب الدينية أن تلمس مواضع الداء وتهتدي إلى الدواء، لذلك يجب على الخطيب أن يتكلم في الموضوع الخاص يحلله تحليلاً دينياً وأخلاقياً واجتماعياً، "ويخطب في المواسم بما يناسب الحال فيتكلم في العيدين مثلاً، عن الأعمال المطلوبة من صدقة وأضحية وتهليل وتكبير وصلة رحم وعطف على بائس وأرملة.. ، وفي الجمع يخطب بما يناسب الموضوع مثلاً، التحذير من الربا، والحديث عن الأوامر والفضائل.."[٢]

---

[١] ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة : ١/٢٩٠-٢٩٣ .

[٢] علي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب : ص ١١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـ - الخطب الاجتماعيّة

ما وصل إلينا من الخطب الأندلسية في الشؤون الاجتماعية نزر يسير، مع أن المجتمع الأندلسيّ - مثل غيره من المجتمعات - ضمّ الكثير من القضايا والمناسبات الاجتماعيّة.

لذا ستعرض الدراسة لخطبة تمثل خطب الإملاك في الأندلس، وهي خطبة أبي بحر صفوان بن إدريس، وخطبة أخرى في الدفاع عن القاضي الوحيديّ لابن الفخار:

١- خطبة أبي بحر صفوان بن إدريس[1]، توفي (٥٩٨هـ) :

وفيها قال: "الحمد لله الذي تطول بالإحسان من غير جزاء ولا ثواب، وألبس المخلوقات من فواضله سوابغ المطارف وكواسي الأثواب، وجاءوا على أقدام الرّجاء إلى محال نوافله فوجدوها مُفَتَّحَة لهم الأبواب، وسألوه كفاية المؤنة فكان الفعل بدل القول والإسعاف بدل الجواب، خلق البريّة من غير افتقار ولا اضطرار، ونقلهم من الطفوليّة إلى غيرها نقل البدر من التمام إلى السرار، وشرف هذه الطبقة الإنسانيّة، فرزقها الإدراكات العقليّة، والإبانات اللسانيّة، فضرب سرادق اعتنائه عليها، وأنشأها من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها، ومع صنعه الرفيق بهم اللطيف وتنويهه الحاف بأرجائهم المطيف، رزقهم أحسن الصور الحيوانيّة وأجملها، وأتاح لهم أتمّ أقسام الاعتناء وأكملها، وبعث إليهم الرسل صلوات الله عليهم صنعاً منه جميلاً، وربّاً للصنيعة لديهم وتكميلاً، فبشروا وأنذروا، وأمنوا وحذروا، وباينوا بين الحرام والحلال، مباينة إدراك البصير بين الكدر والزلال، ودلّوا على السّمت الأهدى، ونصّبوا أعلام التوفيق والهدى، ولم يدعوا شيئاً سدى، بل توازنت بهم مقادير الأقوال والأعمال، وكانت إشاراتهم ثمال الهدايا وأيّ ثمال، فآب كلّ منسحب إلى الارتباط، وشدّ كلّ موفق على الاعتلاف، بحالهم يد الاغتباط، فصلوات الله الزاكية عليهم، ونوافح رحمته النامية تغدو وتروح إليهم، وأتمّ

---

[1] أبو بحر صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى التجيبي، من مدينة مرسية، وهو صاحب كتاب زاد المسافر، كاتب بارع وله رسائل عجيبة ومقامات غريبة، وأشعار رائقة نقلت من خط أبي عمرو بن سالم. ترجمته في : ابن خميس، أدباء مالقة: ص ٢٩٧، ابن الأبار، تحفة القادم : ١١٩-١٢٣، والتكملة ٢/٢٢٤ ، ابن سعيد، المغرب : ٢/٢٦٠-٢٦١، رايات المبرزين: ص ٢٠١ ، ياقوت الحموي، معجم الأدباء : ٤/١٤٤٩ ، ابن الخطيب، الإحاطة: ٣/٣٤٩-٤٥٩، الصفديّ، الوافي بالوفيات: ١٦/٣٢١-٣٢٤، المقّريّ، نفح الطيّب : ٥/٥٧-٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصّلاة والسّلام، على علم أولئك الأعلام، الداعي على بصيرة إلى دار السّلام، السّراج المنير، المبشر النذير، محمد صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه صلاة تؤول بهم إلى فسيح رضوانه ورحبه، بعثه الله رحمة للعالمين عامة، وأرسله نعمة للناس موفورة تامة، فأخذ بحجز مصدقيه عن التهافت في مداحض الأقدام، والتتابع في مزلّات الجرأة على العصيان والإقدام، فأقام الحجّة، وأوضح المحجّة، ودلّ على المقامات التي تمحض الأولياء، وأفصح عن الكرامات التي تنفذ الأتقياء، وقال وأهلاً به من قائل : "تَنَاكَحُوا فإنّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الأنبيَاء"[1] حرصاً منه صلوات الله عليه على الزيادة في أهل الإسلام والنّماء، ودفعاً في صدر الباطل بواضح الحقّ الصادع غيهب الظّلماء، وحضّ على ذات الدّين الحصان، وأغرى بالاعتصام والإحصان، ونصب أعلام النّكاح مشيدة المباني، وجاء بها سنة عذبة المجاني، وقال: "مَنْ تَزَوّج فقد كمل نصف دينه فليتّق الله في النّصف الثّاني"[2]، وأمر بالنكاح الذي توافقت فيه الطبيعة والشريعة، ولبّته النّفوس وهي سريعة، وأخصبت به ربوة التناسل فهي مروضة مريعة، وسدّت به عن اتباع الهوى وارتكاب المحارم الذريعة، وحفظت به الأنسال والأنساب، وفاض به نهر الالتئام السلسال المنساب، إذ لا سبيل لأن يستغني بذاته، من كان أسير هواه ومأمور لذاته، وإنّما الإنفراد والاستغنا، لمن له الكمال والغنى، ولا يجوز أن يتعاقب عليه الإنى، لا إله إلا هو له السناء والسنا. وإنّ فلاناً لمّا ارتقت همته إلى اتباع الصالحات وَسَمَت، ووسمته النجابة من أعلامها اللائحة بما وسمت، رأى أنّ الاعتصام بالنّكاح أولى ما حمى به دينه ووقاه، وأهمّ ما رفع إليه اعتناءه ورقاه، فخطب إلى فلان ابنته فلانة خطبة تضافر فيها اليمن والقبول، ونفحت بها شمال من الجد المصمم وقبول، وارتقى بها إلى اللوح المحفوظ والديوان المكنون عمل مقبول، فتلقى فلانٌ خطبته بالإجابة لما توسم فيه من مخايل النجابة، حرصاً منه على المساعدة والعون، واغتباطاً بمياسرة أهل الرّشد والصون، وانعقد النكاح بينهما على بركة الله التي يتضاعف بها العدد القليل ويتزيد ، ويمنه الذي ينتهض به من اعتمده ويتأيّد، وحسن توفيقه الذي يرتبط به من أخلص ضميره ويتقيّد، على أن أصدقها كذا، تزوّجها بكلمة الله الّتي علت الكلمات وَبَهرتها، وعلى سنّة نبيّهِ التي أحيت الحنيفيّة وأظهرتها، وأنقت الملّة من أرجاس الجاهليّة وطهّرتها، وهداية مَهْدِيّة التي غلبت الأباطل وقهرتها،

---

[1] مسند الإمام أحمد بن حنبل : ١٥٨/٣، ٢٤٥ ، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير : ٤٤/كتاب النكاح ، ص ٢٥٢ .

[2] الهنديّ، كنز العمّال : ٢٧١/١٦، ٢٧٥ ، كتاب النّكاح، الباب الأول، الهيثميّ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٢٥٢/٣، كتاب النّكاح.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولتكون عنده بأمانة الله التي هي جُنّة واعتصام ، وعهدته للزوجات على أزواجهن التي ليس لعروتها انفصام، وعلى إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وتسلسل في ميدان التناصف وأرسان، وله عليها من حسن العشرة التي بحقيق الاتّفاق عائدة، مثل ذلك ودرجة زائدة، والله تعالى يُمهّد لهما مِهاد نعمته الوثير، ويخلف منهما الطيب الكثير، ويرزقهما التوفيق الباعث لطول المرافقة المثير، بمنّه ونعمته"[١].

ويلاحظ الدّارس أنّ "السّنة في خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب"[٢]، فالإطالة سمة واضحة في هذا النّوع، "وربّما يعود ذلك إلى رغبة الخاطب فيما يطلب، ورغم ذلك فإنّ مجال القول في هذا النوع محصور بين الرغبة والقبول، ممّا يؤدي إلى إجهاد للخاطر وكدّ للنفس"[٣]، "فلا يقوم بها إلّا المقتدر على الخطابة، الذي يعرف أدواء عصره وعيوب مجتمعه، ويعرف أسبابها ويتوقع النتائج الخطيرة فيدعو الناس ليتجنبوها وقاية لمجتمعهم"[٤].

وقد استمدت الخطبة معانيها من القرآن الكريم والسّنة النبويّة الواضحة، ليؤكد الخطيب معانيه. وامتازت بترابط الفكرة، وخلوّها من الصنعة والتكلف، وإبرازها لملكة الخطيب؛ وذخائر محفوظه، وفكره الذي صقلته العلوم والمعارف، وهذبته روح الإسلام، فزاد ذلك من عمق المعاني ورقّة الأساليب.

ونجد الخطيب في خطب النكاح يتكلّم في مستهل خطبته عن استحباب الزواج، وأنه سنة حسنة، ويذكر بعض حسناته، وصفات المرأة المرغوبة، وأنّ النكاح "من الأغراض التي حسّنها الشّرع وزيّنها، وأوضح تضافر المصالح الشرعيّة والطبيعيّة فيه وبينها ، وأرشد من الخيرة وأرغم بالحلال أنف الغيرة، فتعاضدت الأنساب والأصهار"[٥].

---

[١] المقّريّ، نفح الطّيب : ٥/٥٩-٦٠ .

[٢] الجاحظ، البيان والتبيين : ١/٦٤ .

[٣] المصدر نفسه : ١/٦٤-٦٥ ، ٧٤-٧٥ .

[٤] محمد عبد الغني حسن، الخطب والمواعظ : ص ٦٢، ١٠٣ .

[٥] من صداق منعقد على بنت سيد الشرفاء أبي عبدالله بن عمران لولد الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن مرزوق وهو من إملاء ابن الخطيب: ريحانه الكتاب : ١/١٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- خطبة أبي عبد الله بن الفخار[١] :

وهي في الدّفاع عن قاضي مالقة الفقيه العالم أبي محمد عبد الله الوحيدي[٢]، لمّا تألّب بنو حسون عليه إذ توجه الخطيب إلى مراكش وقام في مجلس أمير المسلمين ابن تاشفين، وهو قد غصّ بأربابه، وقال: "إنّه لمقام كريم، نبدأ فيه بحمد الله على الدّنوّ منه، ونصلّي على خيرة أنبيائه محمد الهادي إلى الصراط المستقيم، وعلى آله وصحابته نجوم الليل البهيم؛ أمّا بعد، فإنّا نحمد الله الذي اصطفاك للمسلمين أميراً، وجعلك للدين الحنيفيّ نصيراً وظهيراً، ونفزع إليك ممّا دهمنا في حماك، ونبثّ إليك ما لحقنا من الضيم ونحن تحت ظلّ عُلاك، ويأبى الله أن يُدهم من احتمى بأمير المسلمين، ويصاب بضيم من ادّرَعَ بحصنه الحصين، شكوى قمت بها بين يديك، في حقّ أمرك الذي عضده مؤيده، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده، وإنّ قاضيك ابن الوحيدي الذي قدمته في مالقة للأحكام، ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصّة والعوام، لم يزل يدل على حسن اختيارك بحسن سيرته، ويرضي الله تعالى ويرضي الناس بظاهره وسريرته، ما علمنا عليه من سوء ولا درينا له موقف خزي، ولم يزل جارياً على ما يرضي الله تعالى ويرضيك ويرضينا إلى أن تعرضت بنو حسُّون إلى الطّعن في أحكامه، والهدّ من أعلامه، ولم يعلموا أنّ اهتضام المقدَّم، راجع على المقدِّم، بل جمحوا في لجاجهم فعمّوا وصمّوا، وفعلوا وأمضوا ما به هَمّوا.

وإلى السُّحب يرفع الكفّ مَنْ قَد جفّ عَنه مسيل عين ونهر"[٣].

ويلاحظ التزام الخطيب بحمد الله، والثّناء عليه، والصّلاة على نبيّه وآله وصحابته ومراعاة الخطبة لمقتضى الحال، وتركيزها على الدفاع عن القاضي الوحيديّ الذي كان يحرص على ما يرضي الله تعالى ، ويستمد أخلاقه من الإسلام . فأثرت الخطبة في السّامعين والدليل على ذلك ما جاء في النفح "فملأ سمعه بلاغة أعقبت نصره، ونصر صاحبه"[٣].

---

[١] محمد بن الحسن بن كامل الحضرميّ، المالقيّ، أبو عبد الله ، يعرف بابن الفخار، فقيه أديب، اشتهر بالأدب وله شعر يدون، وترسيل يفوق، غلبت عليه البادية، قوي الشكيمة، توفي ٥٣٩هـ. ترجمته في : ابن خاقان ، قلائد العقيان : ٩٠٨/٤ ، الضّبّي، بغية الملتمس: ٩٨/١، المقّريّ، نفح الطّيب : ٣٩٢/٣، ٣٣٤/٤ .

[٢] الوحيديّ، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عمر القيسيّ، من أهل مالقة، روى عن الشعبيّ، وابن خليفة وأبي علي الغسانيّ وأبي الحسن العسيّ وغيرهم. وكان من أهل العلم والمعرفة والفهم، واستقضى ببلده مدة حمد فيها. وتوفي رحمه الله سنة ٥٤٢هـ، وكان قد كفّ بصره، ومولده سنة ٤٥٦هـ. ترجمته في : ابن بشكوال، الصلة : ٢٩٦/١-٢٩٧ ، ابن حميس، أدباء مالقة : ص ٢١٧ ، ابن سعيد، المغرب: ٤٣١/١ ، النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس : ص ١٠٤ ، المقّريّ ، نفح الطّيب : ٣٩١/٣-٣٩٣ .

[٣] نصّ الخطبة في : المقّري، نفح الطّيب : ٣٩٢/٣ .

[٣] [٣] المصدر نفسه: ٣٩٢/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الخصائص العامة للخطابة في الأندلس

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخصائص العامة للخطابة في الأندلس

عرضنا فيما سبق من فصول هذه الدراسة لما أصاب الخطابة من تطور في المضمون في العصر الاندلسي وسنحاول في هذا الفصل النظر في السّمات الفنيّة، وصلتها بالبيئة والمجتمع الأندلسيين، وسننظر كذلك في طريقة الخطيب وأسلوبه في البناء الفنيّ، وما يستعمله من جمل الدعاء والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، وما يتخلل ذلك من التنويع بين الشعر والنثر.

ونلاحظ أنّ هذه الأمور تتعلّق بظاهر النّص وتركيبه من بدايته حتّى نهايته، إلاّ أنّ لها علاقة وثيقة الصّلة بنفسية الخطيب، ومناسبة خطبته.

أ- البناء الفنّي:

بالنظر إلى ما بين أيدينا من نصوص خطابيّة أندلسيّة، نلاحظ التماسك في البناء الفنيّ لدى خطباء الأندلس يرافقه القدرة على حسن التخلص، والفصاحة في المنطق، والدربة في استعمال أساليب الإقناع، والتعابير المؤثرة، ونرى أنّ الخطباء قد ساروا في خطبهم وفق التقسيم المعروف للخطبة من حيث المقدمة، والعرض أو الموضوع، والخاتمة.

١- المقدمة :

باستعراضنا للنماذج جميعها التي بين أيدينا من النصوص الخطابيّة الأندلسية، نجد أنها تبدأ بحمد الله والثناء عليه، والصّلاة على رسوله، مثلما هي الحال منذ عصر صدر الإسلام.

ولعلّ ما نجده في الخطب ولا سيّما الخطب الدينيّة، دليلٌ واضحٌ على ذلك، ومنها ما جاء في خطبة لأبي عبدالله بن أبي الخصال في الشكر على نزول الغيث: "الحمد لله الذي لا يكشف السّوء سواه، ولا يدعو المضطرُّ إلاّ إيّاه، نُنْزِلُ فَقْرَنا بِغناه، ونعُوذُ من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سخطه برضاه ونستغفره لذنوبنا (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا الله)[١]. وأشهدُ أن لا إلـــه إلّا الله، وحده لا شريك له إلهاً علا واقتدر، وأورد عباده وأصدر، وبسط الرزق وقدّر. وأشـهد أنّ محمداً عبده ورسوله الذي بشر وأنذر، ورغّب وحذّرَ..."[٢].

فقد استهلّ خطبته بحمدالله، وشهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً عبده ورســـوله، واستطاع بمثل هذا البدء أنْ يعمد إلى إثارة السّامعين، ودفعهم إلى التـــأمل، واســـتخلاص مضمون الخطبة. وبالتنويع بين أساليب التعبير والاستعانة بالأدلة النقليّـــة مـــن الآيـــات القرآنيّة، والأدلة العقليّة من إيراد الحقائق، استطاع أنْ يؤكد على العلاقـــة القويّـــة بيـــن المقدمة والغرض، فالمقدمة مؤشرٌ إلى الفكرة التي يريد الخطيـــب تثبيتـــها فـــي عقـــول السّامعين بحيث يتوصلون إلى النتائج، وهذا ما نلمحه في معظم الخطب التي أثبتناها فـــي الفصل الثاني، ولا سيّما في خطب القاضي عياض، ومنها: "الحمد لله الذي سبق كل شيءٍ قدماً، ووسع كل شيءٍ رحمةً وعلماً"[٣] ونعماً، وهدى أولياءه طريقاً نهجاً أمماً ... "[٤]

وهكذا ، فإنّ المقدمّات تأتي منسجمة مع المضامين على اختلافها، دينية كـــانت أو حربيّة كما رأينا في خطبة طارق بن زياد، أو سياسية أو اجتماعية، إلى غير ذلك، فـــإنّ البدء يشعر بالفكرة، ويهيئ الطريق أمامها ليتقبلها العقل، "فلا خير في كلام لا يدل علـــى المعنى الذي قصده الخطيب، ولا يشير إلى مغزاه، وإلى الغرض الذي إليه نزع"[٥].

واستطاع القاضي عياض في مقدمته السّابقة أن يشير إلى مضمون الخطبة وهـــو الوعظ بشكل عام، وهي خطب تصلح لكلّ زمان ومكان.

ومن الأمثلة أيضاً، خطبة نكاح لصفوان بن إدريس، منها قوله: "الحمد لله الـــذي تطوّل بالإحسان من غير جزاء ولا ثواب، وألبس المخلوقات من فواضله سوابغ المطارف وكواسي الأثواب، وجاءوا على أقدام الرّجاء إلى محالّ نوافلـــه فوجدوهـــا مُفَتّحـــة لـــهم الأبواب، ... ونقلهم من الطفوليّة إلى غيرها نقل البدر من التّمام إلى السّرار، وشرّف هذه

---

[١] سورة آل عمران / ١٣٥

[٢] رسائل ابن أبي الخصال "ترسل الفقيه الكاتب" : ص ٢٧٢ .

[٣] من قوله تعالى : "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا" : سورة غافر / ٧ .

[٤] محمد بن عياض، التعريف بالقاضي عياض : ص ٨٤ ، ابن الخطيب، الإحاطة: ٢٢٦/٤ ، المقّريّ، أزهار الرياض: ١٧٣/٤ .

[٥] الجاحظ، البيان والتبيين: ٦٤/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطبقة الإنسانيّة، فرزقها الإدراكات العقليّة، والإبانات اللسانيّة، فضرب سرادق اعتنائه عليها، وأنشأها من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها، ..."[١]

إذ نلاحظ أنّ المقدمة تمّهد للموضوع، وتدّل على الهدف الذي يقصده الخطيب، فبعد الحمد لله الذي له الحكمة والنعمة السابغة على مخلوقاته، يحسن الخطيب التخلّص بالأدلة العقليّة والاستشهاد بالأحاديث النبويّة الشريفة، ليصل إلى الغرض الذي من أجله قيلت الخطبة وهو الزواج ونعمته في الإسلام .

وممّا يلفت النظر فيما وصل إلينا من النماذج الخطابيّة الأندلسيّة، خلو بعضها من المقدّمات، إذ لا نجد الاستفتاح بالحمد والثناء على الله، والصّلاة على رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- بل إنّها تدخل في الموضوع مباشرة، ومنها خطبة عبد الرحمن الدّاخل، وخطبة الأمير محمد في معركة وادي سليط، وخطبة لسان الدين بن الخطيب التي يقول فيها: "أيّها النّاس، -رحمكم الله تعالى- إخوانكم المسلمون بالأندلس، قد دَهَمَ العدوُّ -قصمه الله تعالى- ساحتهم..."[٢]

ويمكننا القول، إنّ خطباء الأندلس دخلوا في الموضوع مباشرة في بعض خطبهم؛ لأهمية الموضوع وعظم الموقف. أو ربما كان للمؤرخين دور في إغفال هذه المقدمات وإسقاطها محاولة منهم للاختصار، فإنّها تحصيل حاصل فلا داعي لتكراره.

٢- **الموضوع :**

تتدرج الخطب على اختلاف أغراضها، بعد حمد الله والصّلاة على نبيّه -صلّى الله عليه وسلّم- إلى الموضوع الذي قيلت من أجله، موظّفة كلّ الأساليب والتعابير البليغة، بهدف إثارة السّامعين، كما رأينا في خطبة طارق بن زياد، حيث تحدثت الخطبة عن الإقدام واستنهاض الهمم، والتركيز على فكرة النصر أو الشهادة.

فالموضوعات تصور الصّلة القويّة بين عناصر البناء الفنيّ، بحيث تأتي الخطبة أكثر قوة وترابطاً.

وفي خطبة لابن أبي الخصال في الحضّ على الجهاد، يتحدث عن تعطيله وعن ركود ريح النصر والاهتمام بأمور الدّنيا والتمسّك بها، ثم يحضّ الناس على الجهاد مستنداً

---

[١] المقّريّ، نفح الطّيب: ٥/٥٩-٦١ .

[٢] المصدر نفسه : ٨/٣٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في ذلك إلى الأحاديث الشريفة التي تؤكد دعوته، ومنها قوله: "روي عن الحسن بن أبي الحسن البصريّ[١] – رحمه الله– أنّه قال: دخل حارثة الأنصاريّ[٢] على النبي –صلّى الله عليه وسلّم– فقال له: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت يا رسول الله مؤمناً حقاً. قال رسول الله – صلّى الله عليه وسلم – : "إنّ لكلّ إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم، بدأ بالدّاء فحسمه"، وفي بعض الآثار أنّ المسيح صلّى الله عليه وسلم كان إذا مرّ على دارٍ مات أهلها وقف عليها وقال: يا ويح لأربابك الذين توارثوك. ألم يعتبروا بفعلك في إخوانهم الماضين؟ ألا تستوحشون لتباريح العصر، وركود ريح النصر، .... "[٣]

أمّا القاضي عياض، فنجده في خطبة يركّز على جانبين :

قدرة الله عزّ وجلّ وفضائل رسوله، والدّعوة إلى التقوى مستعيناً بمختلف أساليب التعبير المؤثرة في السّامعين: النداء، والاستفهام، والمقابلة، والآيات القرآنيّة، وغيرها، بهدف التنبيه والهداية.

ومن نماذج خطبه :

"أيّها السّامع، قد أيقظك صرف القدر من سنة الهوى وَسَكراته، ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته، فتأمّل حدوده وتدبر محكم آياته "وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا".[٤]

ويقابل القاضي عياض، بين جنّة المؤمنين وعذاب الكافرين، ويوازن بين صور النعيم في الجنّة، وصور العذاب في النّار، إذ يقول في خطبته أيضاً: "سلك بهم سائق التوفيق أهدى المسالك، حملهم على جادة الجدّ علمهم بما هنالك، فلو رأيتهم في الجنّة وقد حفّت بهم الولدان والملائك، لرأيت قوماً مبرورين "مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ، لا يَرَوْنَ

---

[١] الحسن البصري، هو: أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، من سادات التابعين، وكان إمام أهل البصره، وحبر الأمة في زمنه، من الفصحاء والنّساك، ولد ٢١هـ في وادي القرى، وتوفي بالبصرة ١١٠هـ. ترجمته في: ابن قنفذ، الوفيات: ص ١٠٩ ، ابن خلدون وفيات الأعيان: ١/٣٥٤-٣٥٦، الحنبليّ، شذرات الذهب: ١/١٣٨-١٣٩ .

[٢] حارثة بن سرادقة، الأنصاريّ الخزرجيّ النجاريّ، أصيب ببدر، وأمّه الربيع بنت النضر، عمّة أنس بن مالك، قتله حبان بن العَرِقة ببدر شهيداً. ترجمته في : ابن الأثير، أسد الغابة : ١/٦٥٠ .

[٣] رسائل ابن أبي الخصال "ترسّل الفقيه الكاتب" : ص ٥٢٧-٥٢٨ .

[٤] أبو عبدالله محمد ابن القاضي عياض، التعريف بالقاضي عياض: ص ٨٤-٨٥، ابن الخطيب، الإحاطة: ٤/٢٢٧، المقّريّ، أزهار الرياض: ٤/١٧١-١٧٤ ، والآية : ٢٧ من سورة الكهف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيها شَمْساً وَلا زَمْهَريراً"[١] فلله طيب أنفاس هؤلاء القوم حين يتجلّى لهم في حضرة قدسه – ربّ الأرباب، "ونُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجَنّةَ الّتِي أُوْرَثْتُمُوهَا"[٢] بأعمالكم فطوبى لكم، .. فنهار أولئك بالشّقاوة أظلم، وليل هؤلاء بالسّعادة أشرق، فريق "سَرَابِيلُهُم مِنْ قَطِرَانٍ"[٣] وآخرون "عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ، وَحُلُّوا أَسَاوِرَ من فِضّةٍ، وَسَقَاهُمْ رَبُّهُم شَرَاباً طَهُوراً، إنّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً[٤]"[٥].

وفي خطبة ابن أبي الخصال في الشكر على نزول الغيث، مهّد لموضوع الخطبة الأساس – كما رأينا– بعد الحمد والثّناء والصّلاة على محمد صلّى الله عليه وسلّم، بوصف حال النّاس والأرض بعد انحباس المطر فترة طويلة، ثم حالهم وحال النباتات والحيوانات بعد نزوله، إلى أن يصل إلى الغرض الرئيس، وهو الشّكر على نزول الغيث، الذي فرح به الناس والطيور، ومن ذلك قوله: "فبرودُ الظّواهر مُخْضَرّة، وَثُغورُ الأزاهير مُفْتَرّة، وَمَسَرّاتُ النّفوسِ مُنْتَشِرَة، والدّنيا ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَة، ....[٦]

٣- الخاتمة :

ترتبط الخاتمة في الأذهان بتأكيد الحقائق وجوهر القضية التي يقوم عليها موضوع الخطبة، فلا تحتمل أكثر من مجرد الوصول بالسّامع إلى الاقتناع بما ورد في المضمون، وتأكيده بالعبارات الدالة، لتكتمل بذلك عناصر البناء الفنيّ.

وبالنظر في النماذج الخطابيّة الأندلسيّة، نرى أنّها حفلت بأنماط مختلفة من خواتم الخطب، ومنها: الصلاة والسلام على سيدنا محمد – صلّى الله عليه وسلّم– ومن ذلك ما ختم به لسان الدين بن الخطيب خطبته في الجهاد، إذ قال: "وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً".[٧]

وكذلك ختم أبو عبد الله بن الجنان بعض خطبه، بقوله: "صلّى الله عليه وعلى آله الطيبين، وذريته المباركين، وصحابته الأكرمين، وأزواجه أُمهات المؤمنين، صلاة

---

[١] سورة الإنسان / ١٣ .

[٢] سورة الأعراف/ ٤٣ .

[٣] سورة إبراهيم / ٥٠ .

[٤] سورة الإنسان / ٢١-٢٢ .

[٥] أبو عبدالله محمد ابن القاضي عياض، التعريف بالقاضي عياض: ص ٨٤-٨٥ ، المقري، أزهار الرياض : ٤/١٧١-١٧٤ .

[٦] رسائل ابن أبي الخصال: ص ٢٧٦ .

[٧] المقّريّ، نفح الطّيب: ٨/٣٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موصولة تتردد إلى يوم الدين، وتصعد إلى السموات العلا فتكون كتاباً في عليين، وسلم تسليماً"[١].

وهناك ، من ختم خطبته بـ "إن شاء الله"، ونجد هذا عند عبد الرحمن بن الحكم، حين خطب عقب إعلان البيعة له: "بل لكم الدنيا المزيد إن شاء الله".[٢]

وقد كثرت الخطب التي ختمت بالدعاء، وبآيات من القرآن الكريم ذات الصلة بموضوع الخطبة، ومنها، خطب القاضي منذر بن سعيد في ذم البنيان، وخطبته في الاستسقاء، ومن ذلك أيضاً، خطبة الأمير محمد التي ختمها بالدعاء: "اللهم أيّد دينك وانصر وليّك، وتمم وعدك، واخذل من عاندك وحادك".[٣]

وجاءت خطبة ابن أبي الخصال في الحض على الجهاد لتجمع بين الدعاء والآيات القرآنية، إذ قال في ختامها: "اللهم إنا لفرضك مجتمعون، ولذكرك مستمعون، وبين يدي عزتك وجلالك خاضعون، وإليك يا ذا الرحمة التي وسعت كل شيءٍ ضارعون، ... إنّ أبلغ الموعظة في القلوب وأولاها بدرك المطلوب كلام علام الغيوب. فإذا قرئ القرآن فاستمعوا بيانه واتبعوا قرآنه. (وتتعوّذ ، وتقرأ)، (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب)".[٤]

وهناك نماذج من الخطب الأندلسية ختمها الخطباء بأبيات من الشعر، من ذلك خطبة منذر بن سعيد البلوطي في حفل استقبال وفد الروم[٥]، وخطبة أحمد بن أضحى الهمداني في مدح الخليفة الناصر[٦].

في حين أننا نلاحظ، خلو بعض الخطب من الخواتيم – كما أشرنا سابقاً في الحديث عن خلو بعض الخطب من المقدّمات– إلا أنّ هذا لا يدل على الإهمال، بل ربما لم يوردها الرواة أو المؤرخون للاختصار والإيجاز، أو لاهتمامهم بمجريات الحوادث نفسها.

---

[١] المقري، نفح الطيب : ٤٢٧/٧ .

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب : ٩٠/٢-٩١، ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ص ١٨ .

[٣] ابن حيّان، المقتبس، تحقيق مكي: ص ٢٩٦-٢٩٧ .

[٤] رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٢٩، والآية من سورة البقرة / ١٨٦ .

[٥] ورد ذكر مصادر هذه الخطبة في الفصل الثالث من هذه الدراسة: ص ٨١ حاشية رقم : (٢).

[٦] سبقت الإشارة إلى مصادر هذه الخطبة في الفصل الثالث من هذه الدراسة: ص ٨٨ حاشية رقم : (٢) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصفوة القول، إنّ الخطب الأندلسيّة اتّسمت بالبناء الفنيّ المتين، وحافظت ، بشكل عام، على أصول[١] الخطابة وأقسامها المعروفة، ويظهر ذلك بجلاء في الخطب الدينيّة، ولا سيّما خطبة الجمعة، إذ تبدأ بالتحميد والصلاة على النبي، وقد يطول هذا الجزء، لكنه يحمل في مجمله إشارة إلى مضمون الخطبة، وهو القسم الثاني، ويكون في الوعظ والترغيب والترهيب من خلال مخاطبة العقل والقلب، ومن ذلك ما جاء في خطب القاضي عياض: "أيّها الإنسان، إنّ الله تعالى قد وهبك من عنايته حظاً اقتضى شرفك موفوراً، وأبرزك من العدم إلى الوجود، ومن الغيب إلى الشهود، ...، فما لك يا حيران تتلى عليك آي القرآن ولا تزدجر بعظاتها، ولا تفرق، ركبت في بحر التسويق، ولم تبال بالتخويف، أخشى عليك أن تغرق..."[٢]

فالخطيب يدعو الإنسان أن يتأمل في خلقته وعظمة خالقه، ليكون ذلك دافعاً له على الإيمان وطاعة الله.

ثم يختم الخطيب القسم الأخير من خطبته بالدّعاء: "اللّهمّ انفعنا بالكتاب والحكمة وارحمنا بالهداية والعصمة، وأوزعنا شكر ما أوليت من النعمة، "رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا"[٣]، وقد تأتي كل فقرة عنده مختومة بآية قرآنيّة.[٤]

وبهذا نرى، أنّ هذا التقسيم في البناء الفنيّ : المقدمة، والموضوع، والخاتمة، لا يدل على الانفصال بين كلّ جزء منها، بل فيه دلالة واضحة على الالتحام، والتماسك بين الهيكل والمضمون.

---

[١] يذكر عبد الواحد المراكشيّ الأصول التي يتبعها الخطيب في خطبة الجمعة بالتفصيل في كتابه، المعجب: ص ٣٤٣-٣٤٢ .

[٢] المقّريّ، أزهار الرياض: ٤/١٧١-١٧٢ .

[٣] ابن القاضي عياض، التعريف بالقاضي عياض: ص ٨٥، ابن الخطيب، الإحاطة: ٤/٢٢٨، المقّريّ، أزهار الرياض: ٤/١٧٤، والآية من سورة الكهف/ ١٠ .

[٤] المقّريّ، أزهار الرياض: ٤/١٧١-١٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- السّمات الفنيّة :

من خلال عرضنا لنماذج الخطب الأندلسيّة، لاحظنا جملة من الخصائص والسّمات الفنيّة، تستحق منّا الاهتمام والدراسة، ولعلّ أبرز هذه السمات :

١- اللغة والأسلوب :

حين نستعرض النصوص الخطابيّة ونمعن النظر فيها، فإنّه لا يخفى علينا ما اتّسمت به في عصورها الأولى، من سهولة الألفاظ ووضوحها، وبعدها عن التعقيد والغرابة، وعن كلّ ما يخلّ بفصاحة الكلمة، مثل: "بعدها عن الاستعمال المألوف، والكراهة في السجع"[١]، وغير ذلك؛ لذا فإنّنا لا نجد بصورة عامة، لفظاً يحتاج إلى جهد في الكشف عن معناه إلّا ما ندر.

ولا غرو في ذلك، فظروف البيئة الأندلسيّة وطبيعة أهلها، كانت تستدعي السهولة والألفاظ الواضحة المعبرة عن فكرهم وأدبهم. من أجل هذا فقد عني الخطباء باختيار كلماتهم،ووضعها في مكانها الملائم للموضوعات التي كانوا يطرقونها.

ومن السّمات الأسلوبيّة التي امتازت بها الخطب الأندلسيّة الإكثار من استعمال الجمل المعترضة، وبخاصة الدعائيّة منها، ولعلّ عنايتهم بها يعود إلى أنّها تعتبر "من الأصول التي يعتمدها التعبير الأدبيّ في العصور كافة، والمعبّرة عن التعظيم لله تعالى والدّعاء للسّامعين بالتوفيق والرّحمة"[٢].

ومن الأمثلة على استعمال الجمل المعترضة، ما جاء في خطبة عبد الرحمن بن الحكم: "وكان مصابنا بالإمام -رحمه الله- مما جلت به المصيبة"[٣]، ومن خطبة القاضي عياض التي ضمّنها سور القرآن : "وغفر غافر الذنب وقابل التوب للبدريين - رضي الله عنهم- ما تقدم وما تأخر حين فصّلت كلمات الله"[٤].

وقد أكثر ابن أبي الخصال من الجمل المعترضة في خطبه، ومن ذلك قوله في خطبته في عيد الأضحى: "فالسّعيد -رحمكم الله- من استودعها برّاً، واستحفظها من العمل الصّالح خبيّةً زاكيةً وسرّاً"[٥].

---

[١] عبد القاهر الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: ص ٤٦-٥٣ ، ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/١٦٣-١٩٢.

[٢] الكلاعيّ، إحكام صنعة الكلام : ص ٧٢-٨٠ .

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٩٠-٩١، ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ص ١٨ .

[٤] المقّريّ، أزهار الرياض: ٤/٧٨-٨٢ ، ونفح الطّيب: ٧/٣٣٣ - ٣٣٤ .

[٥] رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله : "هذا- رحمَكُم الله- يومُ الموسمِ الأشهر، والحجّ الأكبر"[١]، والحظّ الأوفر"[٢].

ومنها أيضاً : "ثم إنّ الإسلام - عصمكم الله- قد دخل على العذراء خِدْرَهَا، وعلمت الفرائض والسنن وقدْرَهَا"[٣].

وربّما أدّت مثل هذه الجمل المعترضة إلى التكرار، إلاّ أنّه لا يؤثر سلباً في أسلوب الخطبة، بل نجده أكثر إثارة لدى السّامعين، وجذب انتباههم إلى الأمور والحقائق، ولا سيّما في الخطب الدينيّة والاجتماعيّة، ومن ذلك ما جاء في خطبة عيد الأضحى لابن أبي الخصال: "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي وَسِعَتْ قدرته الأمور، ... "[٤]

وممّا يتعلّق بالعناية بالألفاظ، الاهتمام بالجمل والعبارات، وتحقيق الانسجام بينها، وبين المعاني، فاكسب هذا، اللغة شاعريّة؛ إذ تقوم على كلام أشبه بالمنظوم، ويرد فيها الاقتباس من القرآن الكريم، والتضمين من الأحاديث الشريفة والأمثال، فاتّسعت المعاني بقدر اتّساع الحضارة في الأندلس، وجاءت الخطب على مختلف أشكال التعبير، محتوية على السجع، والطباق، والمقابلة، بل نجد بعضها يعتمد على الخيال الفنيّ، ومن ذلك ما جاء في خطبة منذر بن سعيد البلوطي في استقبال وفد الروم: "وإني اذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمّت شعثكم، وأمّنَت سِرْبَكم، ورفعت فَرَقكم، بعد أن كنتم قليلاً فكثّركم، ومستضعفين فقوّاكم، ومستذلين فنصركم، ولاّه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شُعَلُ النفاق، حتّى صرتم مثل حدقة البعير، من ضيق الحال، ونكد العيش والتغيير"[٥].

إذ استطاع بهذه الطريقة الفنيّة، أن يصوّر جهود الخليفة في توحيد البلاد، وطرد الأعداء، وقد أشار الدكتور منجد مصطفى بهجت إلى رؤية له في أسلوب هذه الخطبة حيث رأى أنّها: "اعتمدت على إيراد المعنى الواحد بأساليب مختلفة بالاعتماد على

---

(١) إشارة الى قوله تعالى: "وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ" ، سورة التوبة/ ٣ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٧٠ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٥٧٣ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٥٦٤ .

(٥) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس: ص٦٧، المقّريّ، أزهار الرياض: ٢٧٤/٢، ونفح الطّيب: ٣٦٩/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الترادف، والمعاني بشكل عام كانت واضحة ليس فيها تعقيد أو غموض..، وتنوعت أساليبها بين جمل خبريّة وإنشائيّة، كالأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء، واعتمادها على أساليب التوكيد..، وهي لا تعتمد التزويق اللفظيّ المتكلف، وفيها بعض فنون البديع غير المتكلفة من جناس وطباق،.."[١] ، حيث يحرص الخطيب على هذا التّنوع في الأسلوب جذباً لاسماع الناس واستمالة لقلوبهم.

والملاحظ أنّ الألفاظ في الخطابة الأندلسيّة تباينت بين السهولة والوضوح، والغرابة والتعقيد، بحيث يأتي الأسلوب جزلاً قوياً لا تفهم بعض ألفاظه إلّا باستخدام مراجع اللغة، وإعمال الذهن، وربّما أراد الخطيب إظهار مقدرته اللغويّة والفنيّة ومن ذلك ما نجده في خطبة ابن أبي الخصال في الشّكر على نزول الغيث:

"وحازت من الحدائق والبساتين إقطاعاً، وسيغزّدُ في رَوْضَتِه المُكّاء[٢]، ويضحكه هذا الوابل البكّاء، وترومه فلا تَلْحَقُهُ ذُكاء[٣]، نجت به مِنَ الأفنانِ النّاعمة قِلاص[٤]، وَأحْصَنَتْهُ مِن الخُضْرِ التُّبَّعيَّةِ[٥]، دِلاص[٦]، ..."[٧].

ومهما يكن، فإنّ أشكال التعبير المختلفة، جاءت منسجمة مع الموضوعات وبأقدار مناسبة، وفي حدود الاعتدال.

٢- الأثر الدينيّ :

لا غرابة إن تضمّنت أغلب الخطب، آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبويّة الشّريفة، فقد كان الخطباء علماء وفقهاء، وكان القرآن الكريم والأحاديث الشّريفة أساس ثقافتهم، ومصدر بلاغتهم وفصاحتهم، وفيها يجدون طرق معالجة قضايا الفرد والمجتمع، وخدمة رسالتهم الدينيّة والأخلاقيّة، فهما المنهل الذي يستقون منه ألفاظهم ومعانيهم.

---

[١] منجد مصطفى بهجت، الأدب الأندلسيّ من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص ١٠٨-١٠٩ .

[٢] المكّاء : طائر صغير، وله صفيرٌ حسن: ابن منظور، لسان العرب : ٨٣/٦.

[٣] ذكاء : اسم علم للشمس: المصدر نفسه : ٤٦٦/٢

[٤] قلاص، جمع قلوص، وهي لغة: الناقة الفتية. يريد أنّ الأفنان حفظت المكاء فكأنّها نجت به إلى مكان بعيد، المصدر نفسه: ٨٩/٦ .

[٥] التبعية: الظل، المصدر نفسه: ٢٩٤/١ .

[٦] الدلاص: الدروع اللينة، المصدر نفسه : ٤٠٤/٢ .

[٧] رسائل ابن أبي الخصال: ص ٢٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كثر الاقتباس منهما في الخطب الجهاديّة والدينيّة، بحكم الغرض، وانتشر هذا الاقتباس في اللفظ والنصّ وفي المعنى، بحيث أصبحت الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة أسلوباً من الأساليب والأدوات الفنيّة للخطابة اتّبعه البلغاء منذ صدر الإسلام.

ولهذا كانت المعاني الدينيّة كثيرة: توحيد الله والثّناء على نعمه، والتسليم بقضاء الله وقدرته عند المصائب، ابتغاء الأجر من الله، وذلك ما لاحظناه في خطبة عبد الرحمن بن الحكم بعد وفاة والده، وإعلان البيعة له: "فعند الله نحتسبه، وإيّاه نسأل إلهام الصبر، وإليه نرغب في كمال الأجر والذخر"[١].

وفي خطب القاضي عياض، حيث وظّف النصّ القرآنيّ وبلاغته، فاكسب خطبه الرّوعة والرونق والبلاغة الجماليّة، ومنها خطبته التي ضمّن فيها أسماء السّور القرآنيّة، فجاء البناء الفنيّ والشكل التعبيريّ لها منسجماً مع أفكاره والحقائق التي يدعو إلى الالتزام بها، وقد أشار المقّريّ إلى هذا بقوله: "خطبه التي سارت بفصاحتها الركبان، ولهج ببلاغتها الشيب والشبان، وكان منها ما نسجه على بعض سور القرآن، بطريق الاقتباس الذي لا يلحق سامعه شكّ في تبريزه، ولا التباس".[٢]

ونسج على منوالها الخطيب الطنجاليّ، حيث قال: "الحمد لله الذي افتتح "بفاتحة" الكتاب سورة "البقرة" ليصطفي من "آل عمران" (نساء) ورجالاً وفضّلهم تفضيلاً، ومدّ "مائدة" "أنعامه" ، ورزقه ليعرف "أعراف" "أنفال" كرمه، وحقّه على أهل "التوبة"، وجعل "يونس" ، في بطن الحوت سبيلاً .."[٣]

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٩٠-٩١، ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ص ١٨ .

[٢] المقّريّ، أزهار الرياض : ٤/١٧٠ .

[٣] المقّريّ، أزهار الرياض : ٤ ٨٢-٨٥ ، ونفح الطّيب : ٧/٣٣٥-٣٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان أبو عبد الله بن أبي الخصال، ذا ثقافة دينيّة واسعة، فانعكس ذلك على فنونه النثريّة، ولا سيّما الخطابة حيث اقتبس من القرآن الكريم، ووظّف معانيه وألفاظه لخدمة الأغراض التي يدعو إليها في خطبه.

ومن ذلك قوله في خطبة الشّكر على نزول الغيث بعد اتصال القحط: "فَلَو أفصحت الظُّهور البطونُ، ونطقت السُّهولُ والحُزون، لقالت : قُتِلَ الخَرَّاصُون، الّذينَ هُمْ في غَمْرَةٍ ساهُون[١]. فشُكراً لربّنا شُكْراً، وسُحقاً للّذين بدّلوا نِعْمَتهُ كُفْراً"[٢].

ونجد عند الجاحظ ما يشير إلى دور آيات القرآن الكريم في الخطابة منذ عصر صدر الإسلام، وبعثها الحسّ الجماليّ في الخطب، وتمسك البلغاء الذين كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب آي من القرآن الكريم، فإنّ ذلك "يورث الكلام البهاء، والوقار، والرّقة، وحسن الموقع"[٣].

أمّا الحديث النبويّ الشريف، فقد استفاد الخطباء من معانيه وألفاظه بهدف التأثير في الأسماع والإقناع، وكان ابن أبي الخصال أحد رواة الحديث وعلى معرفة بعلومه، فترك ذلك أثره على خطبه، إذ اعتمد على الأحاديث للاستدلال والبرهان على صحّة ما يقول، من ذلك قوله في خطبة عيد الأضحى : "وقال صلّى الله عليه وسلّم: "ذاقَ طَعْمَ الإيمان من رَضيَ بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رَسُولاً"[٤]. و "الحياءُ من الإيمان"[٥]، و "المسلم مَنْ سَلم المسلمون من لسانه ويده"[٦].

وهكذا لو أمعنا النظر في النصوص الخطابيّة التي بين أيدينا في مختلف موضوعاتها التي تتناول الجوانب الفرديّة والاجتماعيّة، لوجدناها لا تخلو من المعاني الإسلاميّة سواء عند تصوير أحوال المسلمين من ضعف وانكسار، ونصح وإرشاد، ثم دعوة إلى جمع الكلمة ووحدة الصف.

---

[١] سورة الذاريات / ١٠-١١ .

[٢] رسائل ابن أبي الخصال : ص ٢٨٠ .

[٣] الجاحظ ، البيان والتبيين : ٦٥/١ .

[٤] الحديث في صحيح مسلم ١ : ٤٦ في باب الإيمان، (ومختصره : ١٤) .

[٥] الحديث في صحيح مسلم ١ : ٤٦ ، في كتاب الإيمان، (ومختصره : ١٥) ، وسنن ابن ماجه ١ : ١٥ وفي صحيح البخاري ١ : ٩ في كتاب الإيمان، (ومختصره : ١١) .

[٦] الحديث في صحيح البخاري ١ : ٩ ، كتاب الإيمان، (ومختصره : ١١) ، وصحيح مسلم ١ : ٤٨ ، (ومختصره : ٢٣) والنص لمسلم، ونصّ الخطبة في رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالقرآن الكريم والحديث الشّريف، كان لهما أثر كبير في أساليب الخطباء، والاقتباس منهما كان "سمة دارجة في الأدب العربيّ في مختلف عصوره ومراحله، وأصلاً من أصوله، ولهذا فإنّه من المألوف أن يستوعب النثر الأندلسيّ هذه الخاصيّة، ويسير مع الموازين العربيّة الإسلاميّة"[١]، ولا سيّما أنّ معظم موضوعات الخطب الأندلسيّة موضوعات دينيّة، فمن الطبيعيّ التأثر بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، بل لقد وصل الأمر إلى اعتماد بعض الخطباء على النصّ القرآنيّ بشكل كبير، بحيث يثير السّامعين، ويحرّك مشاعرهم، ويبعث عواطفهم من مستقرها، ومن ذلك خطبة منذ بن سعيد البلوطي في وعظ الخليفة عبد الرحمن الناصر، حين رأى كلفه ببناء مدينة الزهراء، واهتمامه بها إلى درجة تعطيل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث جمع متواليات.

٣- المزج بين النثر والشعر :

مما يلفت النظر في الخطب الأندلسيّة سمة المزج بين النثر والشعر، إذ حرص الخطباء على تضمين خطبهم أبياتاً شعريّة تارة تكون من نظمهم وإبداعهم، وأخرى تكون من أشعار غيرهم، سواء من شعراء عصرهم أو شعراء المشرق، وهم بذلك يحاولون إظهار مهارتهم وقدرتهم في النّظم والنّثر، ولا عجب في ذلك فهم خطباء أدباء وشعراء- كما رأينا من خلال بعض نماذجهم الخطابيّة - ويقول مصطفى الشكعة، إنّ "كبار كتّاب الأندلس وأدبائها هم أنفسهم كبار شعرائها المرموقين .. "[٢].

ومن أمثلة هذا المزج، ما ذيّل به منذر بن سعيد البلّوطيّ خطبته في استقبال وفد الروم على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، حيث أنشد بعد إنهاء خطبته أبياتاً شعريّة من نظمه، منها :

مَقَالِي كَحَدِّ السّيف وَسْط المحافل ... فَرَقتُ به مَا بَيْنَ حقٍّ وباطل

بقلبٍ ذكيٍّ ترتمي جَنباتُه ... كبارقِ رَعْدٍ عِنْدَ رَعْشِ الأنامل

....."[٣]

---

[١] أحمد أبو موسى، النثر الفنيّ في عصر الموحدين في الأندلس : ص ٣٣٤ .

[٢] مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسيّ موضوعاته، وفنونه : ص ٥٦٩ .

[٣] ابن خاقان، مطمح الأنفس : ص ٢٤٤ ، الزبيديّ، طبقات النّحويين واللّغويين: ص ٢٩٦، المقّريّ، نفح الطّيب: ٣٧٣/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد جاء هذا التضمين حسب ما يقتضيه حال الخطبة، ومـــا يتـــلاءم وظروفـــها الخاصة، مما يزيد من روعة الأسلوب وجلاله ويدل على براعة الخطيب وبلاغته، وأخبر عن ذلك الزبيديّ حيث قال: "وقام بين يدي أمير المؤمنين النّاصر لدين الله -رضـــي الله عنه- عند دخول رسول طاغية الروم عليه، والمجلس محتفل بأهل الخدمة، وهم قيام على أقدامهم ، فارتجل خطبة عجيبة، وذكر فيها حقّ الخلافة، وفرض الطّاعة، ووصلها بـــهذه الأبيات،..."[١] وقد أشرنا إلى الأبيات سابقاً.

وتظهر سمة الجمع بين النّثر والشّعر أيضاً، عند ابن أبي الخصال، ولا سيّما فـــي خطبه الدينيّة، ففي خطبته التي شكر الله فيها على نزول الغيث بعد انحباسه مدة طويلـــة، نجده يضمّنها الشّعر من ذلك، قوله: "في كلّ أُفقٍ قِطْرٌ"[٢] أو قِطْع[٣]، والأرض كلّها سـيف ونِطْع[٤]،... ، وجاء الجدّ وراح الهَزْل، وقلنا : هذه الشّدّة هذا الأزل، ... ،

تَخَرُّصاً وأحاديثاً مُلفّقَةً لَيْسَتْ بنبعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ[٥]

كذلك ضمّن لسان الدين بن الخطيب أبياتاً شعريّة لأبي عمر بن المرابط في خطبته الجهاديّة، إذ قال: "أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يمـــوت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده، جاهدوا في الله بالألســـن والأقـــوال حقّ جهاده :

ماذا يَكُون جوابُكُمُ لنبيّكُـــمْ وطريقُ هذا الغدرِ غَيْرُ مُمَهَّـــدِ
إنْ قال: لِمْ فَرّطتُمُ في أُمتي وتركتموهم للعدوّ المعتـــــدى؟
تالله لو أنّ العقوبة لم تُخف لكفى الحَيا من وجه ذاك السّيدِ[٦]"

ومما تجدر الإشارة إليه، أنّ الأمر لم يقف عند حد تضمين النّثر للشّعر فقد ضمّـن الخطباء الأمثال في خطبهم، للتأكيد على صحّة المعاني التي يدعون إليها، ومن الأمثلـــة على ذلك قول ابن أبي الخصال، من خطبته في الشّكر على نزول الغيث: "فالويل لأهـــل

---

[١] الزبيديّ، طبقات النّحويين واللّغويين : ص ٢٩٥-٢٩٦ .

[٢] قِطْرٌ: النحاس أو الذائب منه، ابن منظور، لسان العرب : ٥/٢٨٠ .

[٣] قِطْع: السّهم العريض: المصدر نفسه: ٥/٢٨٣ .

[٤] نِطْع: بساط من الأديم (من الجلد) ، المصدر نفسه: ٦/٢٠٨ .

[٥] البيت من قصيدة أبي تمام في فتح عمورية، ديوانه : ص ٧ ، ونصّ الخطبة في رسائل ابن أبي الخصال : ص ٢٧٤ .

[٦] المقّريّ، نفح الطّيب: ٨/٣٠٠ ، والأبيات في : تاريخ ابن خلدون : ٧/٤٠٨-٤١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأقوال المنكرات، والنّيل لأهل الشّاء والحُمُرات "المرعى والسّعدان"[١]، وأرض بكواكب النّوْر تَزْدان، وبقاعٌ تَدِينُ الغيْثَ كما تُدان»[٢]»[٣].

ونخلص إلى أنّ هذه الظاهرة، ليس بالضرورة أن تكون سمة عامة لجميع الأغراض، حيث يلاحظ أنّ أغراض الخطب تتفاوت في احتوائها لظاهرة الجمع بين النّثر والشّعر، فلا تحفل به مثلاً، الخطب الجهاديّة والخطب ذات الطابع الاجتماعيّ، بينما يلجأ في الخطب الدينيّة، أو الخطب المدحيّة ذات الطابع السياسيّ إلى التنويع بين النّثر والشّعر، كما في خطبة الهمْداني[٤]، وتضمينها الأمثال العربيّة كما رأينا في خطبة ابن أبي الخصال - السّالفة الذكر - حيث ضمّنها الأمثال: "مرعى ولا كالسعدان" و "كما تدين تدان". وكلّ موضوعات الخطابة واتجاهاتها تحدد هذا التنويع، بحيث يأتي ملائماً للسياق وظروفه الخاصة.

ومهما يكن، فإنّ المزج بين الشّعر والنّثر، من السّمات الجليّة في الخطب الأندلسيّة، وربّما وجدت لحرص الخطباء على إظهار تفوقهم في الفنيّن النّثر والشّعر، ومحاولة طرد الملل عن السّامع من خلال هذه المغايرة بين أساليب التعبير، فالشّعر موطن العاطفة والإحساس الصّادق، ولذا احتاجوا إليه في تدعيم نصوصهم الخطابيّة، وتقوية العاطفة فيها، لتحقيق الإثارة في نفوس السّامعين، لأنّ "الشّعر له قدره على تكثيف العاطفة وتركيزها، فهو خلاصة الانفعال، وتعبير عن الإحساس الصّادق الذي قد يتلاشى في بعض جوانب النّثر"[٥].

---

[١] إشارة إلى المثل: "مرعى ولا كالسعدان"، وتقول قصة المثل: إنّ امرأ القيس كان مفركاً. لا يكاد يحظى عند امرأة، فتزوج امرأة ثيباً، فجعلت لا تقبل عليه، ولا تره من نفسها شيئاً مما يحب، فقال لها ذات يوم: أين أنا من زوجك الذي كان قبلي؟ فقالت: مرعى ولا كالسعدان، فذهبت مثلاً للشيء الجيد وغيره أجود منه. والسعدان: نبت كثير الشوك لا ساق له يفرش على الأرض، تسمن الإبل إذا رعته، ليس في المراعي سائرها مثله. الميدانيّ، مجمع الأمثال: ٢٦٥/٣ العسكري، جمهرة الأمثال: ٢٤٢/٢ .

[٢] إشارة إلى المثل: "كما تدين تدان"، العسكريّ، جمهرة الأمثال: ١٦٨/٢ .

[٣] رسائل ابن أبي الخصال: ص ٢٧٧-٢٧٨ .

[٤] ابن حيان/ المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٧٤/٥-١٧٥ ، ابن الأبار، الحلة السيراء : ٢٢٨/١-٢٢٩ ، ابن الخطيب، الإحاطة: ١٥٠/١-١٥٣.

[٥] فايز عبد النبي القيسي ، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري : ص ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤- الفنون البديعيّة :

باستعراض النصوص الخطابيّة، التي وصلت إلينا من الأندلس نستطيع أن نقف على بعض المواضع التي تتضح فيها هذه الظاهرة الفنيّة.

وإذا تتبعنا تطور هذه الظاهرة، منذ الفتح الإسلاميّ للأندلس وحتّى بداية القرن الرابع الهجريّ، فإنّنا نجدها في معظم الفنون النثريّة، لكنّها لم تصل لدرجة الالتزام بها وتكلّفها، إذ يلاحظ من خلال النماذج، الخطابيّة أنّ طبيعة الموضوعات التي تناولتها الخطابة منذ الفتح، حتى مشارف القرن الرابع الهجريّ تشغل الخطباء عن الاهتمام بزخرفة الألفاظ، والاعتناء بالصنعة والمحسنات البديعيّة، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أنّ ما جاء في خطبة طارق بن زياد من السجع المتكلف، في الجزء الذي يقول فيه: "وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات في الدرّ والمرجان،... "[١] مستبعدٌ عن نثر تلك الفترة، فهي فقرة مختلفة عن بقية فقرات الخطبة. ثم أنّ خطبهم منذ الفتح وحتّى بدايات القرن الرابع الهجريّ لم تكن لتهتم بأكثر من أمور الفتح، وتثبيت دعائم الحكم الإسلاميّ في الأندلس، ولا غرو أنّها فقرة دست في خطبة طارق من قبل أعداء الإسلام لتشويه صورة هذا القائد ودوافع الفتح الإسلاميّ.

غير أنّ هذا لا يمنع من أن نجد بعض المحسنات في خطب تلك الفترة من طباق وجناس وسجع ومقابلة، وغير ذلك، اقتداءً بأسلوب القرآن الكريم والحديث الشّريف.

من ذلك ما خطب به عبد الرحمن بن الحكم بعد إعلان البيعة له، إذ قال: "الحمد لله الذي جعل الموت حتماً من قضائه، وعزماً من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته، فاستأثر بالملكوت والبقاء، وأذلّ خلقه بالفناء،..."[٢] .

فقد جاءت عباراته قصيرة، وسجعاته خفيفة دون تعقيد وقريبة من الطبع بحيث أضافت لأسلوب الخطبة قوة مؤثرة.

وهذا ما عرف عن العرب الذين استخدموا السجع في خطبهم دون قصد، وفي ذلك يقول العسكريّ: "واعلم أنّ الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب، هو أن تجعلها مزدوجة فقط ولا يلزمك فيها السجع، فإن جعلتها مسجوعة، كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد، وكثر ما يقع في السجع، وقل ما يسلم - إذا طال- من استكراه وتنافر"[٣].

---

[١] ابن خلكان، وفيات الأعيان : ٥/٣٢١-٣٢٢ ، ابن هذيل، تحفة الأنفس : ص ٧٠-٧١ .

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٩٠-٩١ ، ابن الخطيب، أعمال الأعلام : ص ١٨ .

[٣] العسكري، الصناعتين : ص ١٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا الطباق، فقد استخدمه الخطباء للعناية بالمعنى والاهتمام بالجمل، وقد أجمع أهل البلاغة على أنّ "الطباق في الكلام هو الجمع بين المعنى وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من أبيات القصيدة، وهو نوعان: طباق ايجاب؛ إذا كانت الكلمتان مختلفتين لفظاً ومعنى، وطباق سلب، إذا تحقق القصد بوجود اللفظ ومنفيه في الكلام"[١].

وهناك أمثلة كثيرة برز فيها هذا الفنّ، في مواطن مختلفة من النماذج الخطابيّة التي أوردناها ، منها على سبيل المثال: "ذلّ ، عزّ"، "تشتهون، لا تشتهون" من خطبة عبد الرحمن الدّاخل[٢]. "البقاء ، والفناء"، من خطبة عبد الرحمن بن الحكم[٣] بعد وفاة والده وأخذ البيعة له.

ولا يعني هذا، أنّ جميع الخطب اعتنت بمثل هذه المحسنات إذ نجد على سبيل المثال، خطبة الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ذات أسلوب جادٍ خالٍ من الأساليب الفنيّة والبديعيّة، واستطاعت بعبارات قصيرة أن تعبر عن معنى عظيم، ترك أثره في نفوس السّامعين.

ومما تجدر الإشارة إليه، أنّ ما بين أيدينا من نصوص خطابيّة لهذه الفترة لا يظهر فيه تكلف أو صنعة، وإنّما جاءت الخطب وليدة الموقف الذي قيلت فيه خالية من الاستعارات والتشبيهات المبالغ فيها، قائمة على الطبع وعفو الخاطر، وقد قيل: "رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة"[٤].

وفي القرن الرابع الهجريّ تزداد العناية بالخطابة، من حيث مضمونها وشكلها، بازدهار الحياة وتطور الثقافة فيها.

ومن النصوص التي احتفظت بها المصادر، خطب القاضي الأديب منذر بن سعيد البلّوطيّ، ولا سيّما خطبته في استقبال وفد الروم، حيث يظهر جلياً استخدام الخطيب لمختلف ضروب المحسنات البديعيّة، بما فيها السجع، ولكنّه على وفرته غير متكلف بل

---

[١] العسكريّ، الصناعتين: ص ٣٠٧ .

[٢] المقّريّ ، نفح الطّيب : ٤٢/٣ .

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب : ٢:٩٠-٩١، ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ص ١٨ .

[٤] الجاحظ، البيان والتبيين : ٢٦/١، ابن عبدربه، العقد الفريد : ٥١/٢ ، الحصريّ، زهر الآداب وثمر الألباب: ١١٦/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاء خفيفاً، مريحاً للأذن، وهو مثل قوله: "... لمّت شعثكم، وأَمّنت سِرْبَكم، ورفعت فَرَقكم".

وقوله أيضاً: "... بطوية صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة ثابتة، نافذة ثاقبة، وريح هابّةٍ غالبة، ..."[١].

فاستخدام السجع بهذا الأسلوب والتقسيم الدقيق للعبارات، قد جعلها تنساق إلى الأسماع بيسر تاركة أثراً لا يمكن إغفاله لدى السّامع، حيث كانت خطبة بليغة مؤثرة، وكانت موضع عناية الدارسين.[٢]

ومن الأمثلة أيضاً، خطبة الهمْداني، التي يقول فيها: "وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له إقراراً بربوبيته، وخضوعاً لعزته وعظمته، وأشهد أنّ محمداً عبده الأمّيّ، ورسوله المكّيّ"[٣].

إذ جاءت العبارات قصيرة، مسجوعة سجعاً غير متكلف، إنّما جاء عفوياً لا يثقل على السمع، "فلا خير في شيء يأتيك به التكلف"[٤].

وهكذا نرى أنّ النصوص الخطابيّة الأندلسيّة التي وصلتنا، قد غلب عليها السجع واتّسمت معظمها بالميل إلى المحسنات البديعية، ولكنّها لم تخرج عن الذوق العام، وظلت مقبولة حتّى أواخر القرن الرابع الهجري إذ وصلت إلى مستوى متقدّم، وملحوظ من التأنق والزخرفة، ووجود النصوص التي احتوت سجعاً متكلفاً، يجافي الطبع والذوق، ولا يقبله السمع.

غير أنّنا نجد تفاوتاً بين الخطباء في استعمال السجع وتزيين الكلام به، إذ لم يكونوا على درجة واحدة من الإجادة والمستوى المعرفيّ، وقد يكون التفاوت ناتجاً عن طبيعة الموضوعات، فقد يقتضي بعضها ورود المحسنات البديعيّة، بحيث لا تخلو عبارة من عباراتها من عناية مبالغ بها في استخدام ضروب المحسنات البديعيّة، وقد ترد بمقادير

---

(١) ابن خاقان، مطمح الأنفس: ص ٢٤٠-٢٤٤ ، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس: ص ٦٦-٧٠، المقّريّ، أزهار الرياض: ٢/٢٧٣-٢٧٦، ونفح الطّيب: ١/٣٦٩-٣٧٤ .

(٢) منهم: إبراهيم أبو الخشب، تاريخ الأدب العربي في الأندلس، د. مصطفى محمد السيوفي، ملامح التجديد في النثر الأندلسيّ خلال القرن الخامس الهجري، ود. منجد مصطفى بهجت، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة.

(٣) ابن حيان ، المقتبس تحقيق شالميتا: : ٥/١٧٢-١٧٥ ، ابن الخطيب، الإحاطة: ١/١٥٠-١٥٣.

(٤) الحصريّ، زهر الآداب: ١/١١٣ .

٥٢١١١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقل مما سبق، ولا سيّما في الموضوعات السياسيّة إذ يكون الأمر جاداً ، لا يسمح بمثل ذلك.

ورغم أنّ استخدام المحسنات البديعية، كان الأسلوب السائد في أواخر العهد الإسلاميّ في الأندلس، إلّا أنّنا نجد جمال الصنعة والدقة في أسلوب بعض الخطباء، قد وفر لبعض النصوص الخطابيّة الانسجام مع الذوق والطبع العربيّ الأصيل، وحسن الوقع على الأذن، فكانت نماذج حالفها التوفيق والنجاح.

ومن النماذج الخطابيّة التي لجأ فيها الخطيب إلى ضروب من المحسنات البديعيّة المختلفة من سجع وطباق، ومقابلة، وغيرها، خطب ابن أبي الخصال، فقد لجأ إلى الطباق كثيراً في خطبه، لإبراز المعنى والاهتمام بالجمل ومن ذلك ما جاء في خطبته في الحضّ على قيام الليل: "يعزّ ويذلّ، ويهدي من يشاء ويضلّ".[١]

واستعمل ابن أبي الخصال، المقابلة وهي "إبراز الكلام، ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة، فأمّا ما كان منهما في المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل"[٢]، "وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد"[٣].

من ذلك قوله: "وجاء الجدُّ، وراح الهَزْل"[٤]، وقوله أيضاً: "وأمتّ الحي، وأحييت الميت، لا هادي لمن أضللت ولا مضلّ لمن هديت، فاكفنا فيمن كفيت، وتولنا فيمن تولّيت"[٥].

فقد قابل بين جملة "وأمتّ الحي" وجملة "وأحييت الميت" وبين جملة "لا هادي لمن أضللت" وجملة لا مضلّ لمن هديت" وبين جملة "فاكفنا فيمن كفيت" وجملة "فتولنا فيمن توليت".

أمّا القاضي عياض، فيظهر من خلال خطبه مدى براعته في عملية التلوين الفنيّ، وإظهار محفوظه الثقافيّ، فجاء البناء الفني ما بين الأسلوب المسجع المتحرر من التكلّف والتعقيد فكان عفوياً مؤثراً، ليضفي ايقاعاً منغماً جمالياً لا يؤذي الأذن سماعه، والأسلوب المسجع المعقد، كقوله: "فلم يزل -صلّى الله عليه وسلم- يجاهد كل كافرٍ ومارقٍ، ويحكم

---

[١] رسائل ابن أبي الخصال : ص ٥٣٤ .

[٢] العسكري، الصناعتين: ص ٣٣٧ ، ابن الأثير، ضياء الدين، كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب: ص ١٦٧ .

[٣] ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده: ١٤/٢ .

[٤] رسائل ابن أبي الخصال : ص ٢٧٤ .

[٥] المصدر نفسه : ص ٢٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيهم الهاذم والبوارق، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق، حتّى أذعنوا للحقّ من كلّ شاهقٍ، وعمّ الإسلامُ الأباطحَ والأبارِق، ..."[١]

فنرى كيف سار الخطيب على وتيرة واحدة، والتزم حرف القاف في جميع فواصل الكلام.

وبالمقابل، فهناك من النماذج الخطابيّة للقاضي عياض ما يدل دلالة واضحة على العفوية الصادقة، ومن ذلك: "أيّها الانسان ، إنّ الله تعالى قد وهبك من عنايته حظاً اقتضى شرفك موفوراً، وأبرزك من العدم إلى الوجود، ومن الغيب إلى الشهود"[٢]

فإنّ استخدامه للسجع، كان متحرراً من التكلف، واستخدامه للطباق "العدم، الوجود، الغيب، الشهود" لم يخرج الخطبة عن سياقها. كذلك تزخر الخطب ذات الطابع الاجتماعيّ بألوان السجع وفنونه مثلما كانت الخطب الدينيّة، التي جاءت مسايرة للطبع والذوق، قائمة على التنويع في فواصل الجمل والعبارات، فلم يسر الخطيب على وتيرة واحدة بل نوع في حرف السجعة، من ذلك قول صفوان بن إدريس في خطبته في النكاح: "وفاض به نهر الالتئام السلسال المنساب، إذ لا سبيل لأن يستغني بذاته، من كان أسير هواه ومأمور لذاته، ... ، وإنّ فلاناً لمّا ارتقت همّته إلى اتّباع الصالحات وَسَمَت، وَوَسَمَته النجابة من أعلامها اللائحة بما وَسَمَت، رأى أنّ الاعتصام بالنّكاح أولى ما حمى به دينه ووقاه،..."[٣]

من هنا يمكن القول، إنّ الخطابة في عصر المرابطين والموحدين تميزت بالانتقال بين الأسلوب العفويّ الخالي من الصنعة المؤثر في النفوس، والأسلوب المغرق بالمحسنات البديعيّة، بهدف تأكيد سعة المعرفة والنقلة الحضاريّة للنثر الفنيّ في هذه الفترة، فما نجده في النماذج الخطابيّة "من مجاز وخيال وطباق وجناس وسجع ومقابلة، وغير ذلك، لا يصل إلى درجة التكلف الذي يطغى على الطبع، ولا يصل إلى الدرجة التي يصبح فيها غاية، بل يظل وسيلة فنية لترصيع الأسلوب وتنسيقه"[٤] . وهو بذلك يتشابه مع الأسلوب في أواخر القرن الرابع إلّا أنّه اتّسع باتّساع الحضارة.

---

[١] محمد ابن القاضي عياض، التعريف بالقاضي عياض : ص ٨٦ .

[٢] المقّريّ، أزهار الرياض : ٤/١٧٠ - ١٧٢ .

[٣] المقّريّ، نفح الطّيب : ٥/٥٩-٦٠ .

[٤] علي لغزيوي، أدب السياسة والحرب في الأندلس: ص ٥٣٥-٥٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا في أواخر القرن السابع والثامن ومع أواخر عهد الأندلس بالإسلام، فقد أخذت الملكات تضعف وتبعد عن الفصاحة والبلاغة، مثلها مثل حال مختلف الأوضاع التي اعتراها الضعف مع غروب شمس المسلمين في الأندلس. إذ أخذ الخطباء يتبعون طرقاً ليست قريبة من الفصاحة والبيان بشيء، وكأن الخطابة أصبحت مجالاً للمبارزة، والإتيان بالعبارات المتكلفة الغامضة، ولا سيّما في الخطب الدينيّة.

ومن أمثلة ذلك خطبة ابن الزّيّات، التي ألغيت الألف من حروفها والتزمت بالسجع، فهي وإن دلت على مقدرة الخطيب على التلاعب اللفظيّ وأن يبني خطبته على كلمات تخلو من الألف، فإنّه بهذا أوصلها إلى درجة من التعقيد في الاستدلال،والغموض في الإيضاح، والبرودة، وأبعدها عن البلاغة المؤثرة. فتراجع الأسلوب الخطابيّ كثيراً بانصافه إلى الصنعة، وأصبحت سمات التكلّف دليلاً على الضعف والركاكة.

ومن هذه الخطبة قوله: "عليم من غير ترتيب فكر، موجود من غير شيء يمسكه، معبود من غير وهم يدركه، كريم مِنْ غَيرِ عِوَضٍ يُلْحِقُه، حكيم من غير عَرضٍ يَلْحَقُه، ..."[1].

فقد ظنّ الخطيب أنّه يحسن تقديم الموعظة بهذا الأسلوب، وإثارة المشاعر والعواطف، غير أنّ أسلوبه هذا قد حاد عن تلك الغاية.

٥- الإيجاز والإطناب :

كانت الخطب الأندلسيّة تطول أو تقصر حسب موضوع الخطبة شأنها شأن الخطب في مختلف العصور الأدبيّة، وفي ذلك قال ابن عبد ربّه : "اعلم أنّ جميع الخطب على ضربين: منها الطوال، ومنها القصار، ولكل ذلك موضوع يليق به، ومكان يحسن فيه"[2].

لذا جاءت الخطب الأندلسيّة ، ولا سيّما في العصور الأولى بعضها قصيراً موجزاً، ومن أمثلة ذلك خطب الجهاد، ومنها خطبة عبد الرحمن الداخل، إذ يلاحظ أنّ الخطبة تمتاز بالقوة الوضوح والإيجاز، فظروف الخطبة لا تسمح بالإطالة، لأنّها قيلت في

---

[1] ابن الخطيب، الإحاطة : ١/٢٩٠ - ٢٩٣ .

[2] ابن عبد ربّه، العقد الفريد : ٣/١٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أثناء اشتداد وطيس المعركة. وقد تكون هناك أجزاء ضائعة من الخطبة، فتكون هذه النصوص مقاطع من خطب طويلة لم تصل إليه. وبعض الخطب السياسيّة، من مثل خطب البيعة، في حين اتصف الجزء الآخر بالإطناب، لكنّه لم يخرج إلى الإطالة المبالغ فيها، ومن ذلك خطبة القاضي منذر بن سعيد البلّوطيّ في حفل استقبال وفد الروم.

وتظهر سمة الإطناب، أيضاً في خطب ابن أبي الخصال، ومنها خطبته في الحضّ على قيام الليل، ومما قال فيها :"أيّها الناس، لا حجة بعد الرُّسُل، ولا حيرة مع وضوح السُّبل. أمثالٌ مضروبةٌ، وأعلامٌ منصوبةٌ، وأيامٌ محسوبةٌ، وغاياتٌ مطلوبةٌ، وآجالٌ مكتوبةٌ، و "نارٌ موقودةٌ على الأفئدة تطّلِعُ"[١]، وجناتٌ مُونقةٌ، ديم نعيمها لا تُقلِعُ. وسيئةٌ بحالها وحسنة بعشر أمثالها وحرامٌ وراءه عذاب، وحلال إزاءهُ ثوابٌ. فالحازمُ – رحمكم الله–، كلّ الحازم، مَنْ استبرأ لدينه، وترك الشّكّ ليقينه، وتأهب ليومه وحينه، ..[٢]

ويلاحظ هنا، أنّ ما استند عليه الخطيب من اقتباس من القرآن الكريم، وتكرار للمعاني بعبارات متعددة لتوضيح الفكرة وتأكيدها، واعتماد على الأدلة النقليّة والعقليّة التي يستدعيها الموقف، أدّى إلى الإطناب إلّا أنّه لم يخرج الخطبة عن الاستحسان، بل أفسح المجال للأديب ليعبر عن أفكاره.

وقد تستدعي بعض الخطب الإطالة، لتناولها كثيراً من الموضوعات التي تهمّ السّامعين، وبخاصة الدينيّة والاجتماعيّة، ومن أمثلة ذلك خطبة ابن أبي الخصال في عيد الأضحى، وهي خطبة دينية احتوت موضوعات دينية كثيرة تهم المؤمنين، ومنها: "هذه الأشهر الحرم قد نوه الله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم– بأسمائها، وقديماً كانت الجاهلية في ظلمها وظلمائها، وجرح معيشتها، وبرح أظمائها، تصونها عن شنّ غاراتها وسَنّ دِمائها، يخبو فيها اتّقادُها وتموت مُدّتها ضغائنها وأحقادُها"[٣]، ومنها أيضاً "ونحن– رحمكم الله– لما قصّ علينا مستمعون، ولتلك السُّنَّةِ الماضية مُتّبعُون، نُضَحّي كما ضحّوا وَنُنْسِك، ونأكُل وَنُمسِك"[٤].

---

[١] من قوله تعالى : "نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ" سورة الهمزة / ٦،٧ .

[٢] رسائل ابن أبي الخصال : ص ٥٣٧ .

[٣] رسائل ابن أبي الخصال : ص ٥٦٧-٥٦٨ .

[٤] رسائل ابن أبي الخصال : ص ٥٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد عند أبي عبد الله بن القاضي عياض، إشارة إلى إكثار والده من خطبه التي تتسم بالإطالة، حيث قال: "وخطبه -وفّقكم الله- كثيرة مدوّنة يشتمل عليها مجلّد، قرئت عليه وسمعها أكثر أصحابه، وانتُسِخَت، في الطّوال منها ما هو أغرب ممّا أثبتّه هنا"[٣].

وبهذا نرى، أنّ الخطباء الأندلسيين توجهوا في العصور الأولى إلى البساطة والوضوح والإقناع بالفكرة وعرضها مفصلة، وذلك من خلال الاستشهاد بالآيات القرآنيّة والأحاديث النبوية الشريفة، وتضمن أشعارهم أو أشعار غيرهم، ممّا أدّى إلى الكثير من الترادف وتكرار المعاني بعبارات متباينة، ولكن بأسلوب أدبيّ معبر فيه دلالة على سعة الاطلاع.

وبقي الحال كذلك حتّى العصور الأخيرة للوجود العربيّ في الأندلس، فالظروف والاضطرابات التي مرّت بها الأندلس في أواخر القرن السادس وفي القرن السابع والثامن وانهيار دولة بني الأحمر، ساهمت بشكل كبير في ضعف الملكات والقدرة على الارتجال، فأصبحت الخطب تعدّ مسبقاً، واتّسمت بالسجع والزخرفة والإطناب والإطالة، التي لا معنى لها سوى إظهار المقدرة اللغويّة، والتفوق على أدباء العصر، أو ربّما التفوق على أدباء المشرق بصورة خاصة. كما هو الحال عند لسان الدين بن الخطيب، وجلّ أدباء عصر بني الأحمر.

وأخيراً ...

فإنّ النصوص الخطابيّة الأندلسيّة استطاعت أن تعكس لنا مظاهر الحياة الاجتماعيّة والفكريّة والسياسيّة، التي كانت سائدة على امتداد العصور الإسلاميّة في الأندلس منذ الفتوحات الإسلاميّة.

---

[٣] محمد ابن القاضي عياض، التعريف بالقاضي عياض : ص ٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

* المصادر:

- ابن الأبّار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعيّ، (ت ٦٥٨هـ)

أ- تحفة القادم، ط١، علّق عليه د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٨٦م.

ب- التكملة لكتاب الصّلة، ٢ج، تحقيق عزّت العطار الحسينيّ، القاهرة، ١٩٥٦م.

جـ- الحلّة السيراء، ط٢، ٢ج، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣م.

د- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي على الصّدفيّ، طبع مجريط، ١٨٨٥م، نسخة مصورة، دار الكاتب العربيّ، القاهرة، ١٩٦٧م.

- ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الجزريّ، (ت ٦٣٧هـ)-

أ- كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، ط١، تحقيق د. النبويّ عبد الواحد شعلان، الزهراء للإعلام العربيّ، ١٩٩٤م.

ب- المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر، ٢ج، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٩م.

- ابن الأثير، أبو الحسن عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيبانيّ، (ت ٦٣٠هـ) -

أ- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط١، ٥ج، تحقيق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل احمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٤م.

ب- الكامل في التاريخ، ط٤، ٩ج، تحقيق مكتب التراث مؤسسة التاريخ العربيّ، بيروت، ١٩٩٤م.

- ابن الأحمر، أبو الوليد الأمير اسماعيل بن يوسف بن محمد، (ت ٨٠٧هـ) - نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل، (ت ٢٥٦هـ) – صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٩٥٨م. ومختصره المشهور بمختصر الزبيدي، ط٥، ضبطه د. مصطفى ديب البغا، اليمامة للطباعة والنشر، دار الإيمان، دمشق، ١٩٩٤م.
- ابن بسّام، أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني، (ت ٥٤٢هـ) – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٤ج (١١م)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.
- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، (ت ٥٧٨هـ) –

الصّلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، ط١، ٢ج، تحقيق عزت العطار الحسينيّ، القاهرة، ١٩٩٤م.

- البغداديّ، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، (ت ٧٣٩هـ) –

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٣ج، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

- البلاذريّ، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر، (ت ٢٧٩هـ) –

فتوح البلدان، عني بمراجعته رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٣م.

- الترمذيّ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، (ت ٢٧٩هـ) –

الجامع الصحيح، ط ١، ج٤، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٧.

- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، (ت ٢٣١هـ) –

ديوان أبي تمام، فسّر ألفاظه اللغويّة، محي الدين الخياط، مطابع نظارة المعارف العموميّة، القاهرة.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ) –

البيان والتبيين، ٣ج، دار الكتب العلميّة، بيروت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الكنانيّ، (ت ٨٥٢هـ)- تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعيّ الكبير، ط١، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، (ت ٤٥٦هـ)-

- جمهرة أنساب العرب، ط١، راجع النسخة لجنة من العلماء، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٣م.

- طوق الحمامة في الألفة والألاف، ط٥، تحقيق صلاح الدين القاسميّ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م.

- الحصريّ، أبو اسحاق إبراهيم بن علي الحصريّ القيروانيّ، (ت ٤٥٣هـ) - زهر الآداب وثمر الألباب، ط٣، ٢ج، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السّعادة، مصر، القاهرة، ١٩٥٣م.
- الحميديّ، أبو عبد الله محمد بن فتوح، (ت ٤٨٨هـ) -

جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ط٢، ٢ج، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٩٨٣م.

- الحميريّ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، (ت ٩٠٠هـ) -

الرّوض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، تحقيق إحسان عباس، دار العلم للطباعة، بيروت، ١٩٧٥م.

- صفة جزيرة الأندلس منتخبةٌ من الرّوض المعطار، ط٢، تحقيق إ.ليفي برفسنال، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.

- الإمام ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن هلال الشيباني، (٢٤١هـ) - مسند الإمام أحمد، مؤسسة قرطبة، مدينة الأندلس، الهرم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن حيّان، أبو مروان حيان بن خلف، (ت ٤٦٩هـ) -

المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٧٣م، و ج٥، اعتنى بنشره، ب. شالميتا وآخرين، المعهد الأسباني العربيّ للثقافة ، الرباط، مدريد، ١٩٧٩م.

- ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيليّ، (ت٥٢٩هـ) -

أ- قلائد العقيان ومحاسن الاعيان، ط١، ٤ج، تحقيق الدكتور حسين يوسف خريوش، الزرقاء، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٩م.

ب- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ط١، تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.

- الخشنيّ، أبو عبد الله محمد بن حارث، (ت٣٦١هـ) - قضاة قرطبة وعلماء أفريقية، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلاميّة، القاهرة، ١٣٧٢ هـ.

- ابن أبي الخصال، أبو عبد الله محمد بن مسعود بن خصلة بن فرج، (ت٥٤٠هـ)

- رسائل ابن أبي الخصال، المسمّى ترسّل الفقيه، ط١، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر، ١٩٨٧م.

- ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، (ت٧٧٦هـ) -

أ- الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤ج، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة، ١٩٧٤م.

ب- تاريخ إسبانيا الإسلاميّة، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ط٢، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦م.

جـ- ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب، ط١، ٢ج، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م.

د- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـ- كناسة الدّكان بعد انتقال السكان، تحقيق الدكتور محمد كمال شبانه والدكتور حسن محمود، دار الكاتب العربيّ، القاهرة، ١٩٦٦م.

و- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، مجموعة من رسائله، نشر وتحقيق أحمد مختار العباديّ، الاسكندرية، ١٩٥٨م.

ز- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي، دار الكاتب العربيّ، القاهرة، -١٩٥م .

- ابن خلدون، عبد الرحيم بن محمد الحضرميّ، (ت٨٠٨هـ) -

أ- تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ...، ط٤، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٩٥٩م.

ب- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، تعليق محمد بن تاويت، لجنة التأليف والنشر، ١٩٥١م.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، (ت٦٨١هـ) _

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ج، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧١م. وط١، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨م.

- ابن خميس المالقي، أبو بكر محمد بن محمد بن علي، (ت بعد ٦٣٩هـ) - أدباء مالقة، المسمّى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار، ط١، تحقيق الدكتور صلاح جرّار، دار البشير، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م.

- ابن دحية، مجد الدين عمر بن الحسن بن علي، أبو الخطاب، (ت٦٣٣هـ) - المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق مصطفى عوض الكريم، مطبعة مصر، الخرطوم، ١٩٥٤م.

- الذهبيّ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨هـ) - سير أعلام النبلاء، ط ٧، ٢٣ج، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن رشيق القيروانيّ، أبو علي الحسن، (ت٤٦٣هـ) -

العمدة في صناعة الشعر ونقده، ط٣، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، المكتبة التجاريّة الكبرى، ١٩٣٤م.

- الزبيديّ، أبو بكر محمد بن الحسن، (ت٣٧٩هـ) -

طبقات النّحويين واللّغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٥٤م.

- ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم، (ت٧٠٧هـ) -

صلة الصّلة، بيروت، مكتبة الخياط، ١٩٣٧م.

- ابن أبي زرع الفاسي، علي :

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.

- ابن سعيد، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى، (٦٨٥هـ) -

أ- رايات المبرّزين وغايات المميزين، تحقيق الدكتور عبد المتعال القاضي، لجنة إحياء التراث الإسلاميّ، القاهرة، ١٩٧٣م.

ب- المُغْرِب في حُلى المَغْرب، ط٣، ٢ج، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٥٥م.

- السيوطيّ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الشافعيّ، (ت٩١١هـ) -

بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنحاة، ط٢، ٢ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٩م.

- ابن شهيد، أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك، (ت٩٩٢هـ) -

رسالة التّوابع والزّوابع، تحقيق بطرس البستانيّ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م.

- ابن صاحب الصلاة، أبو مروان عبد الملك بن محمد، (ت ٥٩٤هـ)،

- تاريخ المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الصفديّ، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ) -

الوافي بالوفيات، ط٢، اعتناء س. دريد رينغ، واعتناء ايمن فؤاد سيد، دار فرانز شتايز، ١٩٧٤م.

- الصنهاجيّ عبد الله بن بلقين بن باديس، (ت٤٨٣هـ)

- مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك زيرى بغرناطة، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م.

- الضّبّي، أحمد بن يحيى بن عميرة، (ت٥٩٩هـ) -

بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ط١، ٢ج، تحقيق إبراهيم الأبياريّ، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٩٨٩م.

- الطرطوشيّ، أبو بكر محمد بن الوليد الفهري، (ت٥٢٠هـ) -

سراج الملوك، ط١، ٢ج، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، الدار المصريّة اللبنانيّة، ١٩٤٤م.

- ابن عبد ربّه، أبو عمر أحمد بن محمد، (ت٣٢٧هـ) -

العقد الفريد، شرحه وضبطه أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياريّ، دار الأندلس، بيروت، ١٩٩٦م.

- عبد القاهر الجرجانيّ، أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمن بن محمد، (ت٤٧١هـ)
- دلائل الاعجاز، ط٢، صحح أصله الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطيّ، وعلّق حواشيه الشيخ محمد رشيد رضا، دار الكتب العلميّة، بيروت.

- ابن عبد الملك المراكشيّ، محمد بن عبد الملك الانصاريّ الأوسي، (ت٧٠٣هـ)- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصّلة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥. والسفر الثامن، القسم الأول، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديميّة المملكة المغربيّة، ١٩٨٤م.

- ابن عذاري المراكشيّ، أبو عبد الله أحمد بن محمد، (ت٦٩٥هـ) -

أ- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط٢، ٤ج، تحقيق خ.س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قطعة في تاريخ المرابطين، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ١٩٦٧م.

- ابن العماد الحنبليّ، أبو الفلاح عبد الحي، (ت١٠٨٩هـ) -

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط٣، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م.

- عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى، (ت٥٤٤هـ) -

أ- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد بن تاويت الطنجيّ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة للمملكة المغربيّة، الرباط، ١٩٦٥م.

ب- الغنية، ط١، تحقيق ماهر زهير جرّار، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٨٢م.

- ابن عياض، أبو عبد الله محمد، ابن القاضي عياض اليحصبيّ، (ت٥٧٥هـ) - التعريف بالقاضي عياض، ط٢، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الرباط، ١٩٨٢م.

- الغبرينيّ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله، (ت٧١٤هـ) -

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ط١، تحقيق عادل نويهض، المكتبة الجزائريّة، بيروت، ١٩٦٩م.

- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف، (ت٤٠٣هـ) -

تاريخ علماء الأندلس، ط٢، ٣ج، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩م.

- الفيروز آبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب بن إبراهيم الشيرازي، (ت٨٢٣هـ)

- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ط١، تحقيق محمد المصري، مركز المخطوطات والتراث، جمعية أحياء التراث الإسلاميّ، ١٩٨٧م.

- ابن القطان، أبو الحسن علي، (ت٦٢٨هـ) -

نظم الجمان، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، المركز الجامعيّ للبحث العلميّ، جامعة محمد الخامس، الرباط.

- القلقشنديّ، أحمد بن علي، (ت٨٢١هـ) -

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صبح الأعشى في صناع الإنشا، ط١، علّق عليه نبيل خالد الخطيب، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٧م.

- ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب، (ت٨٠٧هـ) – الوفيات، ط٣، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن القوطيّة، أبو بكر محمد بن عمر الأندلسيّ، (ت٣٦٧هـ) – تاريخ افتتاح الأندلس، ط١، تحقيق الدكتور عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمرو القرشي، (ت٧٧٤هـ) – البداية والنهاية (في التاريخ)، ط٢، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٧م.
- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزريّ.
  - تاريخ الأندلس، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلاميّة، مدريد، ١٩٧١م.
- الكلاعيّ، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعيّ الإشبيليّ الاندلسيّ من أعلام القرن السادس – إحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م.
- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت٢٧٣هـ) – سنن ابن ماجة، ط١، شرح محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٨٦م.
- المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله، (ت بعد ٤٥٣هـ) – رياض النفوس من طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهّادهم وعبّادهم ونسّاكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ط٢، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٤م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، (ت٢٨٥هـ) – الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف، بيروت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المراكشي، عبد الواحد محي الدين بن علي التميمي، أبو محمد، (ت٦٤٧هـ)

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط٣، تحقيق محمد بن سعيد العريان، القاهرة، ١٩٤٩م.

- مسلم، الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت٢٦١هـ) - صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، معهد الدراسات الإسلاميّة، مدريد، القاهرة، ١٩٥٥م.

- المقّريّ، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، (ت١٠٤١هـ) -

أ- أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، ١٩٤٠-١٩٤٢م.

ب- نفخ الطّيب من غصن الأندلس الرطيب، ٨ج، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م. و ط١، تحقيق مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٥م.

- المكناسيّ، أبو العباس أحمد بن محمد، (ت١٠٢٥هـ) -

جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس، ٢ج، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٤م.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصريّ، (ت٧١١هـ) - لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.

- مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، مدريد، ريفادنييرا، ١٨٦٧م.

- مؤلف من القرن الثالث الهجري، الإمامة والسياسة، تحقيق مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م. وتحقيق سعيد صالح موسى خليل، ١٩٧٨م.

- مؤلف مجهول، التأريخ، تحقيق خورخي أغوادي، المجلس الأعلى للأبحاث العلميّة، معهد التعاون مع العالم العربيّ، مدريد، ١٩٩١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- مؤلف من القرن الثامن الهجري، الحلل الموشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٩م.
- الميدانيّ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، (ت٥١٨هـ) -

مجمع الأمثال، ط٢، ٤ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧م.

- الناصريّ، الشيخ أبو العباس، أحمد بن خالد.

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصريّ ومحمد الناصريّ، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٦م.

- النباهيّ، أبو الحسن علي عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن الحسن الجذاميّ، (ت بعد ٧٩٢هـ)

- تاريخ قضاة الأندلس، (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، ١٩٤٨م.

- ابن هذيل، علي بن عبد الرحمن الفزاريّ، (ت٧٦٣هـ) -

تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، تحقيق بوليس مرسي، المطبعة الشرفيّة، باريس، ١٩٣٣م.

- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، (ت٣٩٥هـ) -

أ- جمهرة الامثال، ط٢، ٢ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.

ب- الصناعتين، الكتابة والشعر، ط١، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٥٢م.

- الهنديّ، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين، (ت٩٧٥هـ) -

كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ١٦ج، ضبطه الشيخ بكري حياني، وصححه الشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الهيثميّ، ابن أبي بكر، نور الدين علي، (ت٨٠٧هـ) -

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بتحرير الحافظين العراقي وابن حجر، مكتبة القدسيّ، القاهرة، درب السعادة.

- النويريّ، شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب، (ت٧٣٣هـ) -

نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار، يصدرها المجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م.

- اليافعيّ، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليمنيّ المكيّ، (ت٧٦٨هـ)

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط١، ٤ج، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٧م.

- ياقوت الحمويّ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (ت٦٢٦هـ) -

أ- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء، ٧ج، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٣م.

ب- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٨٦٥م، ١٩٨٦م.

- اليعقوبيّ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، (ت٢٨٤هـ) - تاريخ اليعقوبيّ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

- **<u>المراجع باللغة العربية:</u>**

- إبراهيم البدوي - فنّ الخطابة، ط١، دار الأمير، بيروت، ١٩٩٤م.
- إبراهيم أبو الخشب - تاريخ الأدب العربي في الأندلس، ط، دار الفكر العربيّ، القاهرة.
- إحسان عباس - تاريخ الأدب الأندلسيّ، عصر سيادة قرطبة، ط٤، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- تاريخ الأدب الاندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٤م.

- أحمد أمين – ظهر الإسلام، ط ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.
- أحمد الحوفي – فن الخطابة، ط٤، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٢م.
- أحمد ضيف – بلاغة العرب في الأندلس، ط ، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٢٤م.
- أحمد هيكل – الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.
- بطرس البستاني – معارك العرب في الشرق والغرب، دار مارون عبود، ١٩٧٩م.
- حسن إبراهيم حسن – تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م.
- حسين مؤنس – شيوخ العصر في الأندلس، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.
- حكمة علي الأوسي – فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث، ط٤، مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٣م.
- حنا الفاخوري – تاريخ الأدرب العربي، ط٢، المطبعة البوليسية، ١٩٥٣م.
- زكي مبارك – النثر الفني في القرن الرابع، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٧م.
- السيد سابق – فقه السنة، ط٤، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.
- السيد عبد العزيز سالم – تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢م.
- شكيب أرسلان– الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- شوقي ضيف – الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط٥، دار المعارف، مصر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عباس الجراري – الأدب المغربي من خـــلال ظواهــره وقضايــاه، ط، مكتبــة المعارف، الرباط، ١٩٧٩م.
- عبد السلام شقور – القاضي عياض الأديب، ط١، دار أمل، طنجة، ١٩٨٣م.
- عبد العزيز عتيق – الأدب العربي في الأندلس، ط، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦م.
- عبد الله كنون – النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط٢، دار الكتـــاب اللبنـــاني، ١٩٦١م.
- علي لغزيوي – أدب السياسة والحرب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهايــة القرن الرابع الهجري، مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٧م.
- علي محفوظ – فن الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٤م.
- علي بن محمد – النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م.
- علي محمد حموده – تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتمـــاعي، ط١، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٥٧م.
- علي محمد راضي – الأندلس .. والناصر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشـــر، ١٩٦٧م.
- عمر الدقاق – ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق العربي، بيروت، ١٩٧٣م.
- عمر فروخ – تاريخ الأدب العربي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.
- فايز ترحيني – الخطابة والنهج، ط١، دار النخيل للنشر، بيروت، ١٩٩٢م.
- محمد بن تاويت – الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ط١، دار الثقافــة، الدار البيضاء، ١٩٨٢م.
- محمد أبو زهرة – الخطابة أصولها وتاريخها، ط٢، دار الفكر العربي، ١٩٨٠م.
- محمد عبد الغني حسن – الخطب والمواعظ، دار المعـــارف، مصـــر، القـــاهرة، ١٩٥٥م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمد عبد الله عنان – دولة الإسلام في الأندلس، ط٣، مكتبة الخانجي، القـــاهرة، ١٩٨٨م.
- محمد عبد المنعم خفاجي – الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، ط١، دار الجيـــل، بيروت، ١٩٩٢م.
  - الحياة الأدبية في الأندلس، ط١، القاهرة، ١٩٥٠م.
  - قصة الأدب في الأندلس، ط١، المطبعة المنيرية بالأزهر، ١٩٥٦م.
- مصطفى الزباخ – فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطيـــن، ط١، الـــدار العالمية للكتاب، المغرب، ١٩٨٧م.
- مصطفى الشكعة – الأدب الأندلسي موضوعاته، وفنونه، دار النهضـــة العربيـــة، بيروت، ١٩٧١م.
- مصطفى عوض الكريم – الأدب الأندلسيّ في عـــهد المرابطيـــن، الخرطـــوم، ١٩٦٨م.
- مصطفى محمد أحمد علي السيوفيّ – ملامح التجديد في النّثر الأندلســيّ، خـــلال القرن الخامس الهجري، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م.
- منجد مصطفى بهجت – الأدب الأندلسيّ من الفتح حتى سقوط غرناطة، مديريـــة دار الكتب للطباعة، الموصل، ١٩٨٨م.
- هناء الدويرري – الموجز في تاريخ الأدب الأندلسيّ والمغربيّ، دمشق، جامعـــة دمشق، ١٩٨٥م.
- وائل أبو صالح – الجواري في الأندلس، ط١، دار العلم، رام الله، ١٩٨٥م.
- ياسر الملاح – من الفجر إلى الغروب (قصة الأدب العربيّ في الأندلـــس)، ط١، مطبعة الإسراء، القدس، ١٩٩٣م.
- يوسف طويل – مدخل إلى الأدب الأندلسيّ، ط١، دار الفكر اللبنـــانيّ، بـــيروت، ١٩٩١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* المراجع المترجمة:

- أشباخ، يوسف – تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، ط٢، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٨م.
- بروفنسال، إ.ليفي – حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار الحياة، بيروت، -١٩٦م.
- مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، ١٩٤١م.
- جنثالث، بالنثيا – تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ط١، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م.
- ر. دوزى – تاريخ مسلمي إسبانيا، ترجمة الدكتور حسن حبشي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.

* بحوث منشورة في :

١- كتاب لمجموعة مؤلفين:

- عبد الكبير المدغري – القاضي عياض المصلح الاجتماعي، ندوة الإمام مالك، دورة القاضي عياض، ط، ج٢، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مراكش، ١٩٨١م.
- علي دياب – انتقال العلوم العربية من الشرق إلى الغرب وتأثيرها في أوروبا، السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ط١، القسم الثالث، الحضارة والعمارة والفنون، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٩٩٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- الدوريات:

- حازم عبد الله خضر - "القاضي الأديب منذر بن سعيد البلوطي"، كلية الآداب، العدد٤، الموصل، ١٩٧٢م.
- جاسر أبو صفية - "أهمية البرديات في كتابة التاريخ الاسلامي"، مجلة الفيصل، العدد ٢٧٧، السنة ١٩٩٩: ص ٢٣ .
- عباس الجراري - "نشأة الأدب العربي في المغرب ظروفها ومظاهرها"، المناهل، العدد٢، السنة الثانية، ١٩٧٥م.
- عبد السلام الهراس - "خطبة طارق بن زياد من جديد"، دعوة الحق، العدد ٦،٥، السنة ١١.
- عبد الله كنون - "القاضي عياض أديباً"، المناهل، العدد ١٩، السنة ٧، ١٩٨٠م.
- "لسان الدين بن الخطيب الكاتب الساخر"، البحث العلمي، العدد٢، السنة الأولى، ١٩٦٤م.
- محمد بن تاويت الطنجي - "تقديم حول القاضي عياض"، مجلة المناهل، العدد ١٩، السنة ٧، ١٩٨٠م.

* الرسائل الجامعية:

- رضا عبد الغني الكساسبة - أساليب النثر في عصر الموحدين وارتباطها بواقعهم الحضاري، رسالة ماجستير، القديس يوسف، بيروت، ١٩٩٤م.
- فايز عبد النبي القيسي - أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٦م.
- فريال العلي - فنّ الخطابة في العصر الأموي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٥م .
- مصطفى العيس - فنّ الرسائل في الأدب الأندلسي في عصر الخلافة الأموية والطوائف، رسالة ماجستير، جامعة حلب، ١٩٨٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

The Art of Khatabah (Oratory) in AL-Andalus

By
Nawal Abdel Rahman Moh'd AL Shawabkeh

Supervisor
Professor Dr. Salah Jarrar

This study deals with the art of Khatabah (Oratory) in AL-Andalus during the Islamic rule in an attempt to analytically study its texts and to specify its technical characteristics in light of the narration supporting it.

The study incorporates a preface and four chapters:
The preface tackles the features of public life in AL Aandalus: the political, social environment and intellectual life.

The first chapter discusses the origin of Khatabah (Oratory), the factors affecting its weakness and the prosperity and the stages of its development since the Ommayads assumed power in AL-Andalus until the decline of Muslims in Granada.

The second chapter deals with oratory texts and shows the extent to which such texts represent the attitudes and the opinions of their originators. The third chapter discusses a models of the most famous orators and sheds some light on a number of stops in their life and their role in the prosperity of Khatabah (Oratory) in AL-Andalus.

The fourth chapter is a study of the technical features of Khatabah (Oratory) during the AL-Andalus era in light of the oratory texts we have received.

The study has concluded by a number of results, most important of which are:
- That there were some shortage or increases in the terms of the speeches of Jihad and War, perhaps with the aim of distorting the image of conquest and conqueror as is confirmed by the references and the controversy of narration.
- The scarcity of oratory texts does not mean the shortage of Khatabah (Oratory) in AL-Andalus, its absence or non-existence.
- The concern of historians about facts and political events have led to their failure to prove the texts or to refrain from mentioning them in principle thus, preventing the presentation of a clear picture about Khatabah (Oratory) in AL-Andalus.
- The subjects of Khatabah (Oratory) in AL-Andalus had diversified and expanded with the expansion of civilization in AL-Andalus.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit